وزَارَةُ التَّعليمِ العَالي وَالبَحثِ العِلمِيّ
جَامِعَةُ القادِسِيَّةِ/ كُليَّـةُ الآدَابِ
قِسـمُ الُّلغَـةِ العَرَبِيَّـةِ
الدّرَاسَـاتُ العُلْيَـا

الشَّخصِية الثانوية فِي القَصَص القُرْآني

"دراسة تحليلية"

رِسَالَة تَقَدَّمَ بِهَا

عَقِيْل عَبد مُسْلِم هَاشِم الفحَّام

إلى مَجْلِسِ كُلّيَةِ الآدَاب/جَامعَة القَادسيَّة وهيَ مِنْ مُتَطَلّبات نَيْل شَهادَةِ المَاجِسْتِيْر في اللُّغَةِ العَرَبيَّةِ وآدابِهَا

بإشراف

الأستاذ المسَاعِد الدكتور كريم مهدِي المسعودِي

١٤٤١هـ ٢٠٢٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ
حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ
وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

(يوسف ١١١.)

صدق الله العلي العظيم

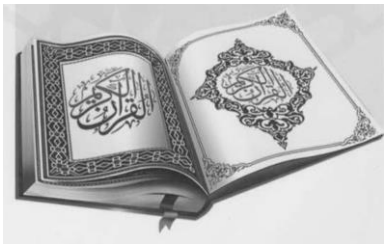

الإهْـدَاءُ

إلى مَنْ ضمَّني صدْراً وقلباً طيّباً، لكنَّهُ لم ينْتظِرْ، جناه . .

أبي، (رَحمهُ اللهُ)

إلى عُنْوانِ المودَّةِ ومَاءِ الحياةِ، ورُوْحِ المحبَّةِ، وفيْهَا النَّجاةْ . .

أُمّي

إلى صاحِبِ الفضْلِ الذي حثَّني على مُتابعةِ العِلْمِ والتَّمسكِ به وأفادني بعلمه، وقدْ قالَ ربّي: (ولا تنسوا الفضْلَ بيْنكُمْ) . .

أخي: الدُّكتور نجم الفحّام

إلى إخوةٍ أنبتَ اللهُ ألفهُمْ، وغذّى أرْواحهُمْ محبّةً ومودّةً، فهُمُ الأشِقّاءُ الأصْدِقاءُ . .

أخي: السَّيد محمّد الفحّام، الدُّكتور علي الفحّام، الدُّكتور كرار الفحّام

إلى لُبِّ الوفاءِ، والإخْلاصِ كُلِّه، إلى الزَّهْرةِ المُثْمِرةِ، بَلِ الرَّبيْعِ بأجْمعِه . .

زوجتي الدُّكتورة ميعاد

إلى أقْمارٍ ثلاثةٍ اكْتمَلَ تمامُهُن، . . . لِلْكبدِ أفْلاذٌ رَوْحٌ وريْحانْ . .

أوْلادي: الفضل، قمر فاطمة، وهاشم

أُهْدِي جُهْدِيَ القليلَ

شُكْرٌ وامتنانٌ

لكل بحث جهدٌ ومتاعبُ لا بُدَّ أن يمرَّ بها، لاسيما بحثٌ، كرسالة الماجستير التي تحتاج إلى عناء وكدٍّ، وخير الجهد والسعي ما يكون في طريق العلم والمعرفة، فيكون الذي سعى لكسبه ملزماً بأن يقدم حقَّ ماكسب، لذلك يُقدَّمُ الشكر لكلِّ مَن يستحقه. وقد أُثِرَ عن أمير المؤمنين(ع) قوله: ومَن لم يشكر المخلوق لم يشكر الخالق. إذن لابُدَّ مِنْ شُكرٍ أبعثُهُ مِنْ قلبي ووجداني إلى كُلّ الذينَ ساهموا وأخلصُوا حتى تَرَكوا أثَراً مهمّاً في هذهِ الدّراسَةِ، فجزاهم اللهُ خيراً وسدَّدَهم بالتوفيق دوماً؛ لـذا أتقدم بجزيل شكري وعظيم امتناني إلى صاحب الفضل الكبير أستاذي الفاضل: الدكتور كريم مهدي المسعودي، المشرف على هذه الرّسالة لما منحني من وقته الثّمين، وتوجيهاته السّديدة، فجزاه الله تعالى عنّي خير جزاء المحسنين، وأمدّ في عمره وبارك في جهده.

وأشكر أساتذتي الكرام في قسم اللغة العربية الذين بذلوا غاية جهدهم لإنارة طريقنا، وأخصّ بالشُّكرِ الجزيلِ استاذي الفاضل الدكتور حسين عبيد الشمري، الذي لم أستَغنِ عنْ مَشورتهِ العِلميّةِ، أو توجيهاته الرصينة التي أفادَني بها إفادةً كريمةً في دراستي، فجزاهُ اللهُ أفضلَ جزاءِ الناصحين.

وأُقدّمُ شُكري وامتناني إلى العاملينَ في: مكتبةِ قِسْمِ اللُّغةِ العربيّةِ، ومكتبةِ كُلّيةِ الآدابِ، والمكتبةِ المركزيّةِ/جامعة القادسيّة، ومكتبةِ كُلّيةِ التربيةِ، ومكتبةِ قسم اللغة العربية/ كُلّيةِ التربيةِ؛ لتعاونهم المخلص، وبذلهم الجهد في رَفْدِي بما أحتاجه من الكتب والبحوث، جزى اللهُ الجميع أفْضَل الجزَاءِ وأجمله.

عقيل الفحام

قـرار لجنة المناقشة

نحن أعضاء لجنة المناقشة، نشهد بأننا اطلعنا على رسالة الطالب (عقيل عبدمسلم هاشم الفحّام) الموسومة بـ (الشخصية الثانوية في القصص القرآني "دراسة تحليلية") وقد ناقشنا الطالب في محتوياتها وفيما له علاقة بها، ونعتقد أنها جديرة بالقبول لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها / أدب بتقدير ..جيد جداً..

الإمضـاء:

الاسم : أ. د. حسين عبيد الشمري.

التاريخ :

رئيس اللجنـة.

الإمضـاء:

الاسم : أ. د. زينب جاسم محمد.

التاريخ :

عضـواً.

الإمضـاء:

الاسم : أ. م. د. ميثم قيس مطلك.

التاريخ :

عضـواً.

الإمضـاء:

الاسم : أ. م. د. كريم مهدي المسعودي.

التاريخ :

عضواً ومشرفـاً.

مصادقة مجلس كلية الآداب

الإمضـاء:

الاسم : ياسر علي عبد سلمان الخالدي.

اللقب العلمي: أ. د.

المنصب: عميد الكلية.

التاريخ:

الـفهـرسـت

الموضوع	الصفحة
الآية	
الإهداء	
شكر وامتنان	
الفهرست	
المقدمة	**أ- خ**
التمهيد	**١- ٢٥**
الشخصية القصصية مفهومها وانماطها	**١**
• الشخصية القصصية	٢
١- الشخصية الرئيسة أو المحورية	٣
٢- الشخصية الثانوية	٤
أ- الشخصية المُسطحة	٨
ب-الشخصية المُدورة (النامية)	١١
• طرائق رسم الشخصيات (التشخيص)	١٥
• الشخصية عند أصحاب المنهج البنيوي التكويني	١٨
الفصل الأول: الشخصيات الثانوية الجماعية	٢٦- ٦٥
المدخل	٢٧-٢٨
المبحث الأول: الشخصيات غيرالمرئية	٢٩-٤٠
أولاً: الملائكة	٢٩
ثانياً: الجـن	٣٤
المبحث الثاني: الشخصيات المرئية	٤٠-٤٧
أولاً: شخصية الملأ	٤٠
ثانياً: شخصية السحرة	٤٨-٥٥
ثالثاً: شخصية أخوة يوسف عليه السلام	٥٦-٥٩
رابعاً: شخصية السَّيَّارة	٦٠-٦٢

خـامسـاً: شخصية النّسوة	٦٣-٦٥
الفصل الثاني: الشخصيات الثانوية الحاكمة	**٦٦-١١٠**
المدخل	٦٧
المبحث الأول: شخصية الملك	٦٨-٨٥
المبحث الثاني: شخصية العزيز	٨٦-٩٠
المبحث الثالث: شخصية فرعون	٩١-١٠١
المبحث الرابع: شخصية المرأة الحاكمة	١٠٢-١١١
الفصل الثالث: الشخصيات الثانوية النِّسائية	**١١٢-١٥٧**
المدخل	١١٣
المبحث الأول: شخصية الزوجة	١١٤- ١١٨
المبحث الثاني: شخصية امرأتي نوح ولوط (ع)	١١٩- ١٢١
المبحث الثالث: شخصية امرأة فرعون	١٢٢- ١٢٨
المبحث الرابع: شخصية امرأة العزيز	١٢٩- ١٣٣
المبحث الخامس: شخصية الأمِّ	١٣٤- ١٣٩
المبحث السادس: شخصية الأخت	١٤٠- ١٤٤
المبحث السابع: شخصية مريم (ع)	١٤٥- ١٥٧
الخاتمة	**١٥٨-١٦٠**
المصادر والمراجع	**١٦١-١٧٤**
الملخص باللغة الإنجليزية	**a- b**

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـة

الحمد لله والشكر على ما أنعم، وصلى الله على سيدنا وملاذنا وأنيس نفوسنا، نبي الرحمة والهدى أبي الزهراء محمد بن عبدالله، وعلى آله الطيبين الأطهار وصحابته المنتجبين الأبرار...

أمَّا بعد:

فالقصة لم تكن وليدةَ العصر الحديث الذي اشتهرت فيه، وبلغت أوجَّ اكتمالها، فهي ذات جذور قديمةٍ وُجِدت عند أُممٍ كثيرةٍ ومختلفةٍ في ثقافاتها المتنوعة، وكان للعرب – شأن غيرهم – قصصهم. وعند نزول القرآن الكريم توضَّحت معالم القصص لدى العرب أكثر فأكثر؛ إذ كان هذا الكتاب كاشفاً معالم هذا الفن بكلِّ ما يحمل من صفاتٍ وخصائص تؤهله لبلوغ الهدف الذي جاء لأجله، والغاية التي قصد الوصول إليها.

ومما لاشكَّ فيه أنَّ هذا القصص يختلف اختلافاً جذرياً عن ذلك القصص الذي تخطُّهُ يد البشر بأمزجةٍ وأذواق متباينةٍ تفرضها الحالة النفسية للكاتب، فالقصص القرآني له ميزتهُ الخاصةُ والمتفردةُ بأسلوبها وصياغاتها العليا، إنه لا يشبه كلام البشر بمعانيه ومقاصده؛ لأنه كلامٌ منزَّهٌ عن العيوب والرغبات الإنسانية، ولايمكن بأيِّ حالٍ من الأحوالِ أن ينفذ إليه الخيال أو الأساطير المُتَوهَّمةُ التي هي من صنع المخلوقين؛ لأنه قصصٌ خُصِّصَ لهداية الإنسان وصلاحهِ، ولبيان أهداف وجودهِ في هذه الحياة الدنيا، وأهمُّ من هذا كلِّهِ، هو كلام الخالق الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾. [فصّلت:٤٢]

إنَّ القصة لابدَّ أن تشتمل على عناصر عدة تكون المفتاح الأول لنجاحها. وتعدُّ الشخصية القصصية عنصراً ضرورياً وفاعلاً في بناء أيَّةِ قصةٍ؛ لأنها هي من يقوم بالأحداث وحركتها، وتطوير تلك الحوادث من خلال مواقفها، وطريقة تعاطيها مع الأحداث والشخصيات من حولها. فإن تمَّ تقسيم الأعمال والوظائف داخل العمل القصصي بين عناصره، فلا ريب أنَّ الشخصيةَ تكون في مقدمة تلك العناصر، وأهمها مركزيةً في إدارة الوظائف.

من هنا بدأت عناية الباحث بالشخصية في القصة والرواية منذ زمن مبكر قبل أن يصل مرحلة الدراسات العليا، وما لها من دور داخل القصة يصل إلى أقوى حركة لها أو يكون بسيطاً بحسب مهامها، ونوازعها المتنوعة والمتغيرة خلال مواقفها، حيث المواقف التي تمرُّ بها خلال تأديتها وظائفها التي أُنيطت بها.

ولأنني كنت أميل إلى التعمق في البحث القرآني ودلالاته العظيمة؛ فقد انصبَّ اهتمامي على دراسة القصص القرآني من الوجهة الأدبية، وكانت الشخصية موضع اهتمامي، ومدار تفكيري، فاخترت واحدا من أنواعها ليكون مجالاً لدراستي؛ فكان البحث بعنوان (الشخصية الثانوية في القصص القرآني، دراسة تحليلية)، وذلك لدواعٍ عدَّةٍ يأتي في مقدمتها أهمية الشخصية الثانوية ودورها القصصي، وما تتمتع به من عوالمَ خفيةٍ أو معلنةٍ تقف وراء تحركاتها؛ لأنها العنصر الأبرز، والركن الأهم في مجريات الأحداث وتطورها وبلوغها الذروة المطلوبة من تداخل الأحداث والمواقف، إذ لم تُدرَس الشخصية الثانوية – على حدِّ علمي – دراسةً مستفيضةً من كلِّ جوانبها، لاسيما في القصص القرآني الذي تمتلك الشخصية فيه خصائص وصفات مميزةً، وعلى الرغم من وجود دراسات عديدة للشخصية الرئيسة في الأعمال الروائية، والقصص القرآني، لكنه لم ترد دراسات عن الشخصية الثانوية إلا قليلةً، لاسيما في الدراسات القصصية القرآنية التي ركَّزت على الرئيسة فقط، ومرَّت بالثانوية مروراً سريعاً، فضلا عن أنَّ هناك من الدراسات ما أعطت أبرز خصائص وصفات الشخصية الثانوية إلى غيرها، فنسبت صفاتها إلى أسماء أُخرى، وأزالت عنها اسمها الذي وضعه النقاد والباحثون لها، ومن أبرز تلك الأسماء والصفات هي (الساندة) و (المشابهة للرئيسة) أو (غير الرئيسة) وغيرها، في حين أنَّ المساندَةَ وإكمالَ الأدوار وغيرهما هي من جُلِّ أعمال ووظائف الشخصية الثانوية، وهي باقيةٌ فيها مهما تعددت الأسماء والأفعال.

لابد لكل دراسة من أهداف تسير نحوها، ومن أهمِّ أهداف هذه الدراسة هو إبراز خصائص الشخصية الثانوية على أكمل وجه من خلال ماتقوم به من أفعال ونشاط تَحَدَّدَ بوظيفتها التي وُضِعت لها بوصفها شخصية مساندة، وفاعلة تؤدي دورها لضمان سير القصِّ وديموته، ولاتعني تسميتها بالثانوية أنها شخصية ضعيفة تابعة لغيرها، بل هي أساسٌ من أساسات البناء القصصي ودعاماته المتينة.

إنَّ الوجود الفعلي لها في القصص القرآني كان له أثر واضح في تعاملها مع الأحداث المحيطة بها، وهذا الوجود كان أمراً مهماً لتأخذ مكانتها الجديرة بها من خلال صفاتها وملامحها التي عُرِفت بها شخصيةً تحمل مختلف الرؤى والأفكار، والأفق المضيء في معالجة المشكلات التي تمرُّ بها، ومن هنا فإنَّ لهذه الشخصية تفرداً بين الشخصيات الأُخرى.

تطرَّقت الدراسات التي تعنى بالشخصية القصصية الى الشخصيات الثانوية، غير أنَّ الدراسات والبحوث التي عُنيت بالقصص القرآني لم تفرد لهذا النوع من الشخصيات ما يستحقه من الاهتمام، ولكن الحق يقتضي أن تذكر الدراسات التي أفدنا منها – قديمها وحديثها – سواء ما يتصل بالشخصيات في القصص عامة، أم ما يخص شخصيات القصص القرآني، ومن ذلك على سبيل المثال:

١- قصص القران الكريم دلالياً وجمالياً، د. محمود البستاني.
٢- الشخصيات غير الرئيسة في رواية مدينة الله لحسن حميد، كوثر محمد علي.
٣- الشخصية في رواية اللاز للطاهر وطار"دراسة فنية"، لزهر ساكر.
٤- الشخصية البطلة في أدب البطولة الجزائري بين الحضور والغياب"فن المغازي وقصص الأولياء" أنموذجاً، صليحة عوينات.
٥- الشخصية اليهودية في القصة القرآنية "دراسة تحليلية مقارنة"، أحلام فرج إبراهيم.

إنَّ من أبرز الصعوبات التي واجهت الباحث، هي صعوبة التعامل مع شخصيات القصص القرآني من حيث الكيفية التي تُعطي الباحث والبحث حرية التصرف والاستدلال في معرفة كنه تلك الشخصيات، وحركاتها أثناء عملها، لاسيما في منهج مثل المنهج البنيوي التكويني، الذي يعتمد في عمله على توافر إحاطة وافيةٍ بالأبعاد المختلفة التي تحيط بالشخصية. ومن المعلوم أنَّ شخصيات القرآن الكريم كانت دقيقةً في تحركها، ولها آثر واضح في أداء وظائفها المقصودة، فهي تختلف عن شخصياتٍ تخطُّها أقلام الكتاب والروائيين بخيالاتهم المحدودة والبسيطة، وما يدخلها من مبالغة في صنعها كي تنجح وتبدو مكتملةً للقارئ، وذلك تبعاً لطبيعة البشر التي تقف عند حدود معينة لا يمكن تجاوزها، في حين نجد شخصيات القصص والقرآن من الصعب تحديدها بهدف معين تقف عنده أهدافها في معالجة مختلف ما مرَّ بها، وتصحيح ما سيء فهمه من خلال حركة شخصياته الواقعية المتواصلة بالعطاء، فضلاً عن الهدف الأساسي الذي

صيغت من أجله أغلب القصص بشخصياتها وجزئياتها، وهو الهدف الديني والأخلاقي الذي يُخرج الناس من الظلمات إلى هدى النور، للسير بركب الإنسانية نحو بلوغ طريق الهداية، وترك المعصية لبناء مجتمع متكامل يرحم فيه القويُّ الضعيفَ، ويحمد القويُّ والضَّعيفُ نِعَمَ الله الذي هو من أوجدها لكليهما.

لقد اقتضت طبيعة الموضوع أنْ يقسم البحث على ثلاثةٍ فصول يسبقها تمهيد، وينتهي بالخاتمة، ومصادر البحث، ثمّ الملخص بالإنكليزية.

جاء التمهيد بعنوان ، وهو على ثلاثة أقسام، تطرق الحديث في القسم الأول عن الشخصية القصصية، وعن نوعيها الرئيسين وهما (الشخصية الرئيسة، والثانوية)، وتقسيماتهما الفرعية التي تنضوي ضمنهما، ولم أتطرق فيه إلى الكلام عن الشخصية في اللغة أو الاصطلاح؛ لكثرة ما شرعت به الدراسات والبحوث السابقة عن تلك التفصيلات، وجاء القسم الثاني من التمهيد عن طرائق رسم الشخصيات (التشخيص)، وأخيراً كان القسم الثالث الذي عرض شيئاً مختصراً عن الشخصية عند أصحاب المنهج البنيوي التكويني.

الفصل الأول كان بعنوان الشخصيات الثانوية الجماعية، وفيه مبحثان، الأول اشتمل على الشخصيات غير المرئية، وهما قسمان.(شخصية الملائكة)، والثاني(شخصية الجِنِّ)، أما المبحث الثاني فتضمن الشخصيات المرئية، وفيه خمسة أقسام: الأول (شخصية الملأ)، والثاني (شخصية السَّحرة)، والثالث (شخصية الإخوة)، والرابع (شخصية السيارة الذين حملوا يوسف(ع))، والخامس (شخصية النسوة). وقد سارت هذه الشخصيات بهيئة تحكمها البنية الجماعية، والسلوك الجمعي في التصرف الذي يمثل تحرك شخصية واحدة مثلت الجمع.

الفصل الثاني فقد اختصَّ بدراسة (الشخصيات الثانوية الحاكمة)، وكان مقسماً على أربعة مباحث: بدأ الكلام في المبحث الأول عن (شخصية الملك)، وفي الثاني عن (شخصية العزيز)، ثم الرابع عن (شخصية فرعون)، وكان الأخير عن (شخصية المرأة الحاكمة). وقد جاءت شخصياته متنوعةً، ومختلفةً في توجهاتها وتصرفاتها، كلاً بحسب الحركة التي تراها الشخصية مناسبةً معها، وكذلك بحسب ما انبنت عليه شخصية الحاكم من ثقافة المُلك والسُّلطة.

واختتمت فصول الدراسة بالفصل الثالث الذي جاء بعنوان (الشخصيات الثانوية النسائية)، التي هي لونٌ أصيلٌ من تشكيلات القصص وعناصره الضرورية في بناء القصة وتمامها. وكان الفصل متضمناً سبعة مباحثٍ، ضمَّ الأول (شخصية الزوجة)، والثاني (شخصية امرأتي نوح ولوط)، والثالث (شخصية امرأة فرعون)، والرابع (شخصية امرأة العزيز)، والخامس (شخصية الأُمِّ)، أما السادس فـ (شخصية الاخت)، وكانت(شخصية مريم (ع)) الشخصية التي انتهى بها الفصل.

وبعد هذه الفصول الثلاثة جاءت خاتمة الدراسة، وفيها تجلت أهم ما توصل إليه البحث من نتائج، من خلال ما اعتمده الباحث من دراسات متنوعة، فضلاً عن مجموعة من البحوث العلمية الحديثة التي رفدت البحث بما يحتاجه من رؤى نافعة.

وفي الختام أتقدم بجزيل شكري وعظيم امتناني إلى صاحب الفضل الكبير أستاذي الفاضل: الدكتور كريم مهدي المسعودي، المشرف على هذه الرّسالة لما منحني من وقته الثّمين، وتوجيهاته السّديدة، فجزاه الله تعالى عنّي خير جزاء المحسنين، وأمدّ في عمره وبارك في جهده. كما أتقدّم بخالص الشكر والتقدير للسادة أعضاء لجنة المناقشة الأفاضل الذين تجشّموا عناء قراءة الرسالة، والحضور لمناقشتها، وأقدر عالياً فضّلهم عليّ بما سيقدمونه من الملاحظ والتّصويبات النافعة لتقويم هذا البحث، فجزاهم الله عنّي كلّ خير إنّه سميع مجيب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين، وأتمُّ التسليم على نبيّه الكريم وآله الطيبين الطاهرين.

الباحث

التمهيد

الشخصية القصصية مفهومها وانماطها

- الشخصية القصصية
- طرائق رسم الشخصيات (التشخيص)
- الشخصية عند أصحاب المنهج البنيوي التكويني

• الشخصية القصصية

وقف السابقون على معنى الشخصية لغةً واصطلاحاً بتعدد العلوم الإنسانية التي عالجت مفهوم الشخصية، وليس يعنينا الوقوف على هذه المعاني والمفاهيم كثيرا، إذ لن نقول جديدا فيها*، فـ " ماذا تكون الشخصية إن لم تكن المحددة للحدث، والحدث، وماذا الذي يكون الحدث إن لم يكن المصور للشخصية".(١) وعلى الرغم من أنَ هذا العنصر هو أهم عناصر القصة، وبه يُقاس نجاح أي عمل أُريد له أن يظهر بأكمل صورة لدى متلقيه. فالشخصية تمثل أبرز مقومات البناء القصصي والفني الذي يسعى وراءه كل كاتب يهتم بعمله.(٢) ومن المعروف ألا وجود لأية قصة من دون شخصية.*

ويهمنا أن نتوقف عند أنواع الشخصية القصصية، لنجلّيَ الشخصية الثانوية: مفهوماً، وأثراً في الواقع القصصي:

---

* ينظر: الشخصية في رواية اللاز للطاهر وطار "دراسة فنية"، رسالة ماجستير، إعداد الطالب:لزهر ساكر، إشراف الاستاذ:د.باديس فوغالي، الجمهورية الجزائرية-جامعة العربي بن مهيدي-أم البواقي/كلية الآداب واللغات والعلوم الانسانية والاجتماعية - قسم اللغة والأدب العربي، ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م، ٣٦، الشخصية البطلة في أدب البطولة الجزائري بين الحضور والغياب"فن المغازي وقصص الأولياء" أنموذجاً، رسالة ماجستير، إعداد الطالبة:صليحة عوينات، إشراف الأستاذ:عبدالكريم شبرو، الجمهورية الجزائرية - جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي/كلية الآداب واللغات-قسم اللغة والأدب العربي، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م، ٦- ٨، بنية الشخصية في رواية"أحلام مدينة"لـ:فريدة إبراهيم، رسالة ماجستير، إعداد الطالبة: صونيا سويسي، إشراف الأستاذ الدكتور: امحمد بن لخضر فورار، الجمهورية الجزائرية-جامعة محمد خيضربسكرة/كلية الآداب واللغات-قسم الآداب واللغة العربية، ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م، ١٣-١٥.

(١) نظرية الادب، رنيه وليك، آوستن وآرن، تعريب: الدكتور عادل سلامة، د.ط، دار المريخ – المملكة العربية السعودية، ١٩٩١م، ٢٩٨.

(٢) ينظر: في النص الروائي العربي، د. إبراهيم جنداري، ط١، دار تموز للطباعة والنشر– دمشق، ٢٠١٢م، ص١٧٢.

* ليس خافياً ان هذا لا ينطبق على ما سمي بالرواية الجديدة، التي ذهبت وانحدر دورها وشكك فيها فكأنها فقدت قيمتها ولم تكن من قبل، فتم استبدالها بغيرها عوضا عنها. ينظر: قضايا الرواية الحديثة، جان ريكاردو، تر: صيَّاح الجهيم، د. ط، وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق – ١٩٧٧م، ٩٥، النص الروائي تقنيات ومناهج، برنار فاليط، ترجمة: رشيد بنحدّو، د.ط، منشورات ناثان- باريس، طبع بالهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية، ١٩٩٢م، ٩٣–٩٤، تقنيات السرد في النظرية والتطبيق، آمنة يوسف، ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠١٥م، ٣٤–٣٥.

١- الشخصية الرئيسة أو المحورية:

هي الشخصية "التي تتمحور عليها الأحداث والسرد"[١]، والشخصية الرئيسة لها تحرك وتنقّل يميزها من غيرها من الشخصيات الأخرى، فهي " التي تقود الفعل وتدفعه إلى الأمام في الدراما والرواية أو أي أعمال أدبية أخرى . . . وليس من الضروري أن تكون الشخصية الرئيسية بطل العمل دائما ولكنها دائماً هي الشخصية المحورية"[٢]، ولها شروط منها أنها "تقود العمل الأدبي، وتحركه بشكل لولبي تظهر فيه"[٣]، ولا يشترط فيها أن تؤدي دوراً محورياً بوصفها شخصية بطلة، بل "قد تكون تابعا للبطل أو خصما له"[٤]. ولقد احتلت مكانتها المتميزة في الأدب القصصي عامةً؛ لأنها عماد هذا الأدب.

إن الشخصية الرئيسة لها فاعلية وقوة في مسار القصص تزداد حركة وتأثيراً كلما اعطاها صانعها مجالا من الحرية في التحرك واداء دورها، لأن عملها ووجودها يتطور بوجود المتسع الكافي لها لتنمو. ولها عمل مهم تقوم به، اذ هي بها تبدأ الأحداث وتتطور بطريقة صعبة ومعقدة، لذلك يصعب اختيارها وبنائها بسهولة.[٥]

لقد احتلت الشخصية الرئيسة مكاناً واسعاً من الاعمال القصصية والروائية، وتثمينا لدورها واهميته تسلمت مهاما مهمة جدا في بناء العمل الروائي. وما يلحظ عليها انها تعمل على تطور الحدث ، فتعطي القارئ فهما كبيرا لمعرفة الخطاب، وعن طريقها تقوي التوقع لديه ، فضلا عن مشاركته الأحداث بتوقعاته التي استنتجها من خلالها.[٦]

(١) معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، سعيد علوش ، ط ١، دار الكتاب اللبناني - بيروت، ١٩٨٥م، ١٢٦.

(٢) معجم المصطلحات الأدبية، إبراهيم فتحي، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين – تونس ، د.ط ، ١٩٨٦م، ٢١١ – ٢١٢.

(٣) المعجم المفصل في الأدب ، محمد التونجي ، ط٢ ، دار الكتب العلمية – بيروت ،١٩٩٩م، ٥٤٧/٢.

(٤) م. ن، ٥٤٧.

(٥) ينظر: تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة، شريبط أحمد شريبط، دار القصبة للنشر والتوزيع – الجزائر، د. ط، ٢٠٠٩م، ٤٥–٤٦.

(٦) ينظر: الشخصية وتمثلاتها في رواية (بقايا صور) للروائي حنامينه، أوراس سلمان كعيد، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية – جامعة بابل، ع:٣ ، ٢٠١٧ ، ٣٩٠.

٢- الشخصية الثانوية:

هي الشخصية التي تكتفي بأداء أدوار معينة، ثم تختفي وتظهر، ويكون ظهورها في أحداث الرواية لماما وعرضا، وتكون مقترنة بذكر أسمائها، وهي تظهر في أية قصة لتخدم غرضا معينا وضروريا لبنية تلك القصة(١). إن كل نص أدبي لابد له من فكرة يستند عليها، وعلى أساسها يسير مبيناً ومن خلال فكرته الأهداف والغايات التي ولد لأجلها. وبما أن تعدد النصوص القصصية بأحداثها يصحبه تعدد أيضا في شخصياتها، فلابد من أن تكون هناك ميزات لكل شخصية تختلف عن غيرها في الأهداف والرؤى، فضلاً عن تناولها لأحداث متنوعة قابلة للتغيير. فالشخصيات (البطلة) يكون لها الدور الأساس في أي عمل قصصي لما تتميز به من أدوار محورية بارزة تجعل منها مركز الأحداث والتغييرات. أما الشخصيات التي تأتي بعدها مباشرةً فهي شخصيات لا تقل عنها أهمية ودوراً ، إذ تعد الركيزة الأساسية المساعدة التي تستند عليها الشخصيات المحورية وبها تُفتح الآفاق ، وعلى يدها تُضاءُ وتظهر المكنونات ، كما هو حال الشخصيات الثانوية.

تختلف الشخصيات الثانوية بحسب وجودها من رواية إلى أخرى ، ولا يكون وجودها وورودها بحالة معينة – في عمل ما – شرطاً على ثبات ادوارها دائماً؛ لأنها " قد تكون نامية أو مسطحة . . . وسواء أكانت الشخصية الروائية رئيسة أو ثانوية فهي وسيلة بيد الكاتب لتجسيد رؤيته، والتعبير عن احساسه بواقعه"(٢). لأن الروائي هو من يمنح الشخصيات أسماءها، وهو من يُعيِّن جنسها، فضلاً عن أنه من يبعث فيها الحركات والإشارات المناسبة لكل شخصية، وبما أنه الذي يخلقها ويكيِّفها بطبيعة معينة من الأحوال والأدوار المتغيرة تبعاً لأوجه متعددة لدى الروائي.(٢) فكل شخصية تأخذ حجمها بحسب ما أراده خالقها وصنعه لها؛ فتكون الشخصية الثانوية واحدةً

(١) ينظر: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، حميد لحمداني، ط١، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر – بيروت، ١٩٩١، ٤٧- ٤٨.

(٢) ينظر: رسم الشخصية في روايات حنا مينة، فريال كامل سماحة، ط١، دار الفارس – عمان،١٩٩٩م، ٢٦.

(٢) ينظر: أركان القصة، أ. م. فورستر، ترجمة: كمال عياد جاد، مراجعة: حسن محمود، د.ط، دار الكرنك – القاهرة، ١٩٦٠م، ٥٦-٥٧.

من تلك الشخصيات التي أُعطيت عملاً ثانوياً متمماً لعمل غيرها من خلال قدر وجودها وحركتها في القصة، وكيفية أداء وظيفتها.

ولعل الشخصيات الثانوية لها القدرة على أداء أدوار متعددة إن اقتضت الحاجة إلى ذلك قد لا تتمكن الشخصيات الرئيسة من الإتيان بها، ولو كانت تمتلك ادارة الأحداث المركزية والمحورية للعمل، فتكون بذلك شخصيات ثانوية، وأقرب الشخصيات عملا من الشخصية الرئيسة بحسب ما تقوم به من مهام ومساندة.

من هنا تكون أهمية العمل الروائي دقيقةً جداً من خلال الاهتمام بشخصيات الرواية وصياغتها بمهارة تتناسب مع الأفكار الإنسانية، وإن وصفت الشخصيات بأنها "كتل من الكلمات التي تصف الإنسان شخصياً وصفاً عاماً . . . وهذه الكتل من الكلمات هي الشخصيات، فهي لا تأتي هكذا ببرود إلى عقله، بل انها قد تخلق في اضطراب وهذيان"(١)، فالاختيار والعناية بها لابد أن يكونان بمنتهى الدقة والحذر، وما أشار إليه (فورستر) في كلامه عنها أراد به بيان الأهمية والدور المناط بالشخصيات ليصل بوصفه لها وكأنها مخلوقات موجودة على أرض الواقع تتحرك كما نتحرك وتعيش الحياة، لكنها الحياة الفنية والابداعية التي يبتكرها الروائي لها؛ لأنها "مخلوقات داخل خلق مثلنا وغالباً ما تكون غير منسجمة معه، وهي لو منحت مطلق الحرية لرفست الكتاب ومزقته"(٢).

ويقول (تودوروف) أنَّ الشخصية تمتلك صفات تجعلها قادرة على التغير ولا يمكن حصر عملها أو وظيفتها "ان الشخصية لا تسمح بحصرها في الرواية التي هي في ذاتها واحدة من فضائها وان العديد من الأساليب مرتبطة بها بالضرورة حتى في الروايات العصرية"(٣)، فتكون حركتها بحسب ما يراه الكاتب أو ما تقتضيه ضرورة الأحداث التي تكون معها الشخصيات بيد الكاتب وهو يحركها على وفق توازنها ومكانها المناسب لها أثناء عملها.

---

(١) أركان القصة ، ٥٦.

(٢) م.ن، ٨٢.

(٣) مفاهيم سردية، تزفيطان تودوروف، ترجمة: عبد الرحمن مزيان، ط١، منشورات وزارة الثقافة – دار الاختلاف - سوريا، ٢٠٠٥م، ٧٢.

وقد ركز (فيليب هامون) على الشخصيات كثيراً، فقد وسع في نظرته للشخصية وأعطاها بعدا جديدا، ورأى أن ما تتركه من الأثر الدلالي يوسع من الفهم لدى المتلقي، ويتيح له مجالاً أوسع في ملاحظة هذا الأثر، فهو يرى أن الشخصية "لا تمتلئ باعتبارها مورفيماً فارغاً في البداية، لا معنى للشخصية ولا مرجعية لها الا من خلال السياق"(١)، حيث يتوصل (فيليب هامون) إلى فهمها بالتدريج حتى يصل إلى المفهوم الذي تقف وراءه كل شخصية وكل حدث قامت به، لينتهي إلى مجموعة مفاهيم دلالية ممزوجة بإشارات سيميائية بإمكان أي شخصية يراها الكاتب مناسبة القيام بها، لأن الشخصية عنده ليست قالباً ثابتاً غير قابل للتغيير والتطوير.(٢)

إن كثرة الآثار والدلالات التي تتركها الشخصية الثانوية تعطي للقارئ أشياء كثيرة عن أهميتها في العمل الروائي، وإنها ذات مفاهيم مهمة في الخطاب القصصي كما يقول الدكتور محمد الباردي: "يعوّل السرد كثيراً على الشخصيات الثانوية فهي ذات أهمية قصوى في تشكيل الخطاب الواقعي وهي شخصيات نمطيّة ذات ثقافة إعلامية إذ تكون الشخصية دالة على وضعيتها في المجتمع وعلى دورها فيه"(٣).

وعليه تتشكل من خلالها – أي الشخصيات الثانوية – بنيات أساسية يكون مضمونها اجتماعياً دالاً على مدى الترابط بين الواقع والعمل الفني الابداعي الذي يهتم به الكاتب لتقريب موقف تلك الشخصيات من الواقع المعيش لتكون أكثر ادهاشاً ومتعةً وكأنك تعيش في داخل واقع من الحياة الطبيعية، ولكن بطريقة فنية ابداعية يبتكرها الكاتب ليزيد من صلابة الشخصية ونجاحها في دورها، وكذلك زيادة الإعجاب والشعور بالمتعة معها أثناء سيرها بوظائفها.

لقد ترتب على هذا الاهتمام بالشخصية ونوعها، وكيفية تحركها خلال الأحداث، ومدى ماتقدمه من دور لبلوغها القصد المعني من حركتها، أن يُنظر أيضاً إلى عملية بنائها داخل القصة كيف تكون؟ لذلك يُعَدُّ "بناء الشخصية الروائية واحدا من أصعب مهمات الروائي، وأكثرها دقة مادام مهتماً بالإنسان ومشكلاته، ورصد علاقته بالعالم . . . فالأفكار انما تتمثل في الناس

(١) سميولوجية الشخصيات الروائية، فيليب هامون، تر: سعيد بكراد، تقريظ: عبدالفتاح كليطو، ط ١، دار الحوار للنشر والتوزيع، ٢٠١٣، ٤٢.

(٢) ينظر: معجم السرديات، محمد القاضي وآخرون، ط١، مجموعة ناشرين – دار محمد علي - تونس، ٢٠١٠م ٢٧١.

(٣) انشائية الخطاب في الرواية العربية الحديثة، محمد الباردي، منشورات اتحاد الكتاب العرب – دمشق ، ٢٠٠٠م، ٣٠ –٣١.

وتحيا بهم، والحياة لا تتجسد في الأدب بعيداً عن حركة الشخصيات وتفاعلها اليومي"[١]، ولكن هذا لا يعني ان تكون شخصيات العمل الروائي من الواقع تماماً لتنجح في عملها. فنجاح الروائي وعمله يتميز في قدرته على الخلق والابداع الفني في شخصيات روايته وهو أساسها وعماد بنائها، فضلاً عن الأسلوب والحُبكة وغيرهما، لكنه متى ما تمكن من عملية الإبداع في شخصياته وابراز دورها بعناية مناسبة مع تكوين كل شخصية في مكانها، فهو بذلك يصبح مقتدراً على ما يكتب ويصنع، وقد أعطى شخصياته وزناً من الاقناع، ونصيباً من الدهشة ما يمنح عمله لونا من الاهتمام من قبل القارئ لا يذهب مع انتهاء الرواية، بل يظل أثراً يحمله المتلقي لا يمكن معه نسيانه، بسبب ما عملته الشخصيات من دور داخل الرواية، فضلا عن التماسك الذي أوجدته في البناء الروائي من خلال سيطرتها وتفوقها على بقية العناصر الأخرى.[٢]

يكون اختلاف الشخصيات الروائية في تقسيمها، من حيث الارتباط بالحدث على رئيسة وثانوية، راجعاً إلى اختيار المبدع في ايجادها هكذا؛ لأنه مثلاً يرى أن تكون الرئيسة هكذا بحسب مواصفاتها، وهي أفضل من غيرها في نظره لتلك الأدوار، والثانوية تختص بأدوار أُخرى مكملة لسابقتها، فضلاً عن طريقة تحرك وتطور كلٍّ واحدة منهما داخل العمل الروائي، وقد مرَّ من قبل انَّ على الروائيين ضوابطَ كثيرةً يجب مراعاتها عند اختيارهم لشخصيات اعمالهم، ولابد من وجود طرق لحل تلك الصعوبات التي تعترضهم. فالشخصية ثانويةً كانت أو غيرها، لها طبيعة وقوانين مهما اقتربت من الحياة المعتادة أو شابهتها، فهي ليست مثل الشخصية اليومية وإن اتفقت معها ببعض الصفات، لأنها تبقى غير كاملةٍ مثل الواقع، يغلب عليها الطابع الفني الذي يضعه عليها صاحبها وتحدده طبيعة أدوارها المحدودة والمرسومة تبعاً لقدراتها.[٣] وهو ما يُلحظ مثلاً على الشخصية الثانوية التي وإن وصِفت بأنها تُحدد بوظيفةٍ أو مواصفةٍ واحدة، لكنها تمتلك جزئيات دلالية عديدة تؤهلها لتتجاوز محدوديتها الوظيفية المقَيِّدة لها، لاسيماعندما تتحرك بدقةٍ فتغير بعض الأحداث من حولها.[٤] لكنها تظهر شخصية قوية تبعاً لما يقع عليها من دور

(١) الواقع الفلسطيني في الرواية دراسة نقدية في أدب غسان كنفاني وجبرا إبراهيم جبرا، د. كريم مهدي المسعودي، ط٢، دار تموز- دمشق، ٢٠١٤م، ١٤٩.

(٢) ينظر: الواقع الفلسطيني في الرواية، ١٥٠.

(٣) ينظر: أركان القصة، ٧٦.

(٤) ينظر: سميولوجية الشخصيات الروائية، ٤٥-٤٦.

تقوم به هي لاغيرها، كأن تكون شخصيةً كثيفةً في تركيبها الوظيفي مثلاً، لذلك تكون مؤهلةً لتأتي بالمفاجئات والأحداث المثيرة وبطريقة مقنعة تحرك تلك الأحداث وتدفع بها إلى الأمام، فيكون دورها فعالاً كما لو أنها شخصية أساسية تسيطر على دفة إدارة الأحداث ومجرياتها المعقدة.[١] إذن امتلاك الشخصية لمؤهلاتها، وصلاحيتها لأداء أدوارها المناطة بها هي ما يسبغ عليها لونها الحركي مع الأحداث وتفاعلها لتبدو شخصيةً قادرة على تسيير أمورها بحسب نوعها واستطاعتها، سواء أكانت شخصية أساسية داخل العمل القصصي أم ثانوية.

إن من أهم ما يقع على الشخصية من تقسيمات، هو تقسيمها إلى أنواع بحسب ما يقع عليها من أدوار تفرضها أحداث القصة التي تبعث على حركة الشخصية ونموها المتواصل الذي ينمي تلك الأحداث ويبرِّزها ويتساوق معها، أو تجعلها بحالة واحدة ثابتة غير قابلة للتجديد والحركة، بسيطة سطحية لا جدوى في البحث عن دهشتها أو إقناعنا. وقد أشار النقاد إلى تلك الأنواع، وقسموها على حسب قدرتها الحركية، واختلافها في أداء وظائفها. منها:

أ- الشخصية المسطحة

هي من الشخصيات التي تقتصر على سمات محدودة. وتقوم بأدوار حاسمة في بعض الأحيان، فهي شخصية جاهزة ثابتة لا تظهر إلا قليلا في الحبكة بلا تغيير في حالها، وتوصف بأنها خافتةٌ في أدوارها[٢]، إذ هي شخصيات حملت أسماء عديدة كانت تسمى بها، مثل أمزجة، وأنماط، وكاريكاتير، وغيرها، وهي شخصيات في أدق أشكالها تدور حول فكرة معينة، أو صفة محددة، وتمتاز بانها يُعبر عنها بجملة واحدة تفي بالغرض المطلوب، كـ – لن أهجر مستر مكوبر أبداً – ومن دون اطالة في الشرح والسرد، ولهذه الشخصيات المسطحة ميزات أخرى أبرزها، أنها تُعرف بسهولة ويسر من خلال عاطفة القارئ، ولها خدمات جليلة داخل العمل الروائي وزيادة معرفته، وهي أيضاً لا تحتاج إلى تقديم مرة أخرى؛ لأنها لا تخرج من يد الكاتب

(١) ينظر: مفاهيم سردية، ٧٥-٧٦، سيميائية الشخصيات في رواية عشرة أيام في الفردوس لـ الدكتور أحمد شنه، رسالة ماجستير في اللغة والأدب العربي إعداد الطالبتين: ليلى جباري، نادية قواسمية، إشراف: الدكتور رشيد منصر، جامعة العربي-تبسة- كلية الآداب واللغات - الجزائر، ٢٠١٦-٢٠١٧، ٣٠-٣١، ١٢٢.

(٢) بنية النص الروائي، إبراهيم خليل، ط١، المركز الثقافي العربي – لبنان - بيروت، ١٩٩٢، ٢٥.

بسرعة، وان تطورها يكون من تلقاء نفسها ومن داخلها بخلق جوها المناسب لها بنفسها دون الاعتماد كلياً على غيرها.[١]

يبدو أن فهم الشخصية (المسطحة) وما تقوم به من أثر محدد في العمل الروائي، جعلها تحمل أسماء عدة لمعنى واحد تُعرف به، فلم يكتفِ الدارسون للشخصية بما مرَ من اسماء. بل أضافوا لها اسماء أخرى كـ (الشخصية الثابتة، والشخصية الجامدة، والنمطية)، والسبب يعود في ذلك إلى عدم تطورها على امتداد الرواية، فهي تمضي وحالها لا تتغير، اذ هي شخصيات يُنظر إليها على أنها "تلك الشخصيات النمطية، التي تمثل صفة انسانيةً مجسدة"[٢]، أما عواطفها ومواقفها، وكذلك حياتها تبقى بحالة ثابتة بسيطة، فهي لا تؤثر في غيرها ولا تتأثر، ولا يُغيرها تغير الأحداث، فهي تبقى ذات سلوك وفكر واحد وتصرفاتها معلومة لقارئها، وإذا حدث تغير ما فهو يحصل خارجها برغم تغير علاقات بقية الشخوص في الرواية، وكأنها شخصية (جاهزة) وضعت داخل العمل الروائي وتوقفت على حالها.[٣]

يبقى النمط الذي تسير عليه هذه الشخصيات المسطحة واحداً، وغير قابل للتغير، لذلك تظل هكذا أنواع من الشخصيات "أيسر تصويراً وأضعف فناً، لأن تفاعلها مع الأحداث قائم على أساس بسيط، لا يكشف كثيراً عن الأعماق النفسية لها".[٤]

إن النمطية التي تتمتع بها الشخصية الجاهزة، جعلت منها شخصية ذات دور معين، كالبخيل، أو رجل الشرطة، فهي شخصية لا تكون أساسية في الرواية، ولا إثارة فيها، وتطورها

(١) ينظر: أركان القصة، ٨٣ – ٨٥.

(٢) معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، ٢٢٣.

(٣) ينظر: في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، عبدالملك مرتاض، د. ط، عالم المعرفة، ١٩٩٨م، ٨٩، الأب في الرواية العربية المعاصرة، عدنان علي الشريم، تق: خليل الشيخ، ط١، عالم الكتب الحديث – الاردن، ٢٠٠٧م، ١٦٩، مدخل إلى تحليل النص الأدبي، عبدالقادر أبو شريفة، حسين لافي قزق، ط٤، دار الفكر– الأردن، ٢٠٠٨م، ١٣٤.

(٤) مدخل إلى تحليل النص الأدبي، ١٣٥.

غير مكتمل داخل العمل الروائي[١]، إذ "يشترط في الشخصية النمطية الا تكون رئيسية، أو تامة، أو ذات دور فعال. ويُحسن أن تتشبه بشريحة اجتماعية، وتمثل شخصية نابعة من المجتمع".[٢]

وعلى الرغم من ضيق عمل هذه الشخصية داخل الرواية، إلا أنها تعمل لأجل عمل غيرها من الشخصيات الأُخر غير الرئيسة؛ حيث "لا يمكن أن ترد في العمل الروائي، من دون غَناء؛ بل كثيراً ما تتوهج الشخصية المدورة، أو ما يعادلها في الاصطلاح (النامية، الإيجابية)، بفضل هذا الضرب من الشخصيات"[٣]، فهي في عملها تشبه إلى حد ما عمل الشخصيات الثانوية، وكيف تكون وجهاً واضاءةً لغيرها من الشخصيات الرئيسة أو المحورية (المركزية) عند تقديمها وإبانة صورتها.

إن من بين أبرز ما يميز الشخصيات (المُسطحة) عن الشخصيات (المستديرة)، هو "أنها لا تعتبر في نفسها انتاجاً عظيماً . . . كما أنها تكون في أحسن حالاتها إذا كانت شخصيات كوميدية. فالشخصية المسطحة إذا كانت جادة أو تراجيدية فإنها تصبح مملةً "[٤].

للشخصيات (المسطحة) فائدة جلية تبرز في نظر الكاتب، القارئ "فمما يسهل عمل الكاتب دون شك، أنه يستطيع بلمسة واحدة أن يقيم بناء هذه الشخصية التي تخدم فكرته طوال القصة . . . أما القارئ فإنه يجد في مثل هذه الشخصيات بعض أصدقائه ومعارفه الذين يقابلهم كل يوم، كما أنه من السهل عليه أن يتذكرها ويفهم طبيعة عملها في القصة، فتكون بهذا كالمحطات التي يقف عندها بين الفينة والفينة"[٥].

(١) ينظر: المعجم المفصل في الأدب، ٥٤٧.

(٢) م.ن، ٥٤٧.

(٣) في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، ٨٩.

(٤) أركان القصة، ٨٩.

(٥) فن القصة، محمد يوسف نجم، ط٥، دار الثقافة – بيروت، ١٩٦٦، ١٠٣.

ب- الشخصية المدورة (النامية)*

هي شخصيات لا يمكن أن تُلخص أو تُختصر بجملة واحدة؛ لأنها تأتي مرتبطة بالأحداث الكبيرة التي كونتها، أي ليست سهلة كما هو حال الشخصية المسطحة، حيث يكون لها من الاهتمام ما يفوق سابقتها؛ لأن لها ما للكائن البشري من بعض الأوجه.(١) إذ لا تخفى قدرتها المتكاملة على مفاجأة متلقيها، وإقناعهم بطريقة مثلى(٢).

تعد الشخصيات (المدورة) انتاجاً عظيماً يقوم به الروائي في عمله، ويكون نجاحها أعظم إذا كانت جادةً أو تراجيديةً، على عكس المسطحة؛ لأنها ومن خلال حركتها توقظ في القارئ مشاعر عديدة تجعله أشد ارتباطاً بالعمل وأكثر اهتماماً به.(٣)

تتضح الشخصيات المدورة (النامية) وتتكشف للقارئ تدريجياً، إذ تتطور بتطور الأحداث المستمر من حولها، فهي تتفاعل ظاهراً أو خفياً حتى تنتهي بالغلبة أو الاخفاق، ومن خلال تحركها مع الأحداث وتفاعلها تمتلك عنصري (المفاجأة والاقناع) وهما عنصران يميزانها كثيراً من غيرها من الشخصيات الأخرى ويحددان قدرتها الدائمة عليهما.(٤)

اذن يعد مقياساً (المفاجأة، والإقناع) عنصرين أساسيين في تحديد الشخصية النامية، والمحك الذي به تُعرف وتُميز، لذلك قيل عنها إنها: "إذا لم تفاجئنا بعمل جديد أو صفة لا نعرفها فيها، فمعنى ذلك أنها مسطحة. أما إذا فاجأتنا ولم تقنعنا بصدق الانبعاث في هذا العمل

* أطلق أغلب النقاد على الشخصية المدورة أيضاً اسماء عديدة، كانت أكثرها تركز على حركية هذه الشخصية وتفاعلها مع سير الأحداث، بناءً على تطورها خلال حركتها داخل العمل الروائي، وقد أسماها الناقد الانكليزي فورستر بـ (المستديرة، والمعقدة، والمدورة)، وفضّل ميشال زيرافا تسميتها بـ (المدورة)، وكذلك أُطلق عليها اسم (المتطورة)، لكنه ولقرب ما يُستوحى من بعض الإشارات الواردة في التراث العربي، لاسيما عند الجاحظ،(ينظر:في نظرية الرواية، ٨٧-٨٨) كان اختيار مصطلح(المدورة) خلال البحث، وهي أيضاً معادل مفهوماتي للشخصية (النامية). ينظر: أركان القصة، ٨٣، في نظرية الرواية، ٨٧-٨٩، مدخل إلى تحليل النص الأدبي، ١٣٥، تحليل النص السردي تقنيات ومفاهيم، محمد بوعزة، ط٤، دار الأمان-الدار العربية للعلوم ناشرون، ٢٠١٠، ٥٧.

(١) ينظر: أركان القصة، ٨٥ــ٨٦.

(٢) فن القصة، ٥٠ ــ ٥٢.

(٣) ينظر: أركان القصة، ٨٩ ــ ٩٠.

(٤) ينظر: فن القصة، ١٠٤.

المفاجئ، فمعنى ذلك أنها شخصيات مسطحة تسعى لأن تكون نامية"[١]، ولكن هذا المقياس بين الشخصيتين يكاد يكون ضعيفاً عند بعض النقاد، لأنه تحديد للشخصية بشيء نسبي لا يتساوى عند جميع الناس بالنسبة نفسها، حيث أن الاقناع عند شخص ما ليس شرطاً أن يكون ذاته عند غيره، وهذا الشرط لم يُصرح به ولم يُركز عليه (فورستر) كثيراً وترك الحديث عنه بلا تحديد.[٢]

إن مسالة القناعة وعدمها سلوك لا يتحدد بقاعدة صارمة، وهذه القاعدة نظر إليها (تودوروف) على أنها لم تكن ذا بال حتى يُهتم بها؛ لأنه "تعريف يمكن أن يُرى على القارئ العادي؛ وأما القارئ المحترف، فانه لا يسمح لمثل هذه الشخصية أن تفاجأه بسهولة. ويزعم ميشال زيرافا بأن فورستر يميز تمييزاً لطيفاً . . . إذ الشخصيات المدورة. يشكل، كل منها، عالماً كلياً ومعقداً . . . بينما الشخصيات المسطحة تشبه مساحة محدودة بخط فاصل"[٣] .

لقد أخذت الشخصية المدورة عمقها وتطورها – الإيجابي أو السلبي – عن طريق النمو الذي تميزت به من غيرها من الشخصيات الأخرى، إذ "لا تتوقف هذه العملية إلا في نهاية القصة".[٤] فترابطها مع الأحداث وتفاعلها يبدو أنه شديد، إذ تؤدي الدور جيداً موافقاً لطبيعتها، وهي"تخدم القصة على خير وجه".[٥] ما أعطاها زخماً واسعاً في مجريات الأحداث وتتابعها لتبرز الشخصية الأكثر حضوراً في سير القصة.

بيد أن الشخصيات المدورة "تجسد كل أنواع التنوع والتعقيد في الطبيعة الإنسانية . . . إذ تتميز الشخصيات المدورة بكثافة سيكولوجية، وتمثل في أغلب الاحيان حالة درامية معقدة ومركبة"[٦]، تجعل من طبيعتها الإنسانية ذات أبعاد متغيرة قابلة للتنوع والتطور.

(١) ينظر: أركان القصة، ٩٥، فن القصة، ١٠٤.

(٢) ينظر: في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، ٨٨.

(٣) م. ن، ٨٨.

(٤) مدخل إلى تحليل النص الأدبي، ١٣٥.

(٥) م. ن ، ١٣٥.

(٦) تحليل النص السردي تقنيات ومفاهيم، ٥٧.

تظهر الخصائص الإنسانية على الشخصية من خلال عملها داخل النص. فعن طريق الخصائص الفكرية والنفسية للشخصية نستنتج (الشخصية النموذجية) التي يعتمد خلقها على براعة الروائي ودقته الفنية[١]، فالنموذج هو: "الفرد الذي يشتمل على جملة الخصائص النوعية التي تكون لطبقة أو لفئة أو لشعب من دون مصادرة وإلغاء للطبيعة الفردية أو الذاتية لهذا الفرد ليبدو (الأنموذج) إنساناً لا يتنافى وطبيعة الحياة الإنسانية"[٢]، وبهذه الصفات تتميز الشخصية النموذجية من غيرها لما تحمل من سمات قد لا توجد في سواها أثناء عمل روائي ما، لأن مفهوم النموذج في الأدب قد يمتد لـ "تلك الشخصيات النمطية، التي تمثل صفة إنسانية مجسدة".[٣] وتكون هذه الصفة محددة إلى حد ما بجماعة، أو فرد معين كيفته على أن يكون نموذجاً مميزاً من باقي الشخصيات الأخرى، كأن يكون "ممثلاً لمجموعة من الفضائل أو الرذائل، أو من العواطف المختلفة".[٤]

لا يخفى أن النموذج "هو تجسيم مثالي لسجية من السجايا، أو لنقيصة من النقائص، أو لطبقة أو مجموعة خاصة من الناس، وهو يحوي جميع صفاتها وخصائصها الأساسية"[٥]، وقد وُجِد هذا التجسيم واضحاً جلياً في شخصيات (بلزاك)؛ لأن كل شخصية نُسبت إليه، فهي مرتبطة إما بفضيلة، وإما برذيلة.[٦]

إن الشخصية القصصية في العمل الروائي لابد أن تكون مزيجاً متوازناً من صفات الخير والشر، الحسن والقبح، لأنها إذا تحدت الواقع وجاوزته فهي شخصيات "هزيلة تنحط عن الواقع وتتكمش عنه . . . فليس ثمة شخصيات بيضاء، ولا سوداء محض"[٧]، فإن هي كانت كذلك

(١) ينظر: الواقع الفلسطيني في الرواية، ١٥٤.

(٢) م. ن، ١٥٤ــ ١٥٥.

(٣) معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، ٢٢٣.

(٤) المعجم المفصل في الأدب، ٨٦٨.

(٥) فن القصة، ١٠٥.

(٦) ينظر: م. ن، ١٠٥.

(٧) م. ن، ١٠٧.

فهي شخصيات غريبة وفردية لا تجد لها نظيراً أو مثيلاً لغرابتها ومغايرتها للواقع المعروف الذي يمزج بين الصفات.

من خلال ما مرَ ذكره من صفات عن الشخصية نصل إلى النوع الآخر من الشخصيات، وهو الشخصيات (الفردية) التي تبدو غريبة الأطوار والصفات، لأنها تحمل أشياء لا يحملها غيرها من الشخصيات الأخرى، ألا وهي "الشخصية المتفردة المعزولة التي توحي طريقة رسمها وتقديمها في العمل الروائي بفرادتها وغرابتها، وعزلتها . . . وكأنها نسجت في مخيلة لا تستمد أصول نتاجها من حياتنا الإنسانية"(١)، لقد كانت غرابة هذه الشخصية سبباً في بعدها عن التوازن الواقعي الذي يجمع بين الصفات المعروفة والمؤهلة لنجاح الشخصيات. فمصطلح (الفردية) يُطلق على "الفاعل الفردي في تعارضه، مع الفاعل الجمعي، الذي يُعرف بكفاءاته"(٢)، ولاسيما أن الفاعل – أو الفواعل – في العمل السردي بإمكانه أن يتطابق مع الشخصية من خلال بعض العلاقات التي تقوم بها الفواعل كالشخصية مثلاً(٣)، وهذه العلاقات تُولد عند قيام الشخصيات بأعمالها خلال القص؛ لأن الفواعل هي "الشخصيات حين تضطلع بدور ما، أو تنجز فعلاً أو حدثاً، كيفما كان نوعه"(٤)، فالتعارض يكون على قدر الكفاءة والقدرة التي تقدمها الشخصية الفردية والتي بسبب تصرفاتها الغريبة تنأى بنفسها عن الواقع، فهي "لا تقنع بفرادتها التي تدفعها بعيداً عن العالم الإنساني المعهود، لتقف متحدية قوانين الطبيعة الإنسانية بشكل غريب".(٥)

وتظل هذه الشخصية محافظة على سلوكها ونمطها من دون تغير يُذكر، فتبقى سماتها واحدة بلا تطور وكأنها خُلقت لهكذا صفات وأفعال لتخالف بقية الشخصيات الأخرى في حياتها.

(١) الواقع الفلسطيني في الرواية، ١٥٦.

(٢) معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، ١٦٠.

(٣) ينظر: معجم السرديات، ٣٠٤ - ٣٠٥.

(٤) قال الراوي البنيات الحكائية في السيرة الشعبية، سعيد يقطين، ط١، المركز الثقافي العربي - الدار البيضاء، ١٩٩٧، ٩٢.

(٥) الواقع الفلسطيني في الرواية، ١٥٧.

• طرائق رسم الشخصيات (التشخيص)

تُعد طريقة رسم الشخصية من أهم ما يقوم به الروائي في عمله بعد اختياره لشخصياته، إلا أن (القضية التي لم يُحسم فيها بعد هي الطريقة التي يقدم بها الروائي شخصياته في الرواية)[١]، لذا مما يُلحظ على الكتاب أنهم قد نوعوا طرائقهم في رسم الشخصية، واستعملوا تقنيات مختلفة في ذلك، فمنهم من ركز على أدق التفاصيل فوصفها وصفاً دقيقاً، وآخر اكتفى بالخطوط العامة لوصف شخصياته؛ لأسباب قد تكون لهدف هو أراده لها[٢].

وأمام هذا الاختلاف والتنوع في طرق عرض الشخصيات فانه يوجد مقياسان أساسيان قد اعتمدهما (فيليب هامون) في عملية تسهيل مهمة التقديم هذه، هما:

أ- **المقياس الكمي:** وينظر فيه إلى كمية المعلومات المتواترة صراحة حول كل شخصية.

ب-**المقياس النوعي:** الذي ينظر فيه إلى مصدر تلك المعلومات حول الشخصيات، وهل يتم تقديمها مباشرة عن طريق الشخصية ذاتها؟ أم يتم بطريقة غير مباشرة بوساطة تعليقات شخصيات أخر، أو بوساطة المؤلف، أم أن الأمر متعلق بمعلومات ضمنية يمكن الحصول عليها من خلال أفعال الشخصيات وحركتها حين القص.[٣]

من خلال هذين المقياسين توصل أغلب النقاد إلى اعتماد طريقتين تكادان أن تكونا أفضل طريقتين في عملية تقديم الشخصية في العمل الروائي:

١ – التقديم المباشر.

في هذا التقديم يكون "مصدر المعلومات عن الشخصية هو الشخصية نفسها. بمعنى أن الشخصية تعرِّف نفسها بذاتها باستعمال ضمير المتكلم، فتقدم معرفة مباشرة عن ذاتها بدون وسيط"[٤]، وتسمى هذه الطريقة من التقديم أيضاً بـ (الطريقة الإخبارية)، وفيها "يقوم الروائي

(١) بنية الشكل الروائي (الفضاء- الزمن- الشخصية)، حسن بحراوي، ط١، المركز الثقافي العربي – بيروت، ١٩٩٠م، ٢٢٣.

(٢) ينظر: م. ن، ٢٢٣.

(٣) ينظر: سميولوجية الشخصيات الروائية، ص ٤٨، تحليل النص السردي تقنيات ومفاهيم، ٤٣.

(٤) تحليل النص السردي تقنيات ومفاهيم، ٤٤.

بتسمية خصال الشخصية، ووصفها والإخبار عنها دون أن تتكشف هذه الخصال والصفات عن طريق تفاعل الشخصية مع الأحداث وعلاقاتها مع الآخرين"[١].

٢- التقديم غير المباشر.

ويكون مصدر المعلومات في هذه الطريقة من غير الشخصية، بل من خلال السارد، وهو من يخبرنا عن طبائع الشخصية وأوصافها، وسلوك نشاطها، أو يكون بوساطة شخصية أُخرى من شخصيات الرواية[٢]، وهنا "يكون السارد وسيطاً بين الشخصية والقارئ، أو تكون إحدى شخصيات الرواية وسيطاً بين الشخصية والقارئ"[٣]، وأيضاً تُعرف هذه الطريقة بـ (طريقة الكشف أو العرض)؛ حيث " لا يحدد الروائي صفات جاهزة، أو خصائص ثابتة للشخصية عند ظهورها في الرواية، بل تتوضح صفاتها، ويتجلى وعيها خلال أقوالها وأفعالها واستجاباتها وردود أفعالها"[٤].

تتميز الطريقة غير المباشرة بميزات تجعلها بمكانة أكثر استعمالاً من غيرها. لأن لها القدرة المتجددة في تعبيرها القصصي، وهي إحدى أكثر الطرائق وروداً وجذباً، لاسيما في النصوص العالية إبداعاً بأساليبها الرفيعة، مثل القرآن الكريم وغيره؛ لأنها نصوص بلغت الذروة الجمالية والفنية التي يستمدُّ منها القصص فنونه، ويزداد جمالاً بأمثلته وصياغاته الفريدة.[٥] فرسم الشخصيات بها تكون ذات دلالات أجمل في معرفة طبائها وأوصافها بدقة؛ – كما أشار حسن بحراوي– لأنها تطرح "عدة قضايا ترتبط بمعرفة الذات وكيف يمكن في نفس الوقت معرفة الذات ونقل تلك المعرفة إلى الآخر"[٦]، لذلك يلجأ أغلب الروائيين في رسمهم إلى الطريقة المباشرة (الإخبارية)، وبالأخص عند رسم الشخصيات (الثانوية).[٧]

---

(١) الواقع الفلسطيني في الرواية، ص ١٥٨.

(٢) ينظر: تحليل النص السردي تقنيات ومفاهيم، ٤٤.

(٣) م. ن، ٤٤.

(٤) الواقع الفلسطيني في الرواية، ١٥٩.

(٥) ينظر: بناء الشخصية في روايات ميسلون هادي، رياض حسن هادي، رسالة ماجستير، بإشراف:الدكتور كريم مهدي المسعودي، جامعة القادسية - كلية التربية- قسم اللغة العربية، ٢٠١٧م، ٧٦.

(٦) بنية الشكل الروائي، ٢٢٣.

(٧) ينظر: الواقع الفلسطيني في الرواية، ١٥٩.

وهناك طرائق أو (أساليب رسم للشخصية) أخرى ذُكرت تدخل ضمن طرائق تقديم الشخصيات، بالإمكان اعتمادها، زيادةً في فهم الشخصيات ومعرفة خصائصها ونشاطاتها هي: الأسلوب التصويري، والأسلوب الاستبطاني، والأسلوب التقريري.[1]

إن عملية عرض الشخصيات أو رسمها، تعني اعتماد الروائيين على وسائل وطرائق تُظهِرُ الصورة الفنية والجمالية للعمل الروائي بجليَة ووضوحٍ، وكل ذلك لأجل أن يتمكن القارئ والمتذوق من معرفة الشخصيات الروائية والوصول إلى الهدف من انتاج هكذا شخصيات والتمتع بها وبأدوارها.

(١) ينظر: رسم الشخصية في روايات حنا مينة ، ٣٤- ٤٩.

- **الشخصية عند أصحاب المنهج البنيوي التكويني.**

إن أهمية البنيات الثقافية في المجتمع كبيرة، وتبدو أنها قد عكست تأثيرها على الشخصية الروائية وجعلتها مرتبطة ببعض انظمة المجتمع الفكرية؛ لأنها جزء منه – أي المجتمع – فدلت على الوضعية التي اكتسبتها من المجتمع، ولعل البنيات الثقافية هي من اوجدت العلاقة بين المجتمع والفن، أو بين المجتمع والأدب بصورة عامة. وهذا رأي ذهب إليه اصحاب النظريات المادية والمادية الجدلية التي تتداخل مع الجدلية التاريخية، لأنهم يرون أن العالم ما هو إلا كل مكون من المادة وان المادة هي المتحكمة به بحسب فلسفتهم للعالم وما فيه، ونتيجة للصراع بين المتناقضات تتم الحركة التطورية فيه فيوجد الإبداع والفن مادياً.[١]

ولأننا معنيون بدراسة الشخصية الثانوية في ضوء المنهج البنيوي التكويني، فسنرى الكيفية التي عالج فيها أصحاب هذا المنهج مفهوم الشخصية.

توجهت نظرة أصحاب المنهج الاجتماعي المادي نحو الشخصية بوصفها العنصر الأول والمحرك للأحداث. فكان (لوكاتش) يرى الشخصية ذات مكانة مهمة تمكن مبدعها من الكشف عن الصلات العديدة بين ملامحها الفردية وبين القضايا الموضوعية العامة، لأنها ومن خلال قدرتها الفردية بإمكانها أن تعيش أشد قضايا العصر تجريداً وكأنها قضيتها التي وُجِدت لأجلها بناءً على العلاقات المتبادلة بينها وبين العالم – أي الخاصة والعامة – تجسيداً لأنها جزء من الوجود.[٢]

لقد كانت (المادية الجدلية) نظرية فلسفية أُعتمدت عند بعض المناهج، ويلحظ أن (ارنيست فيشر) قد "بنى مباحثه النقدية الجمالية، على هذه النظرية الفلسفية، كأساس منهجي عام"[٣]، وقد تعزز هذا الاتجاه الفلسفي كثيراً عند مجموعة من النقاد الفلاسفة، كان من أبرزهم (لوكاتش) في أغلب نظرياته، حيث عدَ هؤلاء النقاد أن (البنية الجدلية) هي "البنية الخاصة، بعدد كبير من الخطابات التصويرية والتجريدية"[٤]، فالشخصية وهي جزء من هذا الأدب، أو هي صورة منه

(١) ينظر: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة ، ٥٩.

(٢) ينظر: دراسات في الواقعية، جورج لوكاتش، ترجمة: نايف بلوز، ط٢، منشورات وزارة الثقافة – دمشق، ١٩٧٢، ٢٨.

(٣) معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، ٥٩.

(٤) م.ن، ٥٩ – ٦٠.

تتشكل بحسب أنظمته الواقعية وإن كانت شخصية من ورق وخيال لا من البشر، لكنها وبحسب هذه الجدلية تتركب من بنيات أوجدها المجتمع بعلاقاته الفردية والجماعية فكونت عنصراً إبداعياً له خواصه وسماته الأدبية.

إن التناقضات الكبرى وحدها لم تعد وبحسب (لوكاتش) "المحركة للتطور الاجتماعي التاريخي مجسدة إلا بالمقدار الذي تبرز فيه بروزاً واضحاً ونشيطاً في اطار الواقع"(١)؛ لذلك كان الكتاب يعملون بصفاء ذهني كبير لتجسيد ما هو نموذجي يصلون به إلى التفاصيل الواقعية التي تجسد النموذجي من الحياة لا الواقع كله استنساخاً.(٢) وقد أعلن (فيلدينغ) أن "تصوير أُناس أحياء هو نشاط زائف خال من أية قيمة إذا كان الاشخاص غير نموذجيين، حتى إذا نجحنا في ذلك نجاحاً عالياً من الناحية الفنية "(٣).

إذن تحقق النموذجية لازم وضروري في اختيار الكُتاب ؛ لنجاح رواياتهم وعملهم القصصي، وهو مبدأ رئيس لنجاح فنهم، ومن بين ما ركز عليه (فيلدينغ) اذ يقول: "على الرغم من انه يتعين على كل كاتب جاد ان يتمسك بحدود ما هو معقول. إلا أنه ليس من الضروري أن تكون شخوصه او تحركاته يومية وعادية أو تافهة ، البتة ، كتلك التي تظهر في اي زقاق أو دار"(٤).

وقد ذهب (ايبوليت تين) إلى وجود عناصر تحدد الأدب وتؤثر فيه، أبرزها ثلاثة هي: (العرق والبيئة والزمن)، وهذه العناصر هي التي تفرض الظروف الخارجية التي تؤثر في الأدب وترجعه إلى المجتمع بوصفه نشاطاً اجتماعياً تتحقق به العبقرية الأدبية خاصة الظروف المحيطة بالنشاط الأدبي.(٥) ويوضح تأثير النشاط الاجتماعي على الأدب اكثر ما فسره (إيداثوف) في نظرته للأدب؛ حيث يقول: "يجب أن ينظر إلى الأدب في علاقته غير المنفصلة

(١) نظرية الرواية وتطورها، جورج لوكاتش، ترحمة: نزيه الشوفي، د.ط، دار كيوان – سوريا، ١٩٨٧م، ٥١.

(٢) ينظر: م.ن، ٥٠.

(٣) م.ن، ٥٠.

(٤) م.ن، ٥٠ – ٥١.

(٥) ينظر: سوسيولوجيا الأدب، روبير إسكاربيت، ترجمة: آمال أنطوان عرموني، ط٣، دار عويدات للنشر– بيروت، ١٩٩٩م، ٢٤.

عن حياة المجتمع وفي خلفية العناصر التاريخية والاجتماعية التي تؤثر في الأديب"[١]، هذا الترابط بين المجتمع والأدب نظرت إليه بعض المدارس الأدبية على أنه تحجيم لجمالية الأدب وتقييد للإبداع الفني، لذلك كانت ردة الفعل من قبل هذه المدارس عنيفةً وفي مقدمتها المدرسة (الشكلانية) التي تؤمن بجمالية الأشكال الفنية وأساليبها، وأنها تصل بجمال الشكل الأدبي إلى أدبية الأدب وروعته الخلاقة.[٢]

إن سوسيولوجيا الأدب عدت حلاً وسطاً لما عانى منه الأدب من كثرة الآراء والمذاهب ، ورفض المنهج للمنهج الآخر بحسب وجهة نظر كل منهج يراها الأصح، فكان (لوكاتش) ومن بعده تلميذه (لوسيان كولدمان) قد وضعا حلاً مناسباً لما يعانيه الأدب يكون أقل تشدداً واوسع فكرا وأكثر وعياً بالمشكلات الجمالية تكون فيه السوسيولوجيا الأدبية الحل الأنسب والأمثل لاحتواء تشتت الآراء وجمعها تحت منهج موحد يشمل الجميع من دون تفضيل منهج على آخر، وهذا الرأي قد التقى فعلاً مع بعض أفكار الاتجاه الشكلي الذي آمن بجمال الفن واساليبه كاجتماع سوسيولوجيا الذوق مع دراسة اللغة كعنصر اجتماعي له جماله.[٣]

أراد (كولدمان)* الوصول بالأدب إلى معناه الحقيقي الذي يجمع شتات المذاهب ضمن منهج موحد يضمن – ولو بالقدر المعقول – حفظ معنى الأدب والتقريب بين الآراء حول الأدب، لذا يلحظ على أولى مقدمات منهجه "أن الفرضية الاساسية للبنيوية التكوينية ، والتي مؤداها أن

---

(١) سوسيولوجيا الأدب، ٢٥.

(٢) ينظر: م.ن، ٢٥.

(٣) ينظر: سوسيولوجيا الأدب، ص٢٥–٢٦، دليل الناقد الأدبي، ميجان الرويلي وسعد البازعي، ط ٣، المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٢م، ٧٦.

* هو لوسيان كولدمان (١٩١٣-١٩٧٠)، وتُرجم أيضا بـ (غولدمان وجولدمان)، ولادته كانت في بوخارست وقد أنهى دراسته الثانوية في رومانيا، بدأت أفكاره الأولى ماركسية عندما تعرف أول مرة على أعمال لوكاتش الثلاثة، نال درجة الدكتوراه في الاقتصاد السياسي عام١٩٣٤م، ثم في عام ١٩٤٣م حصل على الدكتوراه في الفلسفة، وفي عام١٩٥٢م حصل على الدكتوراه في الأدب بعنوان (الإله الخفي . . .)، أما في العام ١٩٥٩م فقد أسس قسماً خاصاً بسوسيولوجيا الأدب والفلسفة. كان كولدمان واسع المعرفة والتنوع، وكان ذا فكر واطلاع ثقافي كبير شمل مختلف الحقول المعرفية، في مقدمتها فكره الماركسي. ونظراً لاتساع معرفته ورؤيته العلمية تمكن من تأسيس منهج نقدي أطلق عليه (البنيوية التكوينية) فانتشر هذا المنهج انتشاراً واسعاً بين التيارات المختلفة، وله أعمال عديدة أُخرى ترجم أغلبها، وكان من أبرزها(الاله الخفي، وأبحاث جدلية، والبنى الذهنية والإبداع الأدبي...) وغيرها. ينظر: الإله الخفي، لوسيان كولدمان، ترجمة: زبيدة القاضي، د. ط، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب-دمشق،٢٠١٠م، (المقدمة) ١١-١٦، البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، لوسيان غولدمان وآخرون، ترجمة: =

كل سلوك انساني هو محاولة لتقديم جواب دال على وضعية مطروحة . . . بان الدال والتكويني مترادفان".[١]

إنَّ أصحاب المادية الجدلية كان منهجهم ينطلق من نقطة محددة، تتخذ من وحدة العمل منحى ملحمياً كبيراً ومترابطاً، لأن شخوص العمل عندهم ينطلقون من الجوهر الواضح المكشوف داخل كلِّ عملٍ يقومون به، فالشخصيات حين يحركونها لا تتحرك إلا من خلال مواقف معينة ومحددة تتناسب وحركة تلك الأحداث الواقعية التي هي أميل للوضع الاجتماعي وضروراته الملحة؛[٢] لأنهم يعتقدون أنَّ "التناقضات تظل تناقضات مجردة بين طبائع ومفاهيم عن العالم، حتى وإن تفحصناها ملياً"[٣]. لذلك تكون الشخصية البطلة – مثلاً – شخصية مثاليةً عندما يكون الواقع أكبر من ذات الشخصية، كما هو حال بعض شخصيات رواية كيشوط لـ(سيرفانتيس)، وهذا الرأي يُعدُّ أحد أُسس نظرية (لوكاتش) الواقعية التي أفاد منها (كولدمان) كثيراً في جلِّ آرائه المعروفة في منهجه التكويني، لاسيما كتابه: الإبداع الثقافي في المجتمع الحديث.[٤]

لا بد أنَّ هذه الآراء ونضجها فيما بعد قد أسهم في دفع وضع الشخصية إلى الأمام من خلال تأثرها برؤية تلك الجدلية التي أضفت عليها أُسساً جديدةً أكسبتها لوناً آخر من النظرة المتولدة تجاهها، لاسيما (رؤية العالم) لدى أنصار هذا المنهج التي منحت الشخصيات مجالاً واسعاً للنظر والتمييز بين شخصية وأُخرى عن طريق رؤية كلِّ طبقة للأُخرى، والموازنة بين شخصيات الطبقات بحسب رؤية وفلسفة كلِّ طبقة لغيرها.[٥] فتجسيد تلك الشخصيات بأشكالها الواقعية وتناقضاتها اجتماعياً أعطى التطور الروائي موقفاً مغايراً للشخصية البطلة الايجابية يميل

= محمد سبيلا، ط٢،مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨٦م، ص١١-١٢، في البنيوية التركيبية دراسة في منهج لوسيان غولدمان، جمال شحيّد، ط١، دار ابن رشد للطباعة،١٩٨٢م، ص١٣-١٦، من البنية إلى السياق دراسات في سوسيولوجيا النص الروائي، عبد الوهاب شعلان، ط١، مكتبة الآداب - القاهرة، ٢٠٠٧م، ص٤٦-٦١، المذاهب النقدية الحديثة مدخل فلسفي، محمد شبل الكومي، د. ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٤م، ٢٠٤-٢١٠، العلوم الإنسانية والفلسفة، لوسيان غولدمان، ترجمة: يوسف الانطاكي، المجلس الأعلى للثقافة،١٩٩٦م، ٥-٢٤، التحليل الاجتماعي للأدب، السيد يسين، ط٣، مكتبة مدبولي-القاهرة،١٩٩١م، ٣٥-٣٧

(١) البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، ٤٤.

(٢) ينظر: نظرية الرواية وتطورها، ٤٢.

(٣) م. ن، ٤٢.

(٤) ينظر: مدخل إلى البنيوية التكوينية، مقال بقلم: د.جميل حمداوي عمرو، مأخوذ من موقع:كتب ودراسات نقدية، تاريخ النشر:٢٠٠٦/١٢/١٢م، ص.ب: ٥٠٢١، الناظور- المغرب، ٧.

(٥) ينظر: م. ن ، ٣-٤.

كثيراً إلى جوهر المجتمع وتحولاته التي تقف ضد الاستهانة والاسفاف بالانسان داخل المجتمع عبر نشاط عفوي لدى الانسان يتجه نحو الحقيقة في وصف الشخصيات وحركتها كأساس من أُسس ذلك المجتمع برغم السخرية والهجاء الَّذَين قد حطما الشخصية فيما مضى، لاسيما في المجتمع البرجوازي وغيره.(١) فكانت اسهامات الكتاب الجدليين أمثال (لوكاتش) وغيره، تركز على الشخصيات كثيراً في الرواية، فهم ينصحون بأن لا يخرج الكاتب عن المعقول في شخصياته، وينزل بها نزولاً فاضحاً وسطحياً يحطُّ من قيمها(٢)، وهي عماد القصة وبها يكتمل المعنى المقصود من ورائها، بل الشخصيات روح القصة وحياتها.

إنَّ الشخصية وإن قُيدت قليلاً عند البنيويين – ظاهراً –، لكنها فرضت نفسها على التحليل البنيوي بغض النظر عن الاسم الذي تسمى به. فهي شكلت مخططاً للوصف مهماً تكون هي من ضمنه أو من صلبه، لأن الأفعال وآثارها عندما تسير تتوقف عليها ولايمكن أن تكون الأفعال بلا فواعل لها، كما لايمكن أن تكون أية قصة من غير شخصيات؛ لأن الكيفية التي بها يُسردُ فعل الشخصية تتضمن في طياتها نوعاً من الكشف عن الأحداث وتأويلات المعاني، وحتى عن وظائف الشخصية في حينها، ذلك الكشف الذي يستدعي قراءة تكوينية للأحداث وما رافقها من مكونات أُخرى، انطلاقاً من قوة فعل الشخصية وأثره في القصة وفي متلقيها، حيث أنَّ فعلها ليس له القدرة على جعل الشخصية جزءاً مهماً أو رئيساً من مكونات القصة وحسب، بل هي تعمل على تقوية المعنى القصصي وتطويره، وكذلك تنشيط الجو وحيوية القصة بسرعة ونجاح بعد صدور الفعل منها.(٣)

إذن على الرغم مما قيل عن الشخصية من كلام ووصف ورقي. فهي تبقى إبداعاً وفناً في خلقها الخيالي الذي "يصدر عن مرجعيات ثقافية يحتقبها القاص بما يكون فيه حراً عند الإضافة والمبالغة فيها"(٤)، لأنه بعد خلقه لها يبحث عن روحها وكيف تكونت تلك الروح ونضجت لكي يصورها بحياة مجاورة لحياة الواقع بلا استنساخ له، حيث هي معنى تكويني يجترحه خالقها بنزوعه التخييلي ولكن بمعنى فني يقربه من شخصيات توجد في الواقع اليومي لكن بهيأة معانٍ

(١) ينظر: نظرية الرواية وتطورها، ٤٦-٤٧.

(٢) ينظر: م.ن، ٥١-٥٢.

(٣) ينظر: مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص، رولان بارت، ترجمة:منذر عياشي، ط١، مركز الإنماء الحضاري، ١٩٩٣م، ٦٣-٦٤، المنهج التكويني من الرؤية إلى الإجراء، د.رحمن غركان، د.ط، دار الانتشار العربي، ص ١١٢.

(٤) المنهج التكويني من الرؤية إلى الإجراء، ١١٢.

قصصية يصوغها السياق فنيَّاً، تاركاً أثراً جميلاً في معانيها التي تنقلها الشخصيات القصصية عنها.[١] فما تتركه مرجعيات الكاتب الثقافية والاجتماعية التي يعيشها وتمر عليه أحداثها، لها دورٌ فعال في صنع شخصياته، ومزجها بمخيلته الفنية التي تعالج شيئاً من واقعه أو تصفه بوصف من خلال نظرته لذلك الواقع المعيش.

إذن في النهاية يستقرُّ رأي (لوكاتش) ومن تبعه على ضرورة التحول الذي تصبح عليه الذات حين تتجه الشخصية البطلة أو غيرها نحو الانفتاح وتجاوز عالم التقاليد والطابع التجريدي، لأن التحوّل عنده يمثل النهاية لا البداية، وأنَّ الشخصيات لها حقائق مؤكدة وإن ابتعدت الرواية أو القصة عن وصفها بدقةٍ ووضوح، وهو يُدرك أنَّ الرواية ابداعٌ لعالم خيالي لا يمكن أن نلمسه حقيقةً، لكنه يبقى– أي ذلك العالَم الخيالي– السبيل الوحيد للتعبير عن الحقائق الجوهرية التي تحملها الشخصيات حين تعجز القيم الأصيلة أن تعبِّر عن الواقع صراحةً، لذلك تكون تلك القيم حاضرةً على شكل شخصيات واعيةٍ للحدث، مجسدةٍ للوقائع في فهم الروائي لها أخلاقياً.[٢] وقيل لا توجد قصةٌ من دون شخصيات، فإنه لابدَّ من فواعل سردية تعمل على حللةِ الأحداث وتتابعها بوصفها كائنات موجودة لحركة الأحداث ودفعها، أو مثلما وصفها (بريمون) بأنها شخصيات تستطيع كل واحدةٍ منها أن تكون فواعل لمتوالية بأفعال عدَّة حين يُطلب منها ذلك، أو عندما يتوجب عليها القيام بذلك، عندها لا فرق بين الشخصية الثانوية من القيام بذلك العمل أو غيرها، بل هي تكون شخصيةً ثانويةً بطلةً، لكنها بطلةُ عملها وفعلها الذي قد أنجزته بأفكارها وحركاتهاالمتعددة.[٣]

إنه ليبدو على الشخصية أنها وعلى الرغم مما مرت به من مراحل متعددة، وأدوار مختلفة؛ أنها تمتعت بأهمية بالغة حين وجودها في القصة. فمنذ زمن (أرسطو) الذي يهتم كثيراً بمفهوم الفعل وأثره، هو قد ربطه بمفهوم الشخصية وإن عدها أمراً ثانوياً، لكنَّ المنظرين من بعده هم من أعطوا الشخصية كثافةً نفسية تقربها أكثر فأكثر من الواقع حتى كأنها فردٌ واقعٌ فيه ومتكونٌ تكوناً كاملاً وهي بعد لم تتحرك بحركة معينة تبرِّز أهمية نوع العمل أو الوظيفة التي ستقع عليها، إذ

(١) ينظر: المنهج التكويني من الرؤية إلى الإجراء ، ١١٢-١١٣.

(٢) ينظر: القصة الرواية المؤلف"دراسات في نظرية الأنواع الأدبية المعاصرة، تودوروف وآخرون، ترجمة وتقديم:د.خيري دومة، مراجعة:أ.د. سيد البحراوي، ط ١، دار شرقيات - القاهرة، ١٩٩٧م، ١١٢-١١٣.

(٣) ينظر: مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص، ٦٤.

غدت مستقلةً بنفسها، لا تابعةً أو ملحقةً بغيرها، لأنها تمثل جوهراً نفسياً يُبينُ طبيعة مجالها الواسع في عملها حين تحركها.(١) فهي بذلك تقترب من مسألة التكوين الثقافي وأثر البيئة التي تحيط بها وبخالقها، وما لها من تراكم المرجعيات الثقافية والاجتماعية المعيشة واقعاً.

إنَّ الذين نفروا من الشخصية ومن معالجاتها – بدأً من التحليل البنيوي ومن تبعه ووصولاً الى توماشفسكي– فإنهم أنكروا حتى بأن تكون لها أهمية سردية تُذكر؟ لكنهم في النهاية أُرغموا أن يخففوا من نظرتهم الحادة لها، وإن كانت ببعض المعالجات البسيطة التي كما يرونها هم.(٢) إلا أنها مؤشرات ايجابية تدل على أهميتها في السرد، فضلاً عن قربها وتأثرها بما يحيط بها من وقائع اجتماعية مؤثرة فيها يجعل منها نموذجاً تكوينياً بسيطاً لتلك الشخصيات الواقعية يجسد حركتها بطريقةٍ خيالية مرسومة بهيأة الواقع وتقلباته.

لقد أسهم (كولدمان) كثيراً في إيجاد حلول وسطية تخص البنى الأدبية بين البنيوية السابقة التقليدية، وبنيويته التكوينية، فقد سعى إلى "تحقيق وحدة بين الشكل والمضمون، بين حكم القيمة وحكم الواقع، بين التفسير والفهم، بين الغائية والحتمية"(٣). وهو بهذا العمل اراد ان يبعد البنيوية الشكلية عن عد النص كيانا مغلقا على نفسه لا صلة له بالواقع الذي من حوله، وان لا تتأثر البنيوية الشكلية كثيراً بالبنية اللسانية المغلقة وتقف عندها فقط؛ لأنه يَعدُّ ذلك تقييداً للنص ووضع الحدود التي تعزله وتضعفه، فضلاً عن تحجيم الظاهرة الأدبية وقطعها عن المجتمع الذي هو كلٌ وهي جزء منه حتى على مستوى البنية الدالة.

لم تكن بنيوية (كولدمان) العصى السحرية لحل كل شيء حصل من قبل، بل أراد ايجاد منهج صحيح لمعالجة ما وقع فيه سابقوه، أي تبنى "منهجاً للعمل، منهجا يتطلب ابحاثا تجريبية طويلة، مجراة بصبر"(٤)، فهو لم ينكب كثيرا على مشكلات اللغة الفنية – كما هو حال البنيويين – انما هو كان صاحب منهج واضح عدَ فيه التفسير السوسيولوجي واحداً من أهم عناصر

(١) ينظر: مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص، ٦٢-٦٣.

(٢) ينظر: م. ن، ٦٣.

(٣) البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، ٤٦.

(٤) م. ن، ٤٢.

تحليل العمل الفني، وهو خطوة ضرورية تكشف جزءاً مهماً من الإبداع لدى المبدع في النتاج الأدبي من منظور اجتماعي يحافظ على خصوصية الأدب ضمن موضوعه المدروس.[١]

بعد أن تبين سلفاً من ان الدال هو مساو للتكويني، حرص (كولدمان) على "إيجاد توازن بين الذات الفاعلة والموضوع الذي مورس عليه الفعل"[٢]، ورأى أن المحاولة التكوينية لا تقود دائماً إلى بنية دالة وحسب، بل هي تفتح إمكانيات تعمل على التقدم للوصول إلى البنيات ومعرفة حلها والجواب عنها من خلال البنيوية التكوينية، لذلك كان التوازن الذي أوجده (كولدمان) وسيلة للتقريب بين الدال والتكويني، وهو من أهم المبادئ التي نادى بها، وتوج به بنيويته وتكوينها.[٣]

أثبتت البنيوية التكوينية جدارتها في ايجاد التوازنات بين البنيات في العمل الابداعي، لذلك تجدها قد راعت مقاييسها للإبداع والمبدع، فهي لم تلغِ الجمالي على حساب الايديولوجي، ولا العكس من ذلك، إنما هي حملت صفة تكوينية جمالية تتحقق في ضوء وحدة شاملة ورؤية كلية تفتح آفاقاً أوسع في مجال الأعمال الابداعية المهمة ضمن البنيات الذهنية.[٤]

إذن هو خفَّفَ من حدَّة التمسك بالجمال القائم على البنية المغلقة التي لا تقبل أيَّ تدخل خارجي يحيط بالنص حين الإبداع، بأن النص بنية داخلية تكتفي بذاتها ولا تحتاج لغيرها؟. وهذا إجراءٌ يتنافى مع ما للنص من مرجعيات متنوعة تحددها المعطيات الخارجية والداخلية التي تحيط به، وتهبه نضوجه الذي يتأتى من معرفة مختلف الثقافات التي تدخلت في بنائه وتكوينه حتى اكتمل إبداعاً جمالياً مؤثراً من كلِّ جوانبه.

(١) ينظر: البنيوية التكوينية والنقد الأدبي ، ٤٢.

(٢) م. ن، ٤٤.

(٣) ينظر: البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، ص ٤٤، مدخل إلى البنيوية التكوينية في القراءات النقدية العربية المعاصرة، نورالدين صدار، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، مج: ٣٨، ع: ١، ٢٠٠٩م، ٦٩.

(٤) ينظر: مدخل إلى البنيوية التكوينية في القراءات النقدية العربية المعاصرة، ٧١ – ٧٢.

الفصل الأول

الشخصيات الثانوية الجماعية

المبحث الأول: الشخصيات غيرالمرئية

أولاً: الملائكة

ثانياً: الجن

المبحث الثاني: الشخصيات المرئية

أولاً: شخصية الملأ

ثانياً: شخصية السحرة

ثالثاً: شخصية إخوة يوسف(ع)

رابعاً: شخصية السَّيَّارة

خامساً: شخصية النُّسوة

مُدخل:

تنوعت الشخصيات الثانوية في القصة القرآنية تنوعاً تناسب مع أجواء القصص القرآني وورودة، فجاءت مختلفة أنواعها – من شخصيات بشرية ومن الملائكة والجن، وكذلك أنواع اخر غيرها – كل يأتي بحسب نوع القصة وأجوائها المناسبة لمجيء تلك الشخصيات.

لقد كان من بين تلك الشخصيات التي تناولتها الرسالة، الشخصيات الجماعية التي تمثل بجميع حركتها وسلوكها أثناء تأديتها وظيفتها وأعمالها عمل شخصية واحدة لها نفس التوجه والأفكار التي تخدم مصالحها وأهدافها الموحدة تجاه المواقف والأحداث التي سوف تمرُّ بها، لتظهر شخصية متوافقة متلازمة فيما بينها في أغلب ما تقوم به من أدوار؛ لأن ذلك العدد من الشخصيات يتلخص في عمل شخصية واحدة تمثل الكل.

إن التفرد الفني الدقيق والصياغة القصصية الرائعة لهذا القصص كانت إحدى أسباب ذلك التنوع بالشخصيات، وقد جعلها تتميز من غيرها على حسب تميز القصص القرآني من غيره؛ لأنه قصص لامس الواقع وجاء منه، وتمت الإشارة اليه سابقاً. ويرى البستاني أن الصياغة الفنية لهذا القصص جعلت منه شكلاً مميزاً تنتظم على وفقه كافة العناصر والأدوات الفنية التي تتناسب معه شكلاً ومضموناً.[1] وهذا ما أكده أيضاً من أن الشخصيات وغيرها في القصة هي اختيار من خلاله "تُنتخب بشكل يتسق مع طبيعة الأفكار المستهدفة فيها"[2]، لذلك يُلحظ أن الشخصيات متنوعة خلال القصص القرآني خدمةً للهدف المقصود من تحركها أو ثباتها، وهذا التنوع يعدُّ نضجاً وكمالاً لها ولعملها. يقول (ادوين موير): "كمال كل شخصية في كل لحظة، هو الذي يكشف التنوع ويجعله واضحاً بذاته"[3].

ولتميز الشخصيات القرآنية، ودقة رسمها القصصي، لابد أن يكون الأثر الذي سوف تتركه الشخصيات الثانوية كبيراً في القصص القرآني، فإبرازها لوجه الشخصية الرئيسة ومكانتها بوضوح

(١) ينظر: التفسير البنائي للقرآن الكريم، الدكتورمحمود البستاني، ط١، مؤسسة الطبع التابعة للاستانة الرضوية المقدسة - إيران، ١٤٢٢ق – ١٣٨٠ش، ٣٢/١، قصص القران الكريم دلالياً وجمالياً، د. محمود البستاني، ط٢، مؤسسة السبطين عليهما السلام – ايران، ١٤٢٨هـ. ق-١٣٨٦هـ. ش، ٨/١ - ٩.

(٢) قصص القرأن الكريم دلاليا وجماليا، ٤٣/١.

(٣) بناء الرواية، ٥٨.

تام وغير ذلك، يجعل منها شخصيات مثالية وقوية في انتاج الأحداث، كما سيبينه البحث إن شاء الله.

المبحث الأول

شخصيتا الملائكة والجن

أولاً: شخصية الملائكة.

وهم أول الشخصيات الجماعية (الثانوية) ذكراً في القصص (قصة الخلق)، الذين كانت معهم بداية الخطاب من الله ﷻ، فيما يخص قضية خلق آدمعليه السلام والخلافة في الأرض.

وردت هذه اللفظة (الملائكة) في القرآن الكريم كثيراً، في آيات وسور متعددة منه، وكانت أُولى سوره التي جاءت فيها هي البقرة، وآخر ورود لها جاء في سورة القدر.

والملائكة هم خلق مميزون اصطفاهم اللهﷻ، وهم عباد كما وصفهم ظاهر النص هكذا فقالﷻ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾.(١) وإن هذا الوصف – ظاهراً – ربما توقف عند تفسير اللفظة لغةً ولم يتجاوز شكل اللفظ الى ما وراءه، وأنهم خلق له أجنحة أيضاً اذا توقفنا كذلك عند البنية المغلقة لشكل اللفظة، كما قالﷻ: ﴿أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى ...﴾(٢). وعلى الرغم من هذا التصوير الظاهر للشخصية؛ إلا أنه لم يصل إلى معرفة كنه تلك الشخصية الغيبية بصورة جليَّة؛ لذلك قيل: إنَّ الله تعالى "لم يذكر شيئاً عن الصورة التي صوروا عليها، وإنما هم قوى خيرة، غيبية، لا تُرى لأعيننا"(٣)، وهو قول أقرب إلى الرأي الذي يرى مجيء "الشخصية في القصة القرآنية مبهمة . . . أو أرواحاً خفية من الملائكة والشياطين والجان"(٤). ولكن بالإمكان رؤية هذه الشخصية الجماعية بوضوح في وقت ما، قال قالﷻ:﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

(١) سورة الأنبياء:٢٦.

(٢) سورة فاطر: ١.

(٣) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه دراسة تطبيقية لقصتي آدم، ويوسف، عبد الكريم الخطيب، ط ٢، دار المعرفة - بيروت، ١٩٧٥م ، ٣٥٣.

(٤) القصة القصيرة دراسات ومختارات، الطاهر أحمد مكي، ط ٨، دار المعارف – القاهرة، ١٩٩٩م ٢٩.

الْعَالَمِينَ﴾[1]. وإنما محدودية البشر، وضعفه، كذلك عجز الانسان عن إدراك كل شيء خلقه الله بقدر، جعل التكهن بالملائكة وغيرهم مدار النقاش أو الجدل.

أما من يذهب أبعد من هذا المعنى فهو لا يقف عند حدود الألفاظ والمعنى المعجمي لها، بل يحاول أن يصل الى ما يُحيط بالشكل والمضمون معاً ويوازن بينهما، فالتمسك بالشكل لا يفي بإيصال المراد ولا يؤدي لاستكمال الصورة المطلوبة من اللفظ؛ لأن "الملائكة يشكلون نموذجا خاصاً من مخلوقات الله، كما أن طبيعة تركيبهم قائمة على الامتثال لأوامر الله . . . بل يتحركون من خلال دافع واحد هو: العقل أو الخير أو الموضوعية"[2]، إذن هذه التركيبة والمستوى الفكري الذي تتمتع به هذه الطبقة من المخلوقات أعطاها منهجاً وتوجهاً يحدد طبيعة عملها وفكرها تجاه الأشياء، لأن تحرك أية شخصية يتم بحسب ما تملك من قوة وإرادة في بنيتها، غير أن هؤلاء الملائكة ليسوا جميع الملائكة، بل هم الذين قصدتهم الآية المباركة. فالملائكة كانت نظرتهم على وفق رؤية عامة شاملة لطبقة معينة سوف توجد في الأرض، وقد لا تكون بمستوى الملائكة، أي من رتبة أدنى بحسب الفهم العقلي لهذه الشخصية، قال ﷻ:﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[3]. والعقل والمنطق الذي عليه هذه الشخصيات الملائكية يحتم عليها عرض السؤال الذي يتناسب مع تصورهم عن الخليفة القادم والتشكيك به على وفق الخلفية الفكرية التي تتمتع بها شخصيات الملائكة من العقل والالتزام بالأوامر، ولكنها تبقى محدودةَ العلم – كما هو الحال الآن مع قصة الخلق هذه _ غير أنها كانت وما زالت على مرتبة من العلم الرباني الذي أُخذ عن الله ﷻ، مثلاً في قصة مريم وابنها عليهما السلام، قال ﷻ: ﴿وَإِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفاكِ عَلى نِساءِ الْعالَمِينَ﴾[4]، يُلحظ أن الشخصية الجماعية هنا تسلحت بمعلومات كثيرة عن الشخصية الأُخرى، فلم نلحظ قيامها بالسؤال عن مريم وما هو شأنها مثلاً، ولماذا أُعطيت كلَّ هذه المكانة وهي من

(١) سورة الزمر: ٧٥.

(٢) قصص القرآن الكريم دلالياً وجمالياً، ٢٢/١.

(٣) سورة البقرة: ٣٠.

(٤) سورة آل عمران: ٤٣.

البشر أيضاً. ولعل سائل يسأل أليس شأن آدمﷺ أعلى وأرفع منزلة عند الله؟ فلماذا تساءل الملائكة كثيراً ولم يُعطَوا من العلم عنه مايكفيهم؟.

لقد كان حوار الملائكة صورة جمالية بينت أبرز ملامح وجزئيات الفن القصصي عندما تحاور الملائكة مع خالقهم بشأن هذا المخلوق الجديد، أو مع غيره، فكانت الإضاءة مرتين، الأولى عن طبيعة الفكر الملائكي، وكيف تحددت نظرة الشخصية العقلية لهذا المخلوق، والأخرى إضاءة الصورة الكاملة عن الشخصية الرئيسة(١)، التي دار أغلب الحوار عنها وعن حيثيات وجودها على الأرض، حتى انتهت بتسليم الملائكة لأمر الله ﷻ والخضوع له، قالﷻ: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾(٢).

برزت شخصية الملائكة مباشرة في أغلب تحركاتها بوضوح، فكان الحوار – كما مرَّ – سيد المواقف والأحداث خلال السرد، تخللته سرعة في عرض السؤال المركزي عن الحكمة من هذا الخليفة في الأرض، كذلك الحوار مع مريمﷺ كان حواراً خارجياً مباشراً أيضاً، تحركت فيه الشخصية على حسب بنيتها المعرفية وعلمها المسبق عنها، من دون توقف أو انتظار الرد عليها. لكنَّ السؤال المتواصل مع آدمﷺ ومن قبله الحوار المتواصل ينمان عن حركة مستمرة للشخصية الملائكية (الثانوية) التي ما سكنت منذ انطلاق القصة والحدث الأبرز الى أن هدأت بالجواب الشافي لها، فهي شخصية غير ثابتة، بل هي شخصية منتجة للحركة والأفكار، نامية بأحداثها وتطورها، وهي شخصيات لا يمكن أن تُلخص أو تُختصر بجملة واحدة مثل المسطحة. لذلك برزت هذه الشخصية الجماعية في مجمل صفاتها متحركة متطورة لا تحدها حركة معينة ولا يقيدها اتجاه واحد تناسباً مع تكوينها وبنيتها المتنوعة في إدارة كثيرٍ من أعمالها المنوطة بها، كما قالﷻ: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾(٣)، فهي شخصية متطورة تتحرك برؤية عميقة تُعطي كلَّ حدث حركةً مناسبة تتفق مع دلالة المواقف ونتائجها، تُنجز أعمالها بدقة بلا زيادة أو نقصان، قالﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي

(١) ينظر: قصص القرآن الكريم دلالياً وجمالياً، ٢٢/١-٢٣.

(٢) سورة البقرة، ٣٣.

(٣) سورة الرعد، ٢٣.

كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾[1]، إذن هي شخصيات تجاوزت وضع المساندة والدعم للشخصية الرئيسة إلى إتقان أدوارها وعملها جيداً، بحيث تكون حركتها بياناً منها على أدوارها وما تقدمه خدمةً للشخصيات الأُخر وإضاءتها بأتمِّ وجه على وفق معلوماتها عنها وطبيعة تحركها.

ومما يُرى على هكذا نوع من الشخصيات – النامية المتطورة – أنها تنمو وتتطور فتتغير بحسب علاقتها بالأحداث، ولا يتوقف تغيرها وتطورها حتى نهاية الأحداث بنهاية القصة لتميزها بالنمو والحركة المستمرة.[2] وهو ما يتبين للقارئ من خلال مجريات الاحداث وتتابعها لتبرز الشخصية الأكثر حضوراً في سير المواقف، وأتمها تفاعلاً مع الأحداث. وبتكامل الشخصية القصصية القرآنية، فإنها تمتلك ميزة فريدة بين جميع الشخصيات الأُخر– غير شخصيات الرواية المصطنعة أو غيرها– جعلتها أكثر نضجاً وأشمل استيعاباَ للحوادث والقصة التي تمس الحياة بالصميم، فتعالج أبرز مواقفها وأدق جزئياتها.[3]

لقد كانت شخصية الملائكة حاملةً دفعاً كبيراً من عنصر المتعة والدهشة التي تُثير في نفس المتلقي الجذب والانتباه والرغبة في معرفة أدق تحركاتها، فعلاوةً على أنها شخصيات تُضيء وجه البطل الرئيس، فهي أيضاً شخصيات عجائبية مشوقة خرقت قواها وقدراتها قوانين الوجود والطبيعة بقدرتها الفائقة على التعامل مع الأحداث، وجاءت بالفعل العجيب الغريب؛ لأن حدود قدرتها فاقت حدود القدرة البشرية المعتادة، وتحولت الى قوى كبرى عجيبة تسيطر على أفعالها بما أُتيت من قوةٍ ومعلومات كافية لأداء أدوارها بنجاح، فمرةً تأتي وكأنها خلق مثلنا تمشي كما نمشي وتدخل كما ندخل، قالﷻ: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ [4]، وأُخرى تبدو فيها هذه الشخصية وكأنها مخلوقات مثلنا لكنها تأتي من عالم آخر غير عالمنا الذي نحن فيه، وبهيأةٍ تكون على أشكال وصفات عجيبة، قالﷻ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[5]،

(١) سورة فصلت، ٣٠.

(٢) ينظر: مدخل إلى تحليل النص الأدبي، ١٣٥.

(٣) ينظر: الصورة الفنية في المثل القرآني، د. محمد حسين علي، ط١، دار الرشيد، منشورات وزارة الإعلام العراقية - سلسلة دراسات (٢٨٨)، ١٩٨١م، ٣٠٨.

(٤) سورة الرعد، ٢٣.

(٥) سورة فاطر، ١.

فبارتباط هذه الشخصية بالفضاء واختراقها الحدود والقوانين البشرية أصبحت شخصيات قوية في إدارة أفعالها، تستثمر حركاتها والوظائف المنوطة بها بأتمٍّ وجه مما زاد من الرغبة في متابعتها وملاحظة تحولاتها وتحركاتها التي تُزيد أكثر فأكثر من المتعة النفسية لدى المتلقين وتجذبهم لها.

ثانياً: شخصية الجنِّ

تتفق بعض الشخصيات الثانوية الجماعية ببعض صفاتها التي تحدد عملها وطريقة حركتها أثناء تأدية أدوارها وما تفعله من وظائف خلال القصص وسرد الأحداث. فشخصيةٌ مثل الجن تمتلك قدرة خفيةً تكاد تساويها بقدرة الشخصية الملائكية التي سبقتها من حيث الحركة والقوة الهائلة التي تتمتع بها عبر تحركتها ونمو أحداثها المتغيرة، وهي في الوقت نفسه تشترك أحياناً بصفات وسمات محددة تقربها من البشر وطريقة حركتهم في الواقع المحسوس، مثل الاشتراك في السمع وغيره من صفات الحياة، والحركة بشكل مجتمعات لها صفاتها المحسوسة الأثر أو الخفية، قال ﷻ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾(١)، وقال ﷻ: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾(٢).

إن هذه الشخصية على الرغم من خفائها وعدم مشاهدتها من قبل البشر الاعتيادي، إلا أنها امتلكت حركةً واسعةً جعلت منها شخصية متطورةً من خلال تحركها طبقة واحدة لها نظامها بوصفها مجموعة موحدة، لكنَّها انتظمت ضمن نظام آخر جعلها تأخذ الأوامر منه وهو أعلى منها وإن كان من البشر، وهو قائدها سليمان عليه السلام الذي اتخذها جنوداً منضبطين ومكلفين بأوامر وجِب إطاعتها، قال ﷻ: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾(٣). لذا كان التنوع واضحاً في أدوار الشخصية الثانوية التي جاءت خدمة وإنارة لشخصية البطل، فبرزت شخصية الجن بأنها شخصية تحركت بانضباط عالٍ تحكمها القوة والنظام الذي لا يقبل الخطأ أو التعدي مع شخصية بطلة من خلال الأحداث التي رافقته، وهذا يدلل على مدى القوة والسلطة المطلقة لدى الحاكم والآمر لها، وهو الشخصية الرئيسة التي أظهرت قوته وعظمته شخصية جماعية مثل الجن وغيره، حيث أنه تميز بـ "أن ملكه كان عظيما ملأ الأرض وانقادت له المعمورة وكان كرسيه يحمل أجناده من الإنس والجن"(٤)، فكان للمواقف والبيئات التي مرَّت بها هذه الشخصية الجماعية دورٌ في رسم تحركها وإبراز صفاتها بوصفها بنية عسكرية موحدة تُديرها

(١) سورة الجن، ١.

(٢) سورة الجن، ٦.

(٣) سورة النمل، ١٧.

(٤) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط١، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤٢٢هـ، ٢٥٣/٤.

شؤون الجند في جميع تحركاتها الدقيقة والمحسوبة بشكل لا يقبل غير النظام والالتزام عنواناً لها، وهذا الأمر فيه صورة فنية جميلة رسمتها صورة الجندية لهؤلاء الجند وانتظامهم كما هو حال الجنود من بني البشر وكيف يكون انضباطهم واستقامتهم أثناء السير للحرب ومواجهة الخصم، أو عند الإعداد للمواجهة وغيرها.

لقد جرى حوار هذه الشخصية بشكل خارجي، وهذا ما وقع من الحوار بين جماعة الشخصية (الجن) عندما تحدثوا – أو تحدث النص – عن حوار حصل عن سمعهم للكلام العجيب، وهذا الكلام العجيب يبدو أنه جاء متناسقاً مع هذه الشخصية التي هي من طبيعة تكوينها يلفها الخفاء وعدم الظهور، لأنها شخصية عجائبية لا يُتاح لبني البشر جميعاً رؤيتها، بل صعب التكهن برؤيتها بسهولة.

إن المتلقي لهكذا شخصيات عجائبية بمجرد قراءتها يستشعر أنها شخصيات أكثر من أن تُوصف بشكل معين، لأنها شخصيات في أغلب تحركاتها تكون غير مدركة ونادرة الوجود، ولأن تكوينها الذاتي فيه شيء من الغرابة الممزوجة بالعجب، وأيضاً تبقى طريقة تشكيلها مخالفة للمألوف، فضلاً عن تداخلها مع الشخصيات التخييلية.[1] وإن انتظمت ضمن نسق معين ومتعارف عليه كما لحظنا ذلك في هيأتها وهي جزء من جنود سليمان مثلاً.

على الرغم من ندرة هذه الشخصية الجماعية، وتميزها بملامح غير قابلة للإدراك كُلياً، أو تصورها واقعاً حقيقياً مرئياً مثل باقي المخلوقات الأُخر، لأنها أمتازت بالندرة وضبابية الوجود، مع شعور المتلقين جميعاً بدلالة تَخفِّيها وعدمِ وضوحِها، وكثرةِ ألغازها وأعمالها، هذا ما يبعث على زيادة الدهشة والاستغراب منها ومن تحركاتها كيف تكون، وكذلك طريقة تشكلها هيأةً منفردة لها بنيتها الخاصة بها والخارجة عن المألوف والاعتيادي عمن حولها[2]، ما أعطاها قوةً وصلابة أكثر لزيادة التوهم بها وعدم رؤيتها بوضوح، لأنها مخلوقات أقرب لفضاء السماء، تحلق لأي مكان تريد بفعل عاملها العجائبي الخارق وفوق القوانين الطبيعية، وهو من الأسباب التي جعلها

(١) ينظر: قال الراوي، ٩٩.

(٢) م. ن، ٩٩، الشخصيات غير الرئيسة في رواية مدينة الله لحسن حميد، كوثر محمد علي، رسالة ماجستير: قسم اللغة العربية – جامعة الموصل/ كلية الآداب، إشراف: د. عمار أحمد عبدالباقي، ١٤٣٣هـ - ٢٠١١م، ٥٧.

شخصيات متباينة ومتنوعة الوظائف والتحولات الدائمة مما جعلها مُتصوَّرةً بأشكال عديدة وأفعال كثيرةٍ "الشيء الذي يجعلها قابلة للتمثيل أو التوهم"[١].

إنـه وبالرغم من الذي قد مرَّ ذكره عن تلك الشخصيات من غموض ورمز في حركتها وتكونها، إلا أنها برزت من خلال النصوص المتعددة* بوصفها شخصيات اجتماعية – جماعية أو مفردة – لها نمط في حركتها التي صاغت بنيتها وأسست تكوينها، بأنها شخصيات متحركة متطورة تبني نفسها مع الأحداث على حسب ظهورها ومشاركتها فيها، وبما تحتويه من صفات مميزة من غيرها، الأمر الذي زاد من تماسكها بأنها طبقة موحدة بذات الأفكار والتوجه الذي حتَّمه عليها وضعها أو لنقل حاكمها الذي قادها، فهي لم تخرج عن الأمور التي أُنيطت بها، لأنها شخصيات مأمورة، ولا تجاوزت حدودها فيما بينها، لأنها شخصيات سمعت كلاماً أُعجبت به، فأرادت تغييره بما تمتلك من قواها الكلامية أو الفعلية، وكأن القول فيها، هي تشبه شخصيات البشر المجتمعية التي تحددها عوامل معينة في عرض موضوعاتها، أو حلِّ إشكالاتها بما يمليه عليها وضعها الخاص أو العام فيما بينها.

لقد تعددت الوظائف التي أنجزتها شخصية الجن في القصص، ولعل هذا التعدد في أداء المهام الملقاة على عاتقها كانت هي كفيلة وكفوءة في إنجازه لما امتلكته من قوة بإذن الله توفيقاً وتسهيلاً لشخصية البطل سليمان(عليه السلام)؛ لأن البطل سليمان النبي(ع) "قال: ﴿وَأُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾[٢] يعني: أعطينا علم كل شيء. ويقال: النبوة والملك وتسخير الجن والشياطين والرياح"[٣]، فهو أشار الى هذا التعدد في أداء الشخصية الثانوية، ومنها وظيفة تسخير الجن التي تحتمل أي عمل يُراد منها، وهو ما يُلمح أولاً من سياق النص نفسه في كلمة ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾[٤] التي دلت على معانٍ عديدة، أبرزها الكف

(١) قال الراوي، ٩٣.

* ينظر: قوله تعالى:[الانعام:١١٢]، وقوله تعالى:[النمل:١٧]،وقوله تعالى:[سبأ:١٢]،وقوله تعالى:[الجن: ٦]. فضلاً عن آيات أُخر كثيرة غيرها.

(٢) سورة النمل: ١٦

(٣) بحر العلوم، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (المتوفى: ٣٧٣هـ)، ط١، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.٥٧٦/٢.

(٤) سورة الجن:١٧.

والالتزام الذي حصل بين أفراد الجنود وكيف يكون الانتظام، عندما يحرص الأول الذي في مقدمتهم على الذي يكون في الأخير، ولذلك أُثِرَ عن سليمانعليه السلام "إنه استعمل جنياً عليهم، يرد أولهم على آخرهم. ويقال: هكذا عادة القوافل والعساكر".(١) وأن في "﴿يُوزَعُونَ﴾ إشارة إلى أنهم مع كثرتهم وتفاوتهم لم يكونوا مهملين ومبعدين، كما يكون الجيش الكثير المتأذّى بمعرّتهم بل كانوا مسوسين ومقموعين"(٢). وهنا يقع العمل وأداءه على عناصر معينة من ذلك الجيش القوي والكبير، المترامي الأطراف لضِخَمِ تعداده وصعوبة حصره بمكان محدد، لذا وجِب على شخصيات منه القيام بذلك الواجب، ويبدو أن المهمة كانت من نصيب الجن الذي كان في مقدمة الجند فأُوكلت له قضايا التنظيم، وهو ما بدا من ظاهر سياق النص عندما قالعز وجل: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾، فقدم الجن على غيره، ثم جاء بالإنس وبعده الطير مرتباً، ثم بيَّن كيف يُلزم الأول على الآخِرِ اتباع القوانين والالتزام بها، فأتى بـ "قولهعز وجل: ﴿يُوزَعُونَ﴾، أي: حبس أولهم على آخرهم"(٣). وبناءً على هذا التكليف الكبير وغيره، يُلحظ تعدد الأعمال والوظائف التي أدتها هذه الشخصية التي خَلقت لنفسها جوَّها المناسب لحركتها وبنيتها التي أحاطت بها، فكونت شخصية قوية خارقةً تفعل كلَّ ما تُؤمر به من دون تلكؤٍ في ضوء قدرتها المتاحة لها، وبالنظر إلى طريقة عملية أداء أدوارها، فهي تبدو أولاً طبقة من الجند موجودة على أرض الواقع فهي من الواقع – أبرزه في زمن سليمانعليه السلام–، وكذلك هي تبدو طبقة اجتماعية تختلط مع البشر وتسمع قولهم فتفهمه وتحلله ثم تتناقله فيما بينها. قال تعالى﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾(٤)، بطريقتها ذات الأعمال العظيمة والخارقة التي تتجاوز كلَّ القدرات الموجودة عند الإنس والطير، فتتحول إلى شخصية مختلفة تقوم بأدوار أحياناً تفوق حتى حجمها وهيأة تكوينها، وهذا ما جعلها تدخل ضمن الشخصيات المتعددة الأدوار والدلالات، ذات السمات المنفردة، فتتداخل مع شخصيات أُخر ببعض صفاتها، ما هيَّأها أن تكون مختلفةً ومتشابهةً في آن واحد مع كثير من الشخصيات

(١) بحر العلوم ، ٥٧٦/٢.

(٢) المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: ٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ط١، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، ١٤١٢هـ، ٨٦٨.

(٣) م. ن، ٨٦٨.

(٤) سورة الجن:١.

الأُخر، وهي قد تتماهى فيما يسمى بـ "تتداخل الشخصيات، وتعدد ملامحها إلى الحد الذي يصعب معه الاطمئنان إلى التميزات التي تقدمها لنا مختلف النظريات حول الشخصية"[١].

لم تتحدد طبيعة الأدوار التي قامت بها الشخصية الجماعية على نوع واحد من الأعمال، بل تنوعت وتعددت على حسب طبيعة كلِّ عمل قامت به، وهذا العمل وإنجازه تُبديهُ الشخصية في ضوء المواقف أو الموقف الآني الذي يناسب طبيعة حصول الموقف، لكن بحرفيَّةٍ ونباهة عاليةٍ يكون تحركها فيه بذكاء وسرعة بديهة، وبنسق وأثرٍ يتناسب مع بنية تكوينها العجيبة والقوية في معالجة الأحداث وتمكنها منها من دون ضعف أو تردد في المواقف. وهذا ما ظهر منها حين سأل البطل سليمان عليه السلام عمن يأتيه بعرش بلقيس وهو جالس في قصره، فأول من انبرى للأمر وقام له هو عفريت من الجِنِّ، قال تعالى: ﴿قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾[٢]. هنا حصل أن قام العفريت وتقدم لسليمان وقال قولته، فأفصح عن وضعه وبعض صفاته، تلك الصفات التي أشار إليها بلفظتين اثنتين قوي وأمين، أبان ما يتمتع به من قوة وحذق وغيرهما، هو وأبناء فصيلته الآخرون. لذلك فهو عفريت مارد تميز بقوته وقدرته البالغ فيها حداً يوصله سرعةً وتحركاً كما سرعة الشياطين في تحركها وأعمالها الخبيثة التي يُوصف بها بعض أبناء البشر أحياناً، دهاءً وفطنةً وسرعة في الحركة، فهو عفريت غليظ شديد، لكنه أمينٌ مطِيعٌ لا يخون يأتي به كما هو من دون نقصٍ فيه وهو قادرٌ على ذلك.[٣] فإذا كانت كلُّ هذه الصفات متحققةً في هذه الشخصية، فهي شخصية رسمت بنيتها الحركية القادرة على النشاط والتحول مع ما يواجهها من واقع أو حدث طارئ يحتم عليها إبراز قوتها ودورها، بوصفها شخصية قوية نشطة، تواكب كل ما يمر عليها من أحداث، ما جعل بنيتها تقترب أكثر من الواقع وتلامسه، وتتعامل معه على حسب موقف الأحداث، فيكون بالإمكان تحولها من

(١) قال الراوي، ٩٣.

(٢) سورة النمل، ٣٩.

(٣) ينظر: بحر العلوم، ٥٨٢/٢، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس، قدمه وقرظه: الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي، ط١، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م، ٣٧٨/٣، الكشاف الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى:٥٣٨هـ)، ط٣، الناشر: دار الكتاب العربي- بيروت، ١٤٠٧هـ، ٣٦٧/٣، والمفردات، ٥٧٣.

حقيقة الواقع إلى عجائبية الصفات والتحرك. تلك الحالة والتحول في الأدوار من أبرز صفات هذه الشخصيات العجائبية التي تقوم ببعض تغيراتها مع تطور الأحداث وجريانها بسرعة، لتكون ضمن نمط من الشخصيات القابلة للتحول في أدوارها، وهذا ما يجعل من بعض الشخصيات حقيقية الكينونة عجائبية الأدوار(١)، ما جعلها مؤهلة لأن تتحول وبقوة من كينونتها "الحقيقة المألوفة إلى كينونة غيبية".(٢) فهي لم تراعِ وضعها بوصفها طبقة مستقلة تختلف عن غيرها بمؤهلاتها، بل كانت صاحبةَ نظرةٍ مجتمعيةٍ تحرص على إظهار قوتها وقدرتها الفائقة على الآخرين، لتكون جزءاً من الواقع المعيش الذي يحتم وجودها طبقة لها أثرها في صنع الأحداث.

لا تقوى الشخصية بناءً على تقسيمها ونوعها في القص، بل هي تتقوى بأدوارها وطريقة تعاملها مع الأحداث المحيطة بها لتنفذ بنجاح عند تأدية مهامها، فالشخصية الثانوية تكتسب وجودها وقوتها أيضاً من قوة وقدرة شخصية البطل المحوري الذي يعرف كيف يتعامل مع الأحداث بمهارة، لأن الشخصية كلما كانت قريبة من الحدث الذي يهتم به البطل كثيراً؛ كانت وظائفها بالأدوار شبه مركزية ومحورية داخل القص والموقف، وذلك لأن الشخصيات الأكثر تفاعلاً وقرباً من الشخصية المركزية والحدث المركزي الآني ما هي إلا "شخصيات أساسية، وهي تضطلع بدور مركزي في الحكي، ولكنها تختفي في لحظة من اللحظات، مخلية دورها لشخصية أساسية أخرى"(٣). وهذا الأمر حصل لشخصيتنا هذه عندما أراد البطل جلب عرش بلقيس فتقدم العفريت بعرض خدماته وجلبه، لكنه سرعان ما ترك الدور والفعل لشخصية أُخرى بدت هي أقدر منه وأكثر سرعةً. هنا اختفت شخصية أساسية – شخصية الجن – وبرزت شخصية أساسية أُخرى هي مَنْ عنده علم، قال ﷻ: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ . . . ﴾(٤). وهي شخصية واقعية من البشر المألوف، لكنها جاءت بأكثر مما جاءت به شخصيات عجائبية خرقت كلَّ المألوف وقوانين الطبيعة، وهو أمر يُثبت التنبأ بواقعية الشخصيات، وعجائبية أدوارها المنوطة بها عندما تتحول إلى الغيبية وما وراء الغيب، فضلاً عن

(١) ينظر: بنية السرد في القصص الصوفي المكونات، والوظائف، والتقنيات دراسة، د. ناهضة ستار،د.ط، من منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق،٢٠٠٣، ١٨٧، الشخصيات غير الرئيسة في رواية مدينة الله لحسن حميد، ٥٧.

(٢) بنية السرد في القصص الصوفي، ١٨٧.

(٣) قال الراوي، ٩٣.

(٤) سورة النمل، ٤.

أن هذا التقارب بين الشخصيات وأدوارها فيه لمحة فنية وجمالية يتبين فيه قرب المسافة بين الجن والإنس من حيث تراتب الأدوار وإقامة النظام بأكمل وجه يُراد، وهما الأجدر بذلك من الطير، فوقع الجمع بينهما، وذُكِر الطير متأخراً بحسب وروده داخل نص القصة وعند حشر الجند، وكذلك قد وقع التقارب في قصة أُخرى، حيث كان رجال من الإنس يعوذن برجال من الجن، إذ فيها يُلمح أيضاً هذا التقارب بينهما بأنه نسق متشابه بين القصص.

إن أجمل ما رسم صفات الشخصية هو عنصر الحوار الذي بين إبرز سمات جماعة الجن، فبِدْأً من حوارهم فيما بينهم، كان حواراً خارجياً بصورة مباشرةٍ، وهي طريقة إخبارية وإعلامية واضحة تولت الشخصية نفسها بعرض أفكارها من دون واسطة لأنها – وكما قيل سابقاً – شخصية جماعية تحركت منذ انطلاقتها الأولى بقوة، وهي عارفة معرفةً جيدةً بطبيعة أعمالها والأدوار المنوطة بها، فكانت دلالة أفعالها أبلغ من كمية ورودها في النص، لأن الأدوار بدلالاتها هي من تحدد معلومات الشخصية وطبيعتها، وهذا ما حصل فعلاً من خلال أفعال الشخصية وحركتها عندما كانت تعبر عن نفسها صراحةً ومن دون وسيط. وهذا الأمر هو نفسه الذي تحدث عنه (فيليب هامون) عندما أشار إلى بلاغة المعلومات ونوعيتها، التي يتم الحصول عليها ضمناً من خلال أفعال الشخصيات وحركتها ونشاطها حين القص.[1]

(١) ينظر: سميولوجية الشخصيات الروائية، ٤٨.

المبحث الثاني

أولاً: شخصية الملأ

يبدو وللوهلة الأولى للقارئ من هذا اللفظ (الملأ)، أنه يدل على أُناس ينحدرون إلى طبقة معينة ومميزة، لها صفاتها الخاصة بها دون غيرها، توحدهم سماتهم بأن يكونوا من طبقة خاصة لأن "الملأ: جماعةٌ من النّاس يجتمعون ليتشاوروا ويتحادثوا"(١). إذن هم شخصية من طراز خاص ومحدد تربط بينهم روابط قد لا تكون عند غيرهم. إذ يعدُّون من أشراف الناس، الذين يتشاورون في أغلب أُمورهم عند تدبيرها، ولا يقطعون بأمر إلا بعد تلك المشاورة والاتفاق فيما بينهم.(٢) أُولئك هم الكبراء المتسلطون الموصوفون بالكبر وبعض التسلط بفعل مكانتهم بين الناس في المجتمع، قال ﷻ: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾(٣).

إن هذه الشخصية، في هذه الآية ومثيلاتها، برزت منذ انطلاقتها الأولى بحركتها القوية والسلبية تجاه شخصية البطل في أغلب مواردها، بناء على ما تأسست وتكونت عليه بنيتها النافذة في المجتمع بقراراتها، وكذلك قربها من سلطة القرار الكبرى فيه، وهذه القوة هي التي مكنتها من بلوغ مصاف الطبقات الخاصة، وهي التي تدفعها في إبداء المعارضة أو الرضا عما يقع داخل المجتمع، وذلك ما يُلحظ من أول تحرك لها بوصفها شخصية جماعية معارضة لا تنظر إلى أيِّ شيء سوى مصالحها الخاصة بها ولأتباعها، قال ﷻ: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(٤). إذ بدأت شخصيتهم بالتدرج بالرد على ما جاء به نوح عليه السلام، فأول ما فعلت الشخصية ردت بتخطئة البطل ونعتته بالضلال وعدم الصواب بما جاء، فهي إذن شخصية ذات بعد فكري فيه من التمكن والرد ما يسمح لها أن تُجادل في الأفكار الأُخر المفندة لآرائها أو معتقداتها الخاصة بها، وإن كان فكرها فكراً ضالاً، إلا أنه يبين فكرة الطبقات التي تكون في أغلب دوافعها جماعيةً قائمةً على مصالح اقتصادية وسياسية وثقافية واجتماعية تكاد توحد توجه

(١) العين،، كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري(المتوفى: ١٧٠هـ)، تحقيق: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، د.ط، الناشر: دار ومكتبة الهلال - المملكة العربية السعودية، ٣٤٦/٨.

(٢) ينظر: لسان العرب، ١٥٩/١، ٢٩/٤، ١٣/٥.

(٣) سورة الأعراف، ٦٦.

(٤) سورة الأعراف، ٦٠.

الطبقات. وهو ما يمكن أن يدخل ضمن وعي الطبقة الواقعي والفعلي الذي يُحيل فيما بعد للوعي الممكن الأكثر اتساعاً ونظرةً لما سيكون – وهو الذي كثيراً ما تأثر به (كولدمان) وتحدث عنه – الذي يُجبر تلك الطبقات بأن تستشعر الخطر المحدق بها من جراء تحرك بعض الأفراد أو الطبقات الأخر على عكس اتجاهها، مما يهدد وجودها أو مصالحها الاجتماعية والاقتصادية بالمرتبة الأُولى، أو حتى الثقافية منها، لذلك تعمل هذه الطبقات على إيجاد المستحيل لحماية مصالحها وكيانها داخل المجتمع(١)، وبشتى الطرق المتاحة لها، السياسية والاقتصادية والإعلامية المسخَّرة من قبل السلطة وغيرها، وحتى الثقافية إن تطلب الأمر تسليح نفسها دفاعاً عن مصالح الطبقة بصورة عامة.

إن كلَّ شخصية فاعلةٍ بقوةِ سلطتها، لتعتدُّ بصفاتها، وفي ضوء ذلك ترسم تحركاتها المساندة أو المعاندة للشخصية الرئيسة، وبناءً على تحدي شخصية الملأ للشخصية البطلة، وما كانت تتمتع به من نفوذ؛ ولأنها من الرؤساء والأشراف من الأجلاء والقادة والسادة، ويرى بعض المفسرين مثلاً أنهم كانوا من الرجال حصراً لا نساء فيهم، فهم السادات والكبراء من الرجال الذين وصلوا مكانةً لا يصلها أيُّ شخص كان، لأنهم كانوا من عِليَّة القوم ورؤسائهم، وهم يرون أنفسهم قد مُلِئت شرفاً، ولهم هيبة وقدر في المجالس ويُشار إليهم بكل حديث يقع بين الناس.(٢) هذه المقومات مجتمعة أعطت الشخصية الجماعية حساباً حركياً عند قيامها بأدائها، فالدور الذي تؤديه هكذا شخصيات ينبع من صميم كيانها وبنيتها العظيمة التي تحتفظ بها في داخلها، بوصفه كيانا عظيما يفوق كل طبقات الناس الأُخر، ومن جميع النواحي، كما ترى هي نفسها.

---

(١) ينظر: العلوم الإنسانية والفلسفة، لوسيان غولدمان، تر: يوسف الأنطاكي، ط١، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٦، ٢٧- ٢٨، في البنيوية التركيبية- دراسة في منهج لوسيان غولدمان، جمال شحيِّد، ط١، دار ابن رشد للطباعة، ١٩٨٢، ٢١- ٢٩، البنيوية وما بعدها - النشأة والتقبل، أُطروحة دكتوراه: سامر فاضل عبد الكاظم، إشراف: الدكتور قيس حمزة الخفاجي، جامعة بابل- كلية التربية/ صفي الدين الحلي - قسم اللغة العربية، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م، ١٦١.

(٢) ينظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (المتوفى: ٤٢٧هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م، ٢٤٤/٤، والكشاف، ١١٣/٢، مفاتيح الغيب - التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخرالدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، ط٣، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ١٤٢٠هـ، ٢٩٦/١٤، الجامع لأحكام القرآن - تفسير القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط٢، دار الكتب المصرية – القاهرة، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م، ٢٤٣/٣، ٢٣٤/٧.

من هذا التوجه لدى الشخصية نكتشف إحساسها – الداخلي والخارجي– بسمو شأنها، ولذلك لم تكن شخصية هيِّنةً، بل كانت شخصية عصيَّةً صعبةَ المراس، وعسيرة التقبل للآخر. ومن خلال ملامحها وصفاتها نلحظ أنها كانت تسير في تصويب نفسها وتخطِئة الطرف المقابل، وليس الطرف الآخر من باب مقابلة الأنداد، بل من وجهة نظرها أنها الأفضل والأكفأ فيما تدعيه، حفظاً لمصالحها وتماماً لكمالها تجاه الآخرين، فهي الشخصية الأُولى والأقدر بإدارة الشؤون والمقادير التي أُنيطت بها، لا أن تأتي شخصية أقلَّ منها مكانةً وجاهاً ومنزلةً في الدنيا لتسيّرها فتحكمها، وإن كان الطرف المقابل من سِنخ الأنبياء أو الصالحين.

إن استشعار هذه الشخصية بكمالها عند تحركها ونشاطها يبدو أنه يسنده أولاً وآخِراً القوة المادية – أي الجانب المادي الاقتصادي– وهو ما رسم بُعدها واتجاهها في كلِّ شيء، فبنيتها قائمة على الزخم الطبقي المادي الذي يدفعها لفعل ما تُريد، وهو الذي أسس أغلب اتجاهاتها الآيدولوجية ونظرتها للمجتمع. وقد أشار كلٌّ من(ماركس)، وأضاف من بعده (لوكاتش) توجهات هذا البعد الطبقي لدى هكذا طبقات تحولت من ماديتها إلى بعد آخر أصبح جزءاً من بنيتها الفكرية التي ترى فيها نفسها هي أيضاً تمتلك الأفكار المُقوِّمة للمجتمع وبها تبني أفكاره على وفق نظرتهم الطبقية المقتدرة. وهو بعد آيدولوجي بحت ينظر للطبقة على أنها هي المسيطرة في كلِّ شيء، لأن الطبقات التي لها قدرتها وقوتها المادية هي التي لابد وأن تحكم المجتمع وتكون بيدها زمام ومقاليد كلِّ جوانب الحياة، إذ هي القادرة ليس فقط على إدارة القوة الاقتصادية وحسب، بل هي من تملك السبل والإمكانات المادية التي تُهيءُ تسلطها حتى على النشاطات الفكرية بين جميع الطبقات الأُخر، ولو بمجرد إعلامها المسيطر على المجتمع ظاهراً، لأن بيدها الوسائل جميعاً التي تُوصِلها إلى تبني الأفكار السليمة والرأي الأنجع لبقية الطبقات، لأنها صاحبة الامتيازات ووضعها له أساس قوي، وهو الأساس المادي الذي يسمح لها في ايجاد جميع المتطلبات بوسائطها الخاصة.[1] وهذا أمرٌ لا تملكه أو لا يملكه كل أفراد المجتمع بنظرها، لأنهم قاصرون مادياً فلا يمكن التعبير عن أفكارهم بحرية.

(١) ينظر: الايديولوجيا الألمانية، كارل ماركس، وفريديرك انجلز، ترجمة: فؤاد أيوب، ط١، دار دمشق- دمشق- سوريا، ١٩٧٦، ٥٦، التاريخ والوعي الطبقي، جورج لوكاتش، ترجمة: حنَّا الشاعر، ط٢، دار الأندلس- بيروت- لبنان، ١٩٨٢م، ٤٤-٤٥، ٥٩.

إذن تمكُّن هذه الشخصية الجماعية بحسب نظرها رسم خطوطها الأولى لحركتها، فالسمات التي طُبِعت عليها حددت سلوكها بهيأة جماعة وطبقة عليا وفرقته عن بقية الأفراد والطبقات، لأنها طبقة نمطية تسير بنمط معين ومختلف لابدَّ وأن تُحسبَ لها قيمةٌ خاصة بين الجميع، لأنها بنت نفسها وسلوك شخصيتها، فهي شخصية نمطية بامتياز، تقاتل دوماً لفرض إرادتها وسلطتها من أجل حماية مصالحها ووجودها في مركز القرار خاصةً، وفي المجتمع بصورة عامة. قال ﷻ: ﴿وَقالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْناهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا﴾[1]. ولهذه المكانة وهذا الترف والراحة لا تريد هذه الشخصية أن تفقد شيئاً من مقوماتها التي اعتادت عليها، وكيف ذاك وهي قد حُسِبَت من طبقة خاصة ومرموقةٍ بنت بموجبها كيانها الذي أنضج حركتها ونشَّطتها أكثر في تكوين بنيتها الثقافية والسياسية، وكذلك الجدلية الفكرية الملتوية التي تستعملها في آرائها المتلونة مع الآخرين؛ حتى وصلت درجة الكبار "أَيِ: الْأَشْرَافُ وَالْقَادَةُ وَالرُّؤَسَاءُ"[2]. فأصبحت بفعل السعة عليها والترف الدنيوي شخصيةً قويةً يأتيها كلُّ ما ترغب به[3]، فهي مغالطة ومجادلة بسلبيتها على شخصية البطل من أجل تفنيد آرائه وكسرها بالحجج الضَّالة التي تتوافق ومشروعها المتسلط في قهر الآخرين.

لا شك أن كثيراً من (الملأ) لم يأخذ كلَّ مقومات شخصيته من القوة المادية والجاه الذي هو عليه، لأن القارئ يُدرك في نهاية المطاف أن هذه الشخصية خاطئة وسوف تقع وتتلاشى في لحظة من لحظات الأحداث والمواقف. ومعروف أن الشخصية الثانوية مهما بلغت من قوة تبقى قيمتها الحركية أقلَّ من قيمة الشخصية الرئيسة، لقلة مركزية الأولى في أداء الوظائف.[4] وهذا لا يُعدُّ ضعفاً في الشخصية الثانوية، بل هو نوع من التوازن بين الشخصية والحدث حتى لا يطغى أحدهما على الآخر، ذلك "لأن القصة القرآنية تمتاز بشمولية البناء، ومشاركة جميع الشخصيات في بناء الحدث، وتفعيله، وتطويره"[5]، فالشخصية الثانوية تُدرك أنها لا تبلغ الرئيسة، الأمر الذي يُدركه الملأ من قوة شخصية الأنبياء بما لها من مقومات وبراهين دامغة، لكنهم يجعلون أنفسهم

(١) سورة المؤمنين، ٣٣.

(٢) تفسير القرطبي، ١٢١/١٢.

(٣) م. ن. ١٢١/١٢.

(٤) ينظر: تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة، شريبط أحمد شريبط، د.ط، دار القصبة- الجزائر، ٢٠٠٩م، ٤٥.

(٥) جماليات التلقي في السرد القرآني، د. يادكار لطيف، ط١، دار الزمان للطباعة، دمشق- سوريا، ٢٠١٠م، ٦٠.

نِدّاً للأنبياء لينتصروا عليهم أو يغلبوهم بأية طريقة كانت، لأنهم "جَعَلُوا أَنْفُسَهُمْ أَضْدَادَ الْأَنْبِيَاءِ . . . [فاعتزوا بأنفسهم بأنهم] الذين يملؤون صُدُورَ الْمَجَالِسِ وَتَمْتَلِئُ الْقُلُوبُ مِنْ هَيْبَتِهِمْ وَتَمْتَلِئُ الْأَبْصَارُ مِنْ رُؤْيَتِهِمْ وَتَتَوَجَّهُ الْعُيُونُ فِي الْمَحَافِلِ إِلَيْهِمْ وَهَذِهِ الصِّفَاتُ لَا تَحْصُلُ إِلَّا فِي الرُّؤَسَاءِ"(١). فكيف يأتي مَن هو دونهم ليكبرهم ويعلو شأنه فوق شأنهم، ويحطم مصالحهم، ويفند آراءهم، ويقوم بقلب ما هو قائم من واقعهم المؤسس على مصالحهم وأهوائهم، إلى ما هو ممكن الحصول والحدوث على عكس ما كانوا يعملون ويحصلون عليه.

لاريب أنه كان هناك صراع داخلي تعانيه هذه الشخصية الجماعية، نقلته للمتلقي طبيعة السلوك المتأتي من ردة فعل الشخصية تجاه الأحداث وتجاه شخصية البطل التي جوبهت بشتى الادعاءات السلبية والمعارضة العنيفة، حتى وصلت الحال ببعض شخصيات الملأ أن تتفجر إحدى حركاتها الفظيعة وعصارة بنيتها الفكرية – حين يضيق بها فضاءها الواسع – إلى إنهاء تحرك الشخصية الرئيسة بنفيها، أو محوها من الوجود تماماً لتكون هي الشخصية الأُولى والمقدمة في المجتمع بلا منازع، قال ﷻ: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾(٢)، وقال ﷻ: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾(٣). فهنا تتجسد الأفكار والآراء الداخلية التي كانت تدور في خلد الشخصية الجماعية، ولاريب أنها عرضت فيما بينها جملةً من الآراء والحلول في معالجة المواقف وتداولتها مراراً مع نفسها، لكنها عندما عجزت ورأت رأي واصرار شخصية البطل على اتجاهٍ واحد لا غير، وصلت في قرارة نفسها أن تهلكه وتتخلص منه وإلى الأبد لتُسيِّر مشاريعها الآنية والمستقبلية.

هذه الأفكار والرؤى لدى شخصية (الملأ) تبين للقارئ كيف كانت النفس تتصارع داخلياً وخارجياً في سبيل إنجاح مخططاتها وتنفيذها، وهنا تتجلى الصورة الجمالية والفنية التي ترسمها القصة عن ملخص تلك الأفكار والرؤى النفسية والاجتماعية، وكذلك السياسية والثقافية لتلك الشخصيات الجماعية عندما كانت تعالج مشكلاتها جميعها.قال تعالى:﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ

(١) مفاتيح الغيب، ٢٩٦/١٤.

(٢) سورة الأعراف، ٨٨.

(٣) سورة القصص، ٢٠.

مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾[1]، وقال تعالى:﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾[2]. من هذا العرض لبعض الأفكار يُدرك المتلقي أيضاً المجالات الواسعة التي يتركها النص عند عدم ذكره جميع الأحداث مسرودةً بتفاصيلها التي وقعت من شخصية الملأ، ليُتيح المجال لإعمال العقل لدى المتلقين باستخلاص بعض النتائج التي قد تُنيرُ جوَّ القصة وأحداثها، ليطلعوا على مدى شدة الملأ وموقفهم من الرُّسل ومبادئهم الصحيحة. فضلاً عن الموقف السلبي المتجبر الذي تميزت به شخصية (الملأ)، الذي عملت في مجمل تحركاتها على مصادرة الحقوق كلها من شخصية البطل ومن غيره، بفعل هيمنتها وقوتها في السلطة، وهو عين الجرأة والاعتداء الذي نفذته هذه الشخصية في مصادرة حقوق الآخرين – لا فقط ما وقع على الشخصية الرئيسة – وإجبارهم على ما يكرهون ومن ثم إن تطلب الأمر فإنها لا تتوانى شخصية الملأ في إزالة من يعارضها من الوجود بعد المصادرة.[3]

إن أية حركة ونشاط لدى الشخصية لابد وله مقومات تتحرك الشخصية من خلالها لتبني لها أرضيةً صلبة تُحكم فيها حركتها وأدوارها، ومن جماليات القصص القرآني أنه بيَّن ما للمكان من دور فعال في تحركات الشخصيات، ليركز على مدى قابلية الشخصيات أولاً، وليُبرز الصورة الفنية وجمالية الأثر الذي يتركه المكان على تصرفات الشخصيات. وهذا ما أوجده السرد القرآني عندما اهتم بالمنطلقات الثقافية للشخصية أثناء وجودها في مكان معين، وعندما سلط الضوء عليها في تداخل حياتها ونشاطها في مكان دون آخر.[4] والأمر ينطبق على شخصية الملأ عندما كانت تتحرك على وفق مكانها الطبيعي (القصور) والأماكن الخاصة، وقربها من القوة الحاكمة وسلطة القرار، لذلك كانت أغلب تحركاتها مبنيَّةً على ثقافةٍ معينة تفرضها تلك الأمكنة وبنيتها السائدة في إدارة الأمور، من هنا "تكمن علاقة الثقافة بالمكان في أنَّ الثقافات تُنتَج من خلال سلسلة من الأشكال والممارسات، مثبتة في الأماكن"[5]. وهذه الأشكال هي مَن تُحدد طبيعة تحركات الشخصيات، الأمر الذي يتطلب من الشخصية مراعاة الأجواء السائدة في

(١) سورة المؤمنون: ٣٣.

(٢) سورة الأعراف: ٩٠.

(٣) ينظر: جماليات التلقي في السرد القرآني، ١٣٩-١٤٠.

(٤) ينظر: م. ن. ١٧٠.

(٥) م. ن. ١٧٠.

المكان الذي هي تتحرك فيه، وهذا يُظهر كيف كانت الشخصية الجماعية تتصارع مع نفسها في أدوارها عند إبراز أفعال محددة قد تناقض أحياناً حتى نفسها؛ لتصل إلى أجواء الحدث المطلوب وتتقنه في تلك الأماكن، كما يُقال لكلِّ مقام مقال.

ثانياً: شخصية السَّحـرة

شخصية (جماعية) ثانوية مثَّلت طبقةً ذات نسقٍ موحدٍ تسير بعملها نحو الغلبة وإثبات قدراتها المتفردة والخارقة بما لديها من العلم بفنون الخداع والتضليل، وكذلك شدة فطنتها وتلاعبها في قلب الحقائق بالسحر، لذلك وُصِف بأنه بيان مع الفطنة البالغة التي تُدهَش لها العيون فتَنْسحر.[١] وأبلغ ما يكون فيه هو أنه شيءٌ يعمل على قلب الحقائق وصرفها حتى تبدو للعيان كأنها هي الأصح من حقيقتها بعد صرفها عنها بالخديعة.[٢] أي: اكساب الشيء وجهةً غير وجهته التي وُضِعت له. وعلى هذا النحو من المعاني والدلالات نستشفُّ منذ الحركات الأولى لهذه الشخصية أنها شخصيةٌ مولعةٌ بقلب الحقائق وتزييفها، وهي بعدُ شخصيةٌ تمتلك من العلم ما يؤهلها أن تكون قادرةً على مواجهةِ كثيرٍ من الشخصيات التي تتحرك حولها، وهذا الأمر يجعلها شخصيةً لديها رصيدٌ وكمٌ هائلٌ من المعلومات التي تواجه به خصومها.

وجديرٌ بالذكر أنَّ هذه شخصيةٌ تحكمت بها ومنذ حركتها الأولى، دوافعها المادية والمعنوية التي اشترطتها لأداء ما أُريدَ منها، قال ﷻ: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾[٣]. فهم أرادوا عدم ضياع مكانتهم، والحفاظ على ما لديهم علم، فضلاً عما يحصلون عليه من العطايا والمال، بل أكثر من ذلك، هو أن يُجعلَ لهم عطاء دائم وقرب منزلةٍ لا ينالها غيرهم.[٤] لذلك كانت حركتها هذه حرصاً منها لتضمِنَ كلَّ ما تطمح إليه، ما حفزها على تحركها وأداء أفعالها بكل مهارة وإتقانٍ. وقد حصل أن تحركت الشخصية باتجاهين، فتعاملت بحسب ما

(١) ينظر: العين، ١٣٥/٣، لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ)، ط٣، الناشر: دار صادر- بيروت، ١٤١٤هـ، ٣٤٨/٤، تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، د. ط، الناشر: دار الهداية ٥١٤/١١.

(٢) ينظر: لسان العرب، ٣٤٨/٤، تاج العروس،٥١٦/١١-٥١٧.

(٣) سورة الأعراف، ١١٣.

(٤) ينظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن- تفسير البغوي، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى: ٥١٠هـ)، حققه وخرج أحاديثه: محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرشدار، ط٤، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م، ٢٦٤/٣، الكشاف، ١٣٩/٢، البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)، تح: صدقي محمد جميل، د.ط، دار الفكر-بيروت،١٤٢٠هـ، ١٣٢/٥.

أُلقي عليها من أحداث مع شخصيتين متعاكستين في آن واحد، شخصية ثانوية أُخرى (فرعون)، وشخصية البطل (موسىعليه السلام)، فكان الحوار سيد الموقفين والحركتين.

إنَّ الحوار تقنيةٌ فعالة في كشف كثير من الملابسات والأحداث التي تقع بين الشخصيات، خاصةً ما يقع بين الشخصيات الإيجابية والسلبية من صراع، وهنا وقع التحرك أولاً بين شخصيات كلها سلبية (السحرة وفرعون)، كما مرَّ في النص المذكور آنفاً ، إذ كشف نتيجة اللقاء عن مطالب الشخصية الجماعية، وكيف كان شرطها على خوض غمار التحدي مع الشخصية الرئيسة، إلى أن انتهى الاتفاق بينهما بموافقة الشخصية الداعية للتحدي بالقبول على طلباتهم المتعددة، قالﷻ: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾[1]. ذلك الحدث الذي بيَّن الحالة النفسية للشخصية المتحدية (فرعون) وأنه كان وجِلاً من الهزيمة الممكنة، فأعطى الشخصية فوق ما رغبت به، قال تعالى:﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾[2]، فدلَّ موقف الشخصيتين على ضعف واحتياج فرعون لغيره، وهو يدعي أنه الرب الأعلى، فجاءت الشخصية الجماعية هذه لتكشف كلَّ تلك المعلومات بحركتها عن طريق الحوار الذي هو أسلوب من "أساليب القول، هو الذي يعتمد عليه فن القصص، في خلق الحركة وتلوينها وتنويعها"[3]. وبه تتمُّ حركة الشخصيات وتغيرات أحوالها ومواقفها خلال الأحداث، كما أن الحركة تشمل البعدين المادي والمعنوي داخل القصة، فلا تقتصر على تغيير الأماكن وغيرها، بل تعتمد أيضاً حركات الخواطر والعواطف وما يتصل بالحياة والمجتمع مادياً ومعنوياً.[4] فكان الحوار مولِّداً لكلِّ تلك الحركات لدى الشخصية، وهي في الوقت نفسه تضيء شخصية البطل مع دورها السلبي عليه، لأنها كانت تعمل بشتى الطرق لفوز وغلبة (فرعون) الشخصية المعاندة للبطل والكافرة بالحق، فبان من جهةٍ خوفُ فرعون من موسىعليه السلام لذلك هو استعان بهم أي: السحرة، ومن جهةٍ أُخرى عِلْمُ هؤلاء السحرة بما كان يجول في نفس فرعون من حرجٍ أمام الملأ والناس، فكان مضطرباً لا استقرار لحالته النفسية والفكرية، ولذلك تلمست الشخصية الجماعية وأحسَّت منذ بداية الدعوة لها أنَّ "في مبادرة فرعون لهم بالوعد والتقريب منه دليل على شدة اضطراره لهم وإنهم كانوا عالمين بأنه عاجز ولذلك احتاج إلى

(١) سورة الأعراف، ١١٤.

(٢) سورة الأعراف، ١١٤.

(٣) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ١١٩.

(٤) ينظر: م. ن، ١١٩.

السحرة في دفع موسى عليه السلام"[١]. هنا وقع الشرط منها بعد حصول العلم لديها بضعفه في تلك الحال، والأمر ليس كذلك في فرعون المتجبر الذي يقهر أيَّ أحد لو شاء ومتى شاء، وهو المجرب لديها في كثير من الأمور، وعلى هذا التحليل والاستدراك اللذين قامت بهما الشخصية تبيَّن للقارئ مدى حذاقة الشخصية واستغلالها الفرص والمواقف داخل الأحداث وهي تسير بين الشخصيات المتصارعة، وكلُّ هذه التحولات والتغيُّرات في المواقف قد أحصاها الحوار بجريانه بينهم. ولِمَ لا وهو الذي تكمن أهميته في تقديم أيةِ شخصية تقع أمامه، فيجسدها بالعرض والإخبار ليقدم معرفةً كافيةً عن الشخصيات، فضلاً عن تسليط الضوء على الخبايا النفسية للشخصية التي قليلاً ما تبوح بها نفوس الشخصيات، وهو بهذه الوضعية المعرفية يبيُّن كثيراً من المعلومات والأفكار التي تحملها الشخصيات أولاً، ثم يوضح معلومات القصة في أغلب تفصيلاتها المخبوءة ثانياً، لما له من الحيوية والطاقة الاستيعابية التي تنطوي على قدر كبير وغني من تلك المعلومات التي تبني البنى الثقافية والفكرية والفنية لدى المتلقين[٢]، وتوسع من ذهنيتهم في احتمال دلالات أعمق حول الأحداث، وبحسب الوضع الاجتماعي السائد في تلك الأحداث وتأثيره في النفوس، ليؤكد البعدَ الاجتماعي الذي كانت عليه تلك الشخصيات، وهو بُعدٌ ماديٌّ بحت، رسمته حركة الشخصية الأُولى عند مطالبتها بالأجر المجزي لتقديم خدماتها، وكلُّ ذلك من أجل "إكسابهم منزلة اجتماعية تليق بهم"[٣]. وأيضاً في ذلك الطلب الصادر من الشخصية الجماعية توجد التفاتةٌ فنيةٌ دقيقةٌ تتوضح بها بعض جزئيات صفات النفوس عندما تكون على علمٍ بما يفتقر إليه الآخرون فتأتي على شكل تكبر وعلوٍّ، أو هو كما "يحصل للعالم بالشيء من الترفع على من يحتاج إليه وعلى من لا يعلم مثل علمه"[٤]، وهو شعور لا تبوح به النفوس علناً، ولكن يُترجمه سلوكُ الشخصية عند تحركها، فتبدو هنا من الشخصية الثانوية خلال نشاطها إنارتان أو إضاءتان، الأُولى هي إضاءةٌ لمن عملت لأجله لتسانده، والأُخرى على نفسها لتتكشف لنا بعض أسرارها المخفية في سمات سلوكها وانتقالتها.

(١) البحر المحيط في التفسير، ١٣٣/٥.

(٢) ينظر: جماليات التلقي في السرد القرآني، ٧٦-٧٧، ٨٢-٨٣.

(٣) قصص القرآن الكريم دلالياً وجمالياً، ١٩٩/١.

(٤) البحر المحيط في التفسير، ١٣٢/٥.

إن طبائع الشخصيات وإن اختلفت فيما بينها، لكنها لابد ولها ما يميزها حين تتحرك الشخصية، أو تأخذ بالتطور مع أحداثها فتُبرز جُلَّ صفاتها. وعندما كانت الشخصية الجماعية تتحرك وتحاور شخصيات متعددة، وقعت أقوالٌ كثيرة بينها عن طريق هذا الحوار الذي هو "تبادل الكلام بين اثنين أو أكثر. [فضلاً عن أنه] نمط تواصل: إذ يتبادل ويتعاقب الأشخاص، على الإرسال والتلقي"(١). وهذا الالتقاء والكلام والتبادل بين الشخصيات لا يخلو من أشكال وحركات معينة "مع ما يصحب هذه الأقوال من هيئات وإيماءات وحركات وكل ما يخبر عن ظروف التواصل"(٢). التي تميز أفعال الشخصية وتوجهها حين القول، حتى يفهم الطرف المقابل أو المتبادل عملية الرد كيف تكون. وهذا العنصر يُفصح عن طبيعة العلاقة بين الأطراف المتحاورة، وما هي نقاط الالتقاء أو الاختلاف فيما بينهم للتوصل إلى الرؤية الأهم التي تدور حولها أغلب التوجهات الاساسية للشخصية، وهي رؤية العالم.(٣) التي تنتهي بتحديد النقاط المهمة والأساسية – اجتماعياً وتاريخياً ونفسياً – التي تتحاور عليها الشخصيات للتوصل إلى نتيجة مقنعةٍ تدحض القول الضعيف وتُظهر سلبيته.

وعلى أية حال فإن الحوار في أغلب صوره يكون أنماطاً بحسب الأدوات اللغوية المستعملة حوارياً، وطبيعة العلاقات بين الشخصيات المتجادلة، فعندما تكون إحدى الشخصيات جاهلةً والأُخرى عالمةً؛ يقع على العالمة تعليم الجاهلة بما تقتضيه طبيعة السؤال ونوع الحدث المترتب عليه.(٤) وهو كما حدث من كلام موسى عليه السلام مع فرعون حين بدأ يسأله، قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾(٥). فبهذا الرسم لعلاقة الشخصيات مع بعضها بالقول والتبادل بين طرفين مختلفين في العلم سمي الحوار تعليمياً. أما إذا حصل وأن وقع الحوار متكافئاً بين الشخصيات، وقد امتلك كلٌّ منها حججه وأدلته – ولو ظاهراً بالجدل – كما جاء في قول الشخصية الجماعية في قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ

(١) معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، ٧٨.

(٢) معجم السرديات، ١٥٩.

(٣) ينظر: م. ن ، ١٦٠.

(٤) ينظر: م. ن، ١٦٠.

(٥) سورة طه، ٤٩-٥٣.

نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾[١]. وقوله تعالى:﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾[٢] فاندفعت الشخصية بعرض ما عندها من قوة ودليل، قال ﷻ: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾[٣] فعلى الشخصية الأُخرى الرد بقوة الدليل والبينة؛ لكسر شوكة الطرف الآخر، وإبطال مدعياته. وهنا بالفعل جاء الرد مباشرةً بالتفنيد والتكذيب، وقرع الحجة بحجة أعظم وأرقى منها، قال ﷻ: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[٤]. فتلقت الشخصية المعاندة رداً قوياً بالقول أولاً، ثم جاء الرد الآخر بالفعل تنكيلاً بالشخصية وعملها، ولِما سحِرت به أعين الناس لينتبهوا أنه باطلٌ ما رأوه، قال ﷻ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾[٥]. فكانت الحجة هي الفيصل بإثبات وإقناع الطرف المقابل، لذا دُحِضت الشخصية الجماعية من قبل شخصية البطل. وقد كانت المواقف جدليةً انتهت بترجيح الحجة والدليل في ضوء العلاقة المتبادلة بين الشخصيتين، وهو ما يُعرف بالحوار الجدلي بين الشخصيات المتحاورة.[٦]

إن الأحداث الجدلية بأدلتها المقدمة التي جرت وتحركت بها الشخصية الجماعية بأُسلوبها الخاص، كشفت عن بنيتها المتكاملة في علم السحر، وأنها شخصية قادرة على التحرك بأي اتجاه عن طريق المعرفة التي امتلكتها في التعلم المتواصل، وهو ما أعطاها قوةً وعمقاً في عرض الأدلة التي تتحرك بها وتقدمها. ولهذا العلم أثره في تنبه الشخصية وزيادة معرفتها بمجريات الحقائق، وأنها ليست جاهلةً كي تُعاند أو تسخر كما سَخِرَ فرعون، لأنها تعي أنَّ الأدلة تكشف الحقائق، فتتحرك الأفكار مباشرةً لدى الشخصية الأُخرى لمعالجة الأمور. فتكون الأفكار في ذهن الشخصية واضحةً وجليَّةً أكثر، ومهمة في فهم المواقف، لأن الشخصية المتحاورة ستعرف ما هو الهدف المقصود الذي يقف خلف الموضوع من خلال الحوار الذي أرسل لها الإشارات الكافية لتحريك أفكارها وإعمالها، حتى أدخلها بما هو أشبه بالمونولوج

(١) سورة الأعراف، ١١٥.

(٢) سورة يونس، ٨٠.

(٣) سورة الأعراف، ١١٦.

(٤) سورة يونس، ٨١.

(٥) سورة الأعراف، ١١٧- ١١٩.

(٦) ينظر: معجم السرديات، ١٦٠.

الداخلي لِيُنيرَ بصيرتها ويحفزها على فهم الواقع بوضوح.[١] وهنا يستشعر القارئ ما آلت إليه حال هذه الشخصية من شعور داخلي شديد الوقع والأثر عليها، مما جعلها قابلةً للرجوع عن رأيها وعزمها السلبي، فضلاً عن توجهها نحو الإيجاب مباشرةً بعد وقوع الأدلة أمامها، فلانت وخضعت لشخصية البطل الرئيس موسىعليه السلام فجاء خضوعها الكلي للبطل، وجرى من أعماقها لسان حالها، قالﷻ: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾[٢]. وهو دليلُ حصولِ تطورٍ سريعٍ لدى الشخصية، أثبتتهُ حركتها المفاجئة ونموها المتسارع مع الأحداث، فكأنها – ولسرعة استجابتها– أُلقيت إلقاءً شديداً لا مجال للتأني فيه أو التفكر أكثر، إذ يرى الأخفش(ت: ٢١٥هـ) أنها من سرعة السجود كأنها أُلقيت عليه، ولِتَحَرُّك عواطفها ومشاعرها، واهتزاز عقلها خرَّت بشعور ويقين بيِّن ساجدةً للهﷻ، ولم تتمالك نفسها وحالها إيماناً منها[٣]، نَبَعَ من داخلها فغيَّرَ أحوالها، وأكد وعيها الآني بصحة ما رأت من دليل، وواقع أوضح مما كانت عليه سابقاَ؛ لذا تأسَّسَت بنيتها الفكرية الجديدة التي تكونت بفعل حركتها النامية المتطورة بسرعة نحو دلالات أعماق الروح، وتعديل سمات النفوس، والخروج من حال معينة إلى واقع أجلى وأكثر وضوحاً.

إن التجلي والوضوح مهمٌ بالنسبة للشخصية، فبتغيير الأفكار وزيادة المعرفة بالحقائق، دفعٌ نحو دخول الشخصية عوالمها الجديدة التي تؤسسُ بها بنيتها الخاصة، وتبني تكوينها المناسب الذي يُحيط بها ويناسب حركتها مع الأحداث، ويرسم شخصيتها رسماً مباشراً ليعبر عن ذاتها وخصائصها الجديدة، لأنها بالتجلي الروحي تصل إلى أعماق الواقع وتسبر أغواره البعيدة، وصولاً إلى المعنى الحقيقي للأحداث، عندها تُدرك الشخصية حقيقة الأشياء، فتتحقق تجليات الروح الملهِمةُ فجأةً بطريقةٍ رمزيةٍ[٤]، مِلؤها المعاني والدلالات الواقعية التي تجعل الشخصيةَ قابلةً للبوح والاعتراف عما في داخلها بصدقٍ ومن دون حجاب يستر ما خفي منها عن الآخرين، تعلُّقاً منها بما رأت وأدركت فآمنت، وبلا تحفظٍ يُرهِبُ شخصيتها أو يُضعِفُ عزيمتها. وهذا الأمر قد حصل لشخصية السحرة (الجماعية) التي تفهمت الحقيقة بنفسها، فألقت نفسها ساجدةً

(١) ينظر: المعجم المفصل في الأدب، ٣٨٥/١.

(٢) سورة الأعراف، ١٢٠-١٢٢.

(٣) ينظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن، ٢٦٦/٣، الكشاف، ١٤١/٢، البحر المحيط في التفسير، ١٣٩/٥.

(٤) ينظر: معجم المصطلحات الأدبية، إبراهيم فتحي، ط١، مؤسسة التعاضدية العمالية للطباعة والنشر- صفاقس- الجمهورية التونسية، ١٩٨٨م، ٧٧.

مؤمنةً، ثم اعترفت بخطاياها وما أُكرهت عليه من قبل، قال ﷻ: ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[1]. وهنا وقع الاعتراف منهم بما كان في باطنهم مخفيًّاً ويُظهِرون غيره، وهذه صورةٌ جميلةٌ تتوضح عن الشخصية الجماعية كيف أتت راغبةً بالتحدي، ثم تبوح أنها مكرهةٌ!! وهم الَّذين عندما قرروا المواجهة "قد جاءوا مختارين يحلفون بعزة فرعون أن لهم الغلبة؟"[2]. فالصورة تكمن فيما جاء به النص الكريم من معنى في كلمة (خطايانا)، التي تدلُّ – ربما والله أعلم– على كثرة أعمالهم وأفعالهم التي قاموا بها قبل هذه الحادثة مع موسى عليه السلام، والحادثة هذه من ضمن الخطايا الكثيرة أيضاً، لذلك لم يقولوا (خطيئتنا) التي جئنا بها، وهي السحر لمواجهة موسى عليه السلام كي نقهره وننصر فرعون.

إذن فالشخصية هكذا كشفت مدى حركتها التي كانت تتحرك من خلالها مع مجموع الأحداث السابقة واللاحقة، إذ لم تقتصر تلك الحركات وذلك النشاط على حركة معينة أو محددة، مثل حركة التحدي مع موسى بالسحر، بل جاوزت بحركاتها حدوداً كثيرةً حتى غدت شخصيةً متطورةً ناميةً بسرعة الأحداث وتطورها، فضلاً عن تنوعها لتتلون الشخصية وتتكيف مع جميع تلك الأحداث والمواقف.

ومهما يكن من أمر، فالسحرة اعترفوا اعتراف شخصية واحدةٍ بأنهم ما كانوا على صواب من قبل، وهذا الاعتراف يُعدُّ تحولاً بالشخصية مرَّت به من خلال مرحلة الأدوار التي واكبتها وعاشت معها، فتلوَّنت شخصيتها بكثرة الأحداث وتداخلها حتى انتهت إلى ما انتهت إليه، شخصيةً منقلبةً تركت ماضياً وأحداثاً معقدةً بالآراء، واتجهت إلى مجال رحبٍ سمحٍ أباح لها أن تصل إلى الاعتراف والرجوع للشعور الواقعي بروحها ومعرفة كنهها؛ لأن الاعتراف مجال واسع يفتح للشخصية أبواباً كثيرةً، يجعلها تعيش التعبير الوجداني الجميل والصادق، الذي تُفضِي به الروح من خلال إقرارها وإفراغ حملها المتراكم عليها.[3] وهو ترويحٌ عن النفس، وتخليصٌ لها مما وقع عليها خلال الزمن الذي مرَّ عليها، إذ هو تحولٌ عظيم وكبير حصل للشخصية لم تعهده من قبل، فأخذ الزمن أيضاً أخذ صورته المتحولة مع تحول الشخصية الجماعية هذه، حين انتقلت من حال إلى حال أُخرى، وموافقةً لها فقد تغير نوع الزمن أيضاً، من زمن الكفر والعناد

(١) سورة طه، ٧٣.

(٢) معالم التنزيل في تفسير القرآن، ٢٨٥/٥.

(٣) ينظر: المعجم المفصل في الأدب، ١٠٩/١.

لديها إلى زمن الهداية والرشاد وفتح آفاق الشخصية حول الواقع الحقيقي، فكأنهم كما يُقال قد "سجدوا موافقة لموسى وهارون فإنهما سجدا لله شكرا على وقوع الحق فوافقوهما . . . [فبدأ الزمن هنا يتغيَّرُ ويأخذ جماله بالنسبة لهم وللحدث من حالة الشدة والضيق التي أُكرهوا عليها، إلى سعادة الهدى والنور الجديد، إذ] كانوا أول النهار كفارا سحرة وفي آخره شهداء بررة"(١). ذلك الزمن الذاتي الذي وقع تحت وطأة الحدث فغيَّره، وهو الزمن الذي أُطلق عليه بـ (الزمن النفسي)، وله تنبَّه العرب فعرفوه بحالته التي يكون فيها مدةً زمنية معينة بكينونته الزمنية التي لا تساوي إلا نفسها، غير أن الذات بتجلياتها وحالاتها المتغيرة هي من تغير المعتاد من الزمن إلى حال أُخرى، كما في تحويل الزمن الطويل قصيراً عندما تعيش الشخصية سعيدةً ببهجةٍ وراحةٍ تشعر وكأنها حققت انتصاراً عظيماً لذاتها تتمنى أن يدوم ولا ينتهي، لكنها تحسه قصيراً لا يسع سعادتها.(٢) فالتغير والتطور للزمن عند الشخصية حتى وإن كان طويلاً لا يعني شيئاً كبيراً مستمراً؛ لأنه زمن قصيرٌ بنظرها قد يحدده الحدث بالتغير أو الثبوت كما هو، وهو لا يساوي الحدث وقعاً على النفوس إلا بقدر ما يتركه الحدث من آثار على نفس الشخصية حين يُغيرها، لذلك قيل عنه في قولهﷻ: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾(٣). أنه لا يعني زمناً محدداً بعينه*، بل هو ما يتركه من الحال المتغير على الإنسان، فيكون طويلاً على الكافر لسوء حالته، لكنك تراه – أو يراه المؤمنُ – زمناً قصيراً كصلاةٍ في الدنيا، وهو عليه بمدة كمدةِ ما بين صلاة الظهر والعصر، فتكون استطالته بناءً على شدة الحال، وقصره معقوداً بيسر الحال وراحته على النفس.(٤) وهذا هو عين التأويل النفسي للزمن داخل القص؛ لأنه لا يمكن تحديده بدقة، كما لا يمكن التكهن بماهية الزمن كيف تكون، لأنه لا يلتزم بالرتابة والوحدة، وإلى الضبابية أقرب.(٥)

(١) البحر المحيط، ١٣٩/٥.

(٢) ينظر: في نظرية الرواية، ١٧٦، ١٧٨.

(٣) سورة المعارج، ٤.

* ينظر: قوله تعالى:[السجدة:٥]، وقوله تعالى:[الحج:٤٧].

(٤) ينظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن، ٣٠٠/٦، الكشاف، ٦٠٩/٤.

(٥) ينظر: في نظرية الرواية، ١٧٩.

ثالثاً: شخصية إخوة يوسف عليه السلام

تكونت هذه الشخصية من اجتماع عدة مقومات في بنائها، وبسبب خصوصية الأحداث مع هذه الشخصية وتطورها، أصبح للزمن دور كبير في تسارع تلك الأحداث، فالشخصية الجماعية هذه تشكلت عبر تراتب الحدث وتناسقه مع المواقف المختلفة. وكما قيل أن الأحداث فيها كانت تسير على وفق حركة الزمن، وتنمو نمواً طبيعياً، وقد تجلى ذلك من خلال العواطف والأحاسيس النفسية لدى تلك العصبة من الإخوة تجاه شخصية البطل التي فاقتهم في كل شيء.(١)

أخذ عنصر الحوار لدى هذه الشخصية الثانوية في القصة عموماً، وحديث الإخوة خصوصاً مكاناً واسعاً منها، فقد ارتكز حديث الشخصية هنا على التعبير عن كل ما كان يجول في نفوس شخصيات الإخوة وظهر علناً، قال تعالى:﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(٢)، فكانت أول حركة للشخصية الحوار بينهم أفضل معبرٍ عن بواطن النفوس لديهم؛ لأنه ترجم الحالة النفسية والمشاعر حول الشخصية الرئيسة، وهذا ما لحظناه على الشخصية حين الحوار وما تمر به من حالة الحسد والضغينة تجاه البطل؛ لأن الحوار "يساعد على تصوير موقف معين في القصة، أو صراع عاطفي، أو حالة نفسية تمثل الخوف أو الكبت أو الغيرة"(٣). وللحوار وظائف أُخر أيضاً تخدم الشخصيات كثيراً في سير الأدوار أهمها تطوير الموضوع لأكثر من غرض داخل القصة، فضلاً عن تصوير الشخصية بدقة وتقديمها بشكل يتناسب والجو الذي تعيش خلاله فتقدم نتاجها داخل نسق الأحداث بوضوح.(٤) وهو ما جرى على لسان الشخصية في حديثها عن الشخصية الرئيسة بأول خطاب

(١) ينظر: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ٣٩٨.

(٢) سورة يوسف:٨.

(٣) فن كتابة القصة، ٩٥.

(٤) ينظر: م. ن، ٩٤- ٩٥، الحوار في القصة القرآنية "قصة موسى عليه السلام انموذجاً"، م. د. نبهان حسون السعدون، م.د. يوسف سليمان الطحان، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، مج: ٧، ع: ٤، ٢٠٠٨، ١١٨.

موجه منها وبحوار متبادل، قال﴿ﷻ﴾: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(١).

تكونت بنية الشخصية هنا من خلال نظرتها للواقع الاجتماعي الذي تعيش فيه، وهو وراثة النبوة أو الأمر فيما بعد، وهو أمر حدد تكوين وفكر الشخصية وتحركها لكسب المكانة الاجتماعية وسيادتها بوصفها عصبة موجودة لها الأولوية في إدارة الأمور، فلم يكن نظر الشخصية الى القيم والمبادئ، بل الى واقع اجتماعي تفرضه الطبقة أو الجماعة باتخاذ كل السبل للوصول إلى الغاية وحسب، من هنا بُني تحرك الشخصية باستخدام كل ما يُتاح لها للوصول إلى النتائج المطلوبة لديها، فالقتل أو الطرح أو الإبعاد وغيرها هو واحد عندها، الأهم هم خلو الحال والمكان لها وحدها لإنجاز أعمالها وتحركاتها المستقبلية، فقالت الشخصية أقوالاً وعملت أفعالاً متنوعة حددت بنيتها ودورها الذي قامت به، قال﴿ﷻ﴾: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾(٢)، وقوله﴿ﷻ﴾: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾(٣). وهنا يُلاحَظ التباين والاختلاف على تصرفات الشخصية وعدم استقرارها على أمر معين عند حركتها، وهو مؤشر على اضطراب الشخصية بسبب تداخل الأحداث وتسارعها، وضبابية النتيجة المجهولة كيف ستكون نتائجها؛ لذلك قدمت الشخصية كل ما بوسعها للتخلص من المأزق والعقدة الوقتية التي وقعت فيها خلال الأحداث، وهو دليل على عدم صدقها في الصلاح المزعوم الذي بيَّنته الآية الآنفة الذكر، فكان ما حملته تلك الشخصية من خصائص وصفات – الكبت والضغينة والحسد– قد جسدتها حركة أفعالها وهي تقصد ما تقوم به، وتستشعر الخطر المحدق بها بكل وعي وانتباه؛ فأثبتت مجموعَ صفاتها بحركة واحدة برزت منها فيما بعد بوضوح، قال﴿ﷻ﴾: ﴿وَشَرَوهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾(٤). وهنا تأكيد قصدهم الذي هو إبعاد يوسف﴿عليه السلام﴾ لا ثمنه البخس الذي

(١) سورة يوسف، ٨.

(٢) سورة يوسف، ٩.

(٣) سورة يوسف، ١٠.

(٤) سورة يوسف، ٢٠.

لا بركة فيه، إذ هو بيع بائس وخاسر بكل الموازين، والدراهم القليلة المنقوصة عمداً.[١] ولعل هذا البيع وهذا التعمد من قبل الشخصية إنما هو تعبير عن الحالة النفسية التي وصلت اليها الشخصية الثانوية من عدم الرغبة به بفعل الإغواء والحقد؛ لأن الواقع الاجتماعي في بعده الإنساني يعمل على إيجاد هكذا إغواء مستمرٍ لا يمكن تجنبه أو تلافيه مادامت الرغبة موجودة لدى البشر.[٢]

إن التناقض الذي أُصيبت به الشخصية الثانوية هنا، جعل منها شخصية متنوعة المزاج ومشوشة الأفكار، غائصةً بالعتمة وعدم البوح في أكثر تحركاتها المشبوهة والخفية، لذلك بعد الحدث الأكبر بدأت تختلق الأسباب والأشياء الكاذبة للخلاص من الأزمة التي وقعت فيها. والأمر هذا قد بيَّنه الدكتور البستاني عندما تكلم عن مجموعة الاقتراحات التي قدمها الإخوة حول هلاك يوسف عليه السلام فيما بينهم، على الرغم من عدم ذكر كل تفصيلات القصة الجزئية، وذلك لإمتاع المتلقي ومشاركته في كشف ما خفي من الأحداث داخل القصة، التي تُحقِّقُ جمالاً فنياً وإعجاباً يستذوقه المتلقون خلال سرد بعض الأحداث.[٣]

وعلى الرغم من الدسائس والمكائد التي وضعتها هذه الشخصية الثانوية (الإخوة)، فقد بدت بطريقة مباشرة خلال تعبيرها عن توجهاتها وطموحاتها الهادفة للسلطة والزعامة الدينية والدنيوية بعد الأب يعقوب عليه السلام، فكانت صفاتها عبر حركتها ترسم أبرز السمات والخصائص التي تمتعت بها، فكمية المعلومات الصادرة عنها، ونوعيتها دليل كافٍ عن رسم ملامح الشخصية بمراحل سيرها داخل القصة، فهي شخصية ذات طبائع متلونة هدفها خدمة نفسها ومصالحها بناءً على ما تميزت به من بنية حركية أنتجت مختلف أنواع السلوك .– الشر، والحسد، والعداوة وغيرها، في سبيل إشباع رغباتها غير المحدودة التي ساقتها باتجاه خطير وصل مرحلة القتل والنفي، وهو مرحلة تمثل أقصى مراحل طبائع النفوس والشخصيات المريضة لتحقيق مصالحها المختلفة، وتلك نظرة قائمة على تأثير مختلف الحياة الاجتماعية في الأفراد. ولا ننسى أن أساسيات هذه

(١) ينظر: التفسير الوسيط، ٢/ ٦٠٤- ٦٠٥، ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن، محمد بن عبد الواحد بن أبي هاشم، أبو عمر الزاهد المطرز الباوَرْدي، المعروف بغلام ثعلب (المتوفى: ٣٤٥هـ)، حققه وقدم له : محمد بن يعقوب التركستاني، ط١، مكتبة العلوم والحكم – السعودية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، ٢٧٣.

(٢) ينظر: الإله الخفي، ٧٩.

(٣) ينظر: قصص القرآن الكريم دلالياً وجمالياً، ٢٩٦/١-٢٩٧.

الشخصية كانت روحيةً تحمل القيم والمبادئ العليا بفطرتها؛ لأنها صدرت من وجود نبي اهتم بها، وهو أبوهم يعقوب عليه السلام، لكن ربط القيم الروحية بالعوارض الاجتماعية والاقتصادية، ينطوي على الحط من تلك القيم"[1]. ويبدو ذلك هو ما حدا بتلك الشخصية حتى انجرفت لما وقعت فيه من أحداث وقصص مضطربة، فتناست أصل تربيتها وانحدرت نحو مصالحها المختلفة التي أخذت تتحكم في مجمل سلوكياتها الداخلية والخارجية، وفي مقدمتها أوضاعها الاجتماعية المستقبلية كيف ستكون مع الوضع الجديد.

(١) البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، ١٣.

رابعاً: شخصية السيَّارة.

هم الشخصية الثانوية التي تكاد تكون جزءاً مهماً ومكملاً للأحداث التي سبقتها بها شخصية (الإخوة)، ولكن هي شخصية جماعية عملت بطريقة على العكس من سابقتها، لأنها ساندت البطل في إنجاح دوره، وإن كانت في حساباتها قد حصلت عليه غنيمةً أو ربحاً إضافياً لتجارتها، إلا إنها شخصية أدت بداية الأثر المهم الذي ساعد الشخصية الرئيسة على أداء مهامها التي أُنيطت بها بأكمل وجه بواسطة الانتقال من البيئة الأولى للبطل الى البيئة الجديدة وهي مصر، وإن كانت لا تعلم ما هو المنتظر من شخصية البطل.

يعد عنصر المكان العنصر الأبرز والآخر في تحركات الشخصيات، فانتقال الشخصية الرئيسة من مكان الى آخر صاحبه انتقال بعض الشخصيات الثانوية التي عملت على وفق هذا التغير في الأمكنة، وعلى تعدد الأدوار مع تغير الأحداث وتطورها. فالبيئة الجديدة غيرت كثيراً من ملامح الشخصيات الثانوية وأعطت لها صفات أُخر اختلفت عن سابقتها، وهو ما لحِظناه على الشخصيات السابقة فيما بعد، فشخصية الإخوة في الشام كان دورها مغايراً لما آلت إليه أحوالها في مصر.

إنَّ شخصيةً مثل السيارة ما كان لها أن تنجح بوصفها شخصية ثانوية لولا ما اكتسبته من مقومات النقل والمساعدة المؤثرة على سير حياة شخصية البطل، فنجاحها كان معقوداً بما يقدمه البطل فيما بعد، وإن كانت هي مَن ساعده على الوصول إلى ذلك المكان بتحملها أعباء سفره ونقله من مكان ضاق عليه إلى مكان إطلاق قدراته التي نجح بها شخصيةً رئيسةً لم تكن تتهيأ لها أسباب النجاح في تلك الأمكنة من البيئة، وهذا الانتقال ما كان لولا مساعدات هذه الشخصيات ووقوفها إلى جنب البطل حتى وإن كانت غايتها الأولى جني الربح من بيعه، فهي مهمة قامت بها هكذا شخصية بحسب ما وقع عليها من دور؛ لأن "مهمة البطل الثانوي– في أي شكل قصصي – تتمثل في إبراز هدف محدد، وفي إلقاء الضوء على الشخصية الرئيسية"[1]. ولكن دور السيارة هنا انتهى بالوصول الى مصر، إلا أنه كان دوراً بالغ الأهمية على الرغم من أن نص القصة طوى أكثر الأحداث التي وقعت بين الشخصية الرئيسة والشخصية الثانوية هذه،

(١) التفسير البنائي للقرآن الكريم للقرآن الكريم، ٣٢٩/٢.

وقام بنقلنا من مكان إلى آخر مباشرةً، فأُدخل القارئ بمصر؛ ليقوم المتلقي للقصة بفك الشفرات الكثيرة ويدخل للنص بوصفه عنصراً متلقياً، يساعد على إنارة النص ببعض الأفكار والتأويلات المناسبة، وهو أمر يدل على جمالية القصص القرآني واختزاله الأحداث الكثيرة لأغرض فنية وقصصية؛ دفعاً للملل أو السأم لدى القارئ، فضلاً عن الأغراض الأساسية التي جاء لأجلها هذا من جانب، ومن جانب آخر فالقرآن الكريم لم يأت لأمة معينة، ولا هو يُنظر إليه بنفس النظرة التي ننظر بها إليه، بل هو عند غيرنا من الأمم الأُخرى لا يحتفى به كحاله عند أمة الاسلام.

إن بعض الشخصيات الثانوية قد تكون مساعدةً أو مساندةً لشخصية البطل بحسب دورها، لكنه لا يُتاح لها جميعاً إنارة أو إضاءة وجه الشخصية الرئيسة بجلاء تام، وهو ما يبدو على دور شخصية السيارة العابر بقدر جوازها الطريق، بأنها قافلة مارة حملت الشخصية الرئيسة ليس إلا. وهنا يكمن الفرق بين هذا القصص والقصص الأرضي الذي تتدخل فيه ذائقة وريشة مبدعه التي قد تُعطي أدواراً لشخصيات ثانوية تفوق حتى شخصية البطل. وفي هذه القصة برغم أهمية تلك الشخصيات فإن النص القصصي أعطى كلَّ شخصية قدْرها وحجمها المناسب من دون أي تدخل مخل.[١]

تبرز صفة الجماعية في هذه الشخصية بوضوح، ولتساوي الأفكار الجماعية في أغلب الأحيان في المجتمع – خصوصاً عند الطبقات الاقتصادية – يُلحظ على بنية شخصية (السيارة) البناء المادي الربحي الذي في ضوئه انبنت شخصيتها وبها تحركت فرسمت خطوطها العامة، لذلك فإن الناظر لحركة الشخصية في النص يجد أنها هكذا بُنيت من أول خطاب جرى في حوارها الذي ركز قبل كل شيء على قول واردهم (يا بُشرى)، كما جاء في قوله ﷻ: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[٢]، والبشرى هنا دلت على الفرح والسرور وغيرهما. يقول الليث: و(البِشَارَةُ: مَا بُشِّرتَ بِهِ، والبشيرُ: الَّذِي يُبشِّرُ الْقَوْم بأَمرٍ خيرٍ أَو شَرّ، والبُشَارَةُ: حَقٌّ مَا يُعطَى من ذَلِك)[٣].

(١) ينظر: التفسير البنائي للقرآن الكريم للقرآن الكريم، ٣٢٩/٢.

(٢) سورة يوسف، ١٩.

(٣) تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ)، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط١، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ٢٠٠١م، ٢٤٦/١١.

يبدو أن البشارة بالذَّكَرِ أكثر فرحاً من غيره، لأن الذكر أوفر حظاً من الأُنثى وأعزُّ مكانةً دوماً على ما ينظرون، لما فيه من شتى المكاسب، وهنا دليل واضح على قصد البشارة هو الربح، مع حسن المكسب من المال أيضاً. بدليل قولهﷻ: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾. حيث يُلحظ اتجاه واهتمام الشخصية مباشرةً وقع على وجود الربح وقيمته ونوعه، إذ إن أول ما عبر به أحد أطراف الشخصية بحركتها ناطقةً من حيث لا تشعر هو القول ﴿يَا بُشْرَى هَذَا غُلامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾. فهم رأوا فيه تجارةً مربحةً على حسب منطوقهم التجاري الربحي، فكان اهتمامهم به على قدر ربحهم، وهذه هي عادة أهل التجارة.[1] والتجارة قائمة على ذلك بحسب بنية التفكير الاقتصادية لدى هؤلاء، لذلك يكون كلام الوارد على حسب التفكير الجمعي والبنية العقلية التي يتمتع بها أفراد القافلة الذاهبة لأجل البيع. وهو ما أشار إليه (كولدمان) من اجتماع أفراد طبقة ما على حسب نسق معين يتساوون به جميعهم تقريباً، من خلال بنية التفكير، والرؤية الواحدة تجاه شيء ما، كما هي الحال في بنية النسق الاقتصادي مثلاً، أو الديني وهكذا.[2]

(١) ينظر: صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، ط١، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م، ٣٩/٢، التفسير الواضح، الحجازي محمد محمود، ط١٠، دار الجيل الجديد – بيروت، ١٤١٣هـ، ١٦٧/٢.

(٢) شعر أبي تمام دراسة بنيوية تكوينية، إيناس كاظم شنبارة، إشراف: أ.د. عباس محمد رضا، جامعة بابل – كلية التربية، ٢٠١٧م، ٢١٩.

خامساً: شخصية النسوة(نسوةٌ في المدينة).

مرَّت على الشخصية الرئيسة (النبي يوسف عليه السلام) مختلف الشخصيات، فكان للشخصيات الثانوية الجماعية حظٌ واسعٌ وسلبي عليه أول الأمر، ولعل هذا الأمر يرسم لنا صورة كليةً تحكي مجمل القصة بما دارت وكأنها حدثٌ واحد عنوانه (المؤامرة).

لقد تحركت هذه الشخصية الثانوية النسائية الجديدة (الجماعية) من أول حدث لها بصورة مجموعات نزعت نحو الشر ونسج المكائد للإيقاع بشخصية البطل، وكان تحركها على حسب أدوار متنوعة ومتتالية قامت بها للوصول إلى الهدف المقصود، أو ربما الذي طُلِب منها، وهو ما يُستشف من أول كلمة وردت في الآية وهو قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[1]، إذ جاءت كلمة (وقال) بلفظ المذكر وأن القول هو لنسوةٍ تكلمن، وهو أول حدث وانجاز قامت به الشخصية لخصه هذا الفعل؛ للوصول إلى غايات كثيرة.

لاشك في أن هذه الشخصية كانت متشابهة من نواحٍ عدة مع الشخصية الثانوية التي سبقتها، فهي وإن كانت جماعية لكنها تتفق معها بأنها شخصية نسوية شبيهة لها وتتمتع بأغلب الصفات والحركات من غرائز ومشاعر، فضلاً عن أنها زادت عليها بأنها شخصية متهتكة سارت فاضحةً للمستور وعملت على إشاعة ما خفي عن الناس وإن كانت لم تشهده. ولم تُحدد أو تُقيّد أدوار هذه الشخصية داخل أماكن معينة كبعض البيوت أو الجلسات، وأشار بعض المفسرين عندما حددوا صنف النسوة بعدد قليل من النساء مثل مرأة الساقي والخباز وغيرهما، أو نساء القادة وبعض المتنفذين في الدولة، بل كانت متطورةً خرجت من السر إلى العلن، فلُوحِظ أن الفضيحة قد عمت أرجاء البلاد في أغلبها، إذ وصلت للخاصة والعامة معاً ومضت ناراً في الهشيم، حتى صارت حديث الشوارع والأزقة، فأخذ الخبر تتناقله جماعات جماعات. وقد أشار الزمخشري في حديثه عن (النسوة) بأنه تأنيثٌ غير حقيقي، إذ لم يُرد به نسوةٌ بعينهن؛ لأن قوله تعالى: ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾، قيل هي المدينة التي وقعت فيها الحادثة ويعنون مدينة طيبة، وقيل لا،

(١) سورة يوسف، ٣٠.

بل هي مدينة عين شمس، ثم توسعوا في الكلام عن النسوة فذهبوا إلى أنها هي مصر كلها.[١] ولعله كان يُقصَدُ ما شاع بين النساء وبين الرجال عموماً؛ لأن الخبر إذا أُريد له أن يُذاع أكثر يكون بوساطة أداة تُبرزه للخارج أكثر من دائرة البيوت المحدودة بعض الشيء، ومَنْ أحسن نشراً للخبر بعد النساء إلا الرجال؛ لذلك جاءت (قال) بالمذكر لتكون أكثر عموماً ونشراً لفضيحة زوج العزيز بين الجميع هكذا، وأفضل دليل على ذلك هو ماجاء في سياق القصة وفي ذات الحدث أيضاً على لسان شخصية ثانوية أُخرى، ربما تكون شخصية العزيز نفسه، أو هي شخصيةٌ قريبةٌ منه، أو شخصية ثانوية أُخرى، قالﷻ: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾[٢]. إذ نجد ذكره الخاطئين وهي امرأة مفردةٌ، ولكنه "لم يقل «من الخاطئات» لأن الخاطئين أعمّ"[٣]. فدل ذلك على كثرة شخصيات المتناقلات والمتناقلين، والمتقولات والمتقولين على وجه العموم لا الخصوص بعد ذياع الخبر.

بعد كلِّ ما مرَّ من أحداث، تتجسد أدوار هذه الشخصية بوضوح لا غبار عليه، من أنها شخصيات سريعةٌ في أداء وظائفها، ناميةٌ في حركتها نحو بلوغ الأحداث الجارية، غير محددة عملت في الخاصة وفي العامة على حدٍّ سواء بنشرها تفاصيل ما حدث من القصة، فهي إذن شخصية غير منغلقةٍ على نفسها، تُحبُّ الاختلاط ومسايرة الجميع على حسب منفعتها وحصولها على ما تريد، وتعمل بكلِّ جهدها لِتُسابق الأحداث بجرأتها ونشاطها الحثيث، فضلاً عن مُدخلات التأويلات والتشهير بكلتا الشخصيتين – أي الثانوية امرأة العزيز، والرئيسة يوسفعليه السلام– وهذا هو المعهود دائماً عند هكذا شخصيات متنقلةٍ تدور معها الأحداث حيث دارت أو وُجِدت، فهي شخصية تقدمت بسلبية فضيعة هاجمت فيها أطرافاً عدة، وهو مما حدا بالشخصية الرئيسة أيضاً على أن تُضطرَ إلى بيان وإيضاح ما جرى ووقع من أحداث جرت بينه وبين تلك الشخصيات لتنجو هذه الشخصية من شراك العقدة التي وقعت فيها لتصل إلى الحل، ولذلك فقد (أفصح يوسفعليه السلام بجرمها إذ ليس للفاسق حرمة يجب حفظها، فلم يبال أن هتك سترها فقال: ﴿هِيَ

(١) ينظر: الكشاف، ٤٦٢/٢، اللباب في علوم الكتاب، ٧٧/١١-٧٨، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (المتوفى: ٨٧٥هـ)، تح: الشيخ محمد علي معوض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، ط ١، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ١٤١٨هـ، ٣٢٢/٣.

(٢) سورة يوسف، ٢٩.

(٣) الجواهر الحسان في تفسير القرآن، ٣٢٢/٣.

راوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾)[1]. وهذا دليلٌ آخر يُعضِّدُ ما ذُكِر من دلالات وردت عن تلك الشخصية الجماعية (النسوة) على أن دلالة قولهﷻ: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾، تحتمل نسوة هذه المدينة أو تلك، وأنها تشتمل على النسوة وغير النسوة داخل المجتمع، ومن هنا تتكون أيضاً البنية الفكرية والثقافية لهذه الشخصية الثانوية عن طريق مختلف الأفكار التي دارت في نفسية كل هذه الشخصيات خلال حركتها وانبنائها مع الحدث، وأما إذا كانت هذه الشخصية فعلاً من نساء الأكابر والقادة آنذاك، فهذا مما لا شك فيه أنها تمتلك الواعي الكامل والممنهج الذي سوف يطيح بالشخصية المقابلة لها، وهذا الوعي هو الوعي القائم لديها الذي سوف تفرضه بحسب طبيعة تلك الأحداث ومساراتها المتشابكة، مما يحدو بها إلى أن تتحرك في اتجاهين مهمين، الأول يحكمه الجانب المادي والمكتسبات من هكذا قضايا تهز المجتمع والطبقات الأولى فيه، والآخر هو المكانة الاجتماعية التي تسير وراءها مختلف الطبقات الاجتماعية لتبرز كلُّ طبقةٍ أفضل من غيرها، لاسيما في طبقات مثل القادة والحكام وأهل السلطة التي تفضل أحقية وصحة . هنا ترجع القضية إلى المسألة الأساسية في حركة الشخصيات ضمن المنهج البنيوي التكويني، وهي حركتها وسلوكها الموحد الذي يميز كلَّ طبقة من غيرها، وإثبات مقومات كلِّ طبقة على حساب غيرها كأنها هي الحلُّ الأمثلُ في معالجة مشكلات الطبقات الأُخر.

إنَّ أهم ما يلحظ على جلِّ الشخصيات الثانوية أنها اعتمدت على طرق متنوعة في اظهار دورها وطبيعة عملها، فمثلاً اعتمادها القول وما ترتب عليه من انجاز قامت به الشخصية كان بارزاً؛ لأن القول بالحوار عبر الشخصيات يمثل أهمية كبرى وفعالة جداً، فعن طريقه يتم "الكشف عن أعماق الأبطال فيما لا يتاح لنا أن نحيط بخفاياها لولا هذا العنصر الفعال والحيوي في القصة"[2]، فالحوار وغيره من العناصر الأُخر سيُكوِّن بناء القصص القرآني ويُبرز ما خفي من معانٍ جمالية وفكرية فيه تحتملها بنية القصة وسياقها العام أو الخاص الذي يرسم المعنى الداخلي والخارجي للقصص عبر شخصياته المتعددة.

(١) لطائف الإشارات "تفسير القشيري"، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفى: ٤٦٥هـ)، تحقيق: إبراهيم البسيوني، ط٣، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب مصر - القاهرة، ١٨١/٢.

(٢) قصص القرآن الكريم دلالياً وجمالياً، ٢١/١.

الفصل الثاني

الشخصيات الثانوية الحاكمة

المبحث الأول: شخصية الملك

المبحث الثاني: شخصية العزيز

المبحث الثالث: شخصية فرعون

المبحث الرابع: شخصية المرأة الحاكمة

مُدخـل:

يتناول هذا الفصل شخصيةً ثانويةً من نوع آخر، ألا وهي شخصية (الحاكم). هذه الشخصية التي يستشعرُ القارئ من دلالتها الأولى بأنه يُلامس شخصيةً لها نمطها الخاص الذي يميزها من كثيرٍ من الشخصيات الأُخر، فهي – فضلاً عن نمطيتها ونوعها الخاص – فإنها شخصية تحمل صفات تدل على القوة والجبروت لدى صاحبها، ممزوجة بسمات عديدة أبرزها يكون مصدرها الجبر والإكراه على أحكام يفرضها الحاكم، لأنه هو من يأمر بتنفيذ الحكم كيف يشاء بسطوته.[1] لذلك اكتسبت هذه الشخصية جُلَّ صفاتها من ذاتها المتجبرة المتعالية حتى كونتها شخصيةً على نحوٍ محددٍ من تلك الصفات، فرسمت سلوكياتها من خلالها.

(١) ينظر: لسان العرب، ٤١٩/١٠، ١٤٢/١٢.

المبحث الأول

شخصية الملك

تتحرك الشخصيات بمختلف أنواعها بحسب ما تمتلك من مؤهلات ونشاط يدل على طبيعة عملها. ولكن بعض الشخصيات تتميز بطريقة أدائها لأدوارها تبعاً لما امتلكته مسبقاً من صفات وسمات انمازت بها من سائر الشخصيات الأُخر، فألبستها حُلتها الخاصة بها، وهو ما وُجِد في شخصيات كبيرة وعظيمة، نحو شخصيات الملوك والكبراء وغيرهم. وبما أن شخصيةً مثل شخصية الملك تكون معروفةً لأغلب الناس، لأنها ذات مكانة وطابع يميزها بوضوح من بقية الشخصيات الأُخر – كما يبدو في شخصيات الروايات المصطنعة – لكن هذا الأمر لم نجد له إلزاماً في قصص القران الكريم.

تُبين لنا بعض النصوص أن شخصية الملك كثيراً ما جاءت بشكل غير مصرح بها، وهو ما يُلحظ على أول وأقدم شخصية ملِكٍ ذكرتها قصص القرآن الكريم، وهي ما جاء في قوله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[1]. فعدم ذكر اسمها لابد وله سببٌ معينٌ من تركها هكذا، لأن ترك بعض الشخصيات الكبيرة بحركتها وسلوكها – سلباً أو إيجاباً – لعله يولد وينمي لدى متلقيها إمكانية تكوين فكرةٍ ولو عامة عن طبيعة تلك الشخصية وتصرفاتها.[2] وهو ما تحتمله كثيرٌ من الشخصيات الكبيرة عند تحليل صفاتها المتعددة التي تُحكِم تصرفاتها.

وليس بالضرورة أن يكون إخفاء اسم الشخصية أو ملامحها تقليلاً من شأنها، أو تحقيراً لمواقفها فقط؛ لأن بعض الشخصيات تتحكم بها طبيعة المعلومات الواصلة عنها حتى تُعرف كما هي. فلا يعني أن الدارس لها يُريد فقط تحديد نوعها لأية شخصية تنتمي، أو أنها متى كانت مثلاً، بل ربما يكون الهدف الأساسي هو معرفة ملامحها المرجعية جيداً كما هي، كأن تكون الشخصية مرجعية أو شبه مرجعية مثلاً، وهو ما يميز بعدها وحركتها كيف كانت، وهل تتطابق

(١) سورة البقرة، ٢٥٨.

(٢) ينظر: قال الراوي، ٩٥.

معلوماتها مع طبيعة حركتها التي تقوم بها في عملها أثناء تأدية أدوارها، من هنا تتكشف جزئيات وتفاصيل حركة الشخصية للوصول إلى عوالمها التي تشرح لنا تفاصيل بعض ملامحها التي خُفيت عنا.[١] فيكون التاريخ بما جاء كتابةً أو شفوياً رافداً من روافد معلومات الشخصية، وهو ما أشارت إليه الجدلية التاريخية التي ترى أن التاريخ جزء مهم من محددات النصوص، ويدخل عنصرا أساسيا في فهمها، خاصة في المواقف التاريخية الأقلّ عدداً ووقوعاً خلال التاريخ، لأن الدراسات الجدلية في البحث التاريخي جديرةٌ بفحص الوقائع التاريخية، وهي صالحة للاستعمال عملياً في تحديد بعض المواقف الفردية لدى الشخصيات خلال سيرهم عندما تتعرض الشخصية للصراع مع شخصيات أُخر، فيكون التحليل الجدلي قائماً على مضمون النص وشكله، وعلى علاقته بتلك الوقائع الشاملة التي تحركت الشخصية ضمنها.[٢] لذلك لابد أن يكون إخفاء الشخصية قد دلَّ عليه دليلٌ آخر هو أبلغ من ذكر اسمها، وهو ما نجده ماثلاً في دلالته داخل النص في قولهﷻ: ﴿حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ﴾[٣]، الذي دارت عليه تلك النقطة الأساسية من الحوار بين الشحصيتين، من الخصومة والكفر على لسان جبار من جبابرة بابل وملوكها، وهو النمرود بن كنعان، أول ملك تجبر على الأرض بعد نوح عليه السلام، وهو من أحفاده الذي عُرفّ بصاحب الصرح ببابل، فكان بعد المُلكِ قد بطر وكفر بنعمةٍ أُعطيها لتكون عليه نقمةً بعد اختباره بها، فوقع الجهل منه ظناً بأنه أهل لذلك، ولا مالك يوجد سواه في هذا الكون.[٤]

بناءً على ما تقدم نستنتج أن تحرك الشخصية قد حصل على اعتبار شيءٍ كبير احرزته فتحركت، وهو الملك العظيم الذي لا يمكن لأي شخص الحصول عليه بيسر، وعلى هذا الأمر

(١) ينظر: قال الراوي، ٩٥-٩٦.

(٢) ينظر: الإله المحتجِب: دراسة عن الرؤية المأساوية في "الأفكار" لباسكال وفي مسرح راسين، تر: عزيزة أحمد سعيد، مراجعة: أنور مغيث، ط١، القاهرة- المركز القومي للترجمة، طبع بالهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ٢٠١٥م، ٣١٩-٣٢٢، السياق أنماطه وتطبيقاته في التعبير القرآني، م. د. خليل خلف بشير، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، مج: ٩، ع: ٢، ٢٠١٠، ص ٥٠-٥١، شعر أبي تمام دراسة بنيوية تكوينية، ٢٢.

(٣) سورة البقرة، ٢٥٨.

(٤) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، تح: أحمد محمد شاكر، ط١، الناشر: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، ٤٣٠/٥-٤٣١، التفسير الوسيط، ٣٧١/١، الكشاف، ٣٠٥/١، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ)، ط١، الناشر: دار الكتاب الإسلامي – القاهرة، ٤٩/٤.

بنت الشخصية أفكارها وشيدت أُولى بنياتها الحركية والعملية قياساً لما حولها من الشخصيات الأُخر.

إن الدوافع البشرية والنفسية لدى الشخصية الثانوية هنا، أدت دورها في تحديد صفاتها، وكان لما يعتريها من التفكير الداخلي النفسي – الذي لم يتطرق إليه النص؛ تجنباً للإطالة وتركيزاً على الحدث الأهم من أحداث القصة – الأثر الأكبر في رسم سمات الشخصية، ذلك التفكير الذي أعطاها الدفع الحركي نحو الأفعال وتنفيذها؛ لأن الدوافع هي "البواعث والأهداف التي تقود الشخصيات إلى إنجاز هذا الفعل أو ذاك. وتمنح القصة أحياناً تلويناً برَّاقاً شديد الخصوصية"[١]. فتكون أغلب أفعال الشخصيات بدوافع طبيعية محفزة تحددها في ذات الوقت طبيعة الشخصية وميولها، فضلاً عن بعض الدوافع التي بالإمكان عدَّها مُتعَمدةً تقع من الشخصية لفرض بعض إراداتها على الشخصيات الأُخر، بغية كسرها أو إجبارها على ما تريد وترغب فيه، كما في زيادة وظائف الإساءة وإيقاع الضرر بالشخصيات الأُخر، لاسيما الرئيسة منها.[٢] وهذا الأمر لا يكون فقط من صفات وسلوكيات المعتدي السيئة الخاصة به، بل هو أيضاً أمرٌ معكوسُ الصورة في بيان وإضاءة صفات الشخصية المقابلة التي أُخفيت صفاتها في بداية الحدث، من أجل التركيز على أهمية الحدث الأبرز للقصة، وهو بطرُ وكفرُ شخصيةِ المَلِك بعد المُلْكِ، فتكون الصفات الملكية السيئة للشخصية سبباً لبيان نور ونضج شخصية البطل في معالجة الأحداث وإدارتها بالشكل الصحيح، وهو من أبرز ما تقوم به الشخصيات الثانوية من أعمال تجاه الشخصيات الرئيسة؛ حرصاً منها على تأدية أدوارها ومهامها الوظيفية التي تشعر بها – داخلياً مع نفسها – ضرورية للرئيسة، ولكن بحالات متفاوتة يحكمها الحدث، وطبيعة كل شخصية رئيسة وما تتطلبه من مساندة منها.

لقد تجرعت شخصية البطل من هذه الشخصية ألوان العداء والخصومة، بسبب جهل الشخصية بصحة الاعتقاد واعتمادها أفكارها من جانب واحد، لأن هذا الملك جاوز حد التجبر والعلو في أفعاله، وبناءً على حالة الشخصية المتجبرة هذه، فقد ادعت الشخصية ما ليس فيها وهي تعلم ذلك جيداً، أو أننا نستشعر الغرور والكبر فيها الَّذَين أديا إلى تشوش أفكارها كي تدعي

(١) مورفولوجيا القصة، فلاديمير بروب، تر: د. عبدالكريم حسن، د. سميرة بن عمُّو، ط١، دار شراع للدراسات والنشر والتوزيع- دمشق، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، ٩٣.

(٢) ينظر: م. ن، ٩٣.

ما هو أكبر منها، وهو الربوبية والخلق مثل الإله، لذلك ادعت بلسانها، قال ﷻ: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾[1]، لنوايا أُخر تحسب لها الشخصية في معركتها مع الخصم، إذ حصل الانتقال والتغير في الشخصية، من استخدام القوة والعنف، إلى طريق المجادلة والمنطق، عبر حيلةٍ تنطلي على العامة من الناس، لإثبات بعض تلك النوايا لدى الشخصية وبلوغها بالتزييف والكذب.[2] وهذا الفعل وإن حصل من الشخصية للوصول إلى هدف ما، فهو لا يعني أنه علامةٌ ثابتةٌ في تحديد صفاتها الشخصية بأنه أساس انطلقت منه في تحركها، ولا هو مهمٌ في تحديد هويتها من خلال عملها – بوصفها إله – بشكل طبيعي ومعتاد عليه، وإنما فيما يترتب عليه في نظر شخصية البطل من أفعال تسعى إليها الشخصية في كسب مصالحها أولاً[3]، ولإضلال الناس واستغفالهم ثانياً؛ لأن "نوايا الشخصيات وإرادتها لا يمكن أن تكون علاماتٍ راسخةً في تحديدها"[4]. ومن ثم حصولها على هدفها الأهم والآني، وهو إلقاء الضرر على الشخصية الرئيسة، وكسر شخصيتها أمام جميع الشخصيات الأُخر.

إن عدم التكافؤ في الحوار والمحاججة بين الشخصيات، لا يعني أن تترك إحدى الشخصيات حوارها وأدلتها بسبب جهل* الشخصية المُجَادِلة لها. وهذا واضح من الحوار الخارجي الذي حصل بين إبراهيمعليه السلام والنمرود، إذ تعمدت الشخصية استعمال أُسلوب المغالطة

---

(١) سورة البقرة، ٢٥٨.

(٢) ينظر: القصص القرآنية مقتبس من تفسير الأمثل، ناصر مكارم الشيرازي و مشاركة مجموعة من العلماء، ط١، دار الكاتب – لندن، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، ٩٢.

(٣) ينظر: مورفولوجيا القصة، ٩٩.

(٤) م. ن، ٩٩.

* يرى بعض المفسرين والباحثين أن شخصية هذا الملك كانت جاهلةً، وموصوفة بالحماقة والبلادة والغباء، وأنها شخصيةٌ بلهاء تتصرف بحمق وانغلاق بالفكر. والحقيقة أن هذا لا ينطبق كُليّاً على شخصية مثل شخصية نمرود، لأنه مهما كانت الشخصية تتصرف بجهل، أو تحمل جهلاً في جانب معين من جوانب الفكر أو الحياة، فهذا لا يعني أنها تُوصف بهكذا أوصاف وتلازمها، فضلاً عن ذلك فشخصية الملك هذا كانت لها أفكار – حتى لو أنها كانت حيلاً منه – استدلالية دعَّم بها أدلته حين المحاججة، بل وأنه قد أوهم كثيراً من الناس فيها، فظنوا أنه على صواب في مناقشته، مما حدا إبراهم أن يتحول إلى حجةٍ أكثر وضوحاً وأجلى للعيان، علاوةً على ذلك فقد وُصِف نمرود في بعض مجادلاته بأنه ضليعٌ بالسفسطة وتقليب الآراء والحجج للتغلب على خصومه، فكيف يوصف بالغباء والبلادة! نعم بالإمكان وصف الشخصية بـ (انغلاق الفكر وحجره) وعدم التنور بالآراء المنفتحة، وهذا هو ديدن الملوك والسلاطين حين يُفسدوا في الأرض ويجعلوا أهلها شيعاً أو أذلةً خاسئين، ولكن أهم شيء في الشخصية، هو ما تقوم به من أدوار ووظائف، والنظر إلى ماذا فعلت لا ماذا قالت، وما هو الأثر الذي تركته حركتها أو فعلها حين تحركت. ينظر: تفسير الطبري، ٣٩/١٧، الكشاف، ٣٠٦/١، تشريح الدراما، ص ٤٢-٤٣، قصص القرآن الكريم دلالياً وجمالياً، ٨٦/١-٨٨.

في عرض الرأي والجدل بكلامها أنها هي أيضاً تُحيي وتُميت، فتقتل من تشاء وتُحيي من تشاء، ولكن بترك القتل وإيقاع القتل، وذلك اعتراضٌ على الشخصية الرئيسة بما تقول، وهو اعتراض قويٌ وعنيفٌ[١]، على ما جاءت وزعمت به شخصية البطل أنه مخصص بواحد لا غيره، وهنا حصل الانتقال السريع لدى الشخصية الرئيسة وترك الدليل الأول، لا لضعفه أو قوة الشخصية الثانوية في الأخذ والرد، بل كما قيل: أن "هذا دليل على جواز الانتقال للمجادل من حجة إلى حجة"[٢]. وأيضاً هو دليل آخرٌ يدلُّ على نباهة شخصية البطل في استعمال الكلام الأنجع والموفق في كلِّ المواقف التي تمرُّ بها الشخصية من دون أن تعصفَ بها الأحداث الجارية، أو تؤثر بها، كما هو الحال بالنسبة للشخصية الأُخرى التي تحيَّرت بمجرد قول الحجة أو الدليل الثاني لها، عن مجيء الشمس وغروبها، فيُلاحظ عليها أنها توقفت تماماً من خلال نص القصة بـ ﴿فَبُهِت الَّذِي كَفَر﴾[٣]، أي: انقطع كلُّ شيء منه وذهبت حججه كأن لم تكن، ثم تحيَّر ماذا ينطق، فاصطدم بالمنطق الحي والحجة القاطعة التي لا ترد[٤]، وذلك هو المنطق العلمي الصحيح الذي لا يقبل الرد، وبه تُبنى أُسسُ التعامل ما بين الشخصيات، خاصةً إذا كانت إحدى الشخصيات تتمتعُ بأُفق فكري وثقافي واسع ومتفتحٍ يضبطُ حركة الشخصية الفكرية وتكوينها.

لا شك أن الشخصية المعاندة والمتعالية عندما تفقد أدوات الرد بالحجة والدليل، فإنها تلجأ حتماً إلى أساليبَ متعددةٍ في قمع الطرف الآخر، لاسيما شخصية دأبها القوة والجبروت ومنطق القهر أمثال نمرود الملك، لذلك تولَّدت هنا علاقة غير متوازنة لدى شخصية المَلِكِ خرجت بها الشخصية من أسلوب المنطق إلى أُسلوب القوة والبطش[٥]، وتلك حركةٌ طبيعيةٌ عند هكذا شخصيات، يكون أسهل سلاح لديها تدافع به عن نفسها بعد عجزها وقلة حججها، هو البطش بالخصم وانهائه. وهذا أمرٌ واضحٌ ومعروفٌ لدى الملوك والسلاطين؛ لأن كلَّ "مَن اشتدت قوته ضعف منطقه، إلا رجال الحق فإنهم كلما زادت قوتهم يصبحون أكثر تواضعاً ومنطقاً"[٦]. لذلك نشأت هنا علاقةٌ عكسيِّةٌ بين الشخصيتين، الأُولى كانت ايجابيةً بامتياز، إذ عندما رُدت حجةُ

(١) ينظر: التفسير الوسيط، ٣٧١/١، الكشاف، ٣٠٦/١.

(٢) الكشاف، ٦٠٣/١.

(٣) سورة البقرة، ٢٥٨.

(٤) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، ٤٣٢/٥، التفسير الوسيط، ٣٧١/١، القصص القرآنية، ٩٢.

(٥) ينظر: القصص القرآنية، ص ٨٨.

(٦) م. ن، ٨٨.

البطل الرئيس، انتقل إلى حجةٍ أقوى وبذات المنطق فقرع شخصية الملك، لكنَّ الشخصية الكافرةَ كانت سلبيةً جداً، إذ كان ردها مغايراً للأُولى، حيث انتقلت من المحاججة والمنطق – لو افترِض أنه منطقٌ بنظرها – إلى أُسلوب البطش والفناء، فقالت بلسان حالها ولسان قومها*، قال ﷻ: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾(١). هذه العلاقة أسهمت كثيراً في رسم الشخصية المعاندة، وبينت صفاتها من خلال سلوكها تجاه البطل، فعززت بنيتها الشريرة المتسلطة التي بنت قواعدها، فكانت شخصيةً عدوانيةً لا تتوانى في استعمال أي وسيلة في قهر خصومها، وفي ضوء هذه السمات، وعبر حركتها تشكلت بنيتها وخصائصها النفسية الباطنية والعدائية التي اتصفت بها ولم تُظهِرْها حين بدأت تُحاجُّ إبراهيم ظناً منها أنها ستغلبه، إلى أن تكشفت شيئاً فشيئاً وأفرغت ما بداخلها من أسرار كانت تكنها للقضية الرئيسة وللبطل.

إن شخصية المَلِك تكاد تكون متغيرةً ومتلونةً أكثر من غيرها، وهذا يرجع إلى قوتها أولاً، ثم إلى رعاية مصالحها ثانياً، ومن دون الأخذ بعين الاعتبار لأيِّ شيءٍ أو فكرٍ آخر يواجهه، لذلك بدأت هذه الشخصية تواجِه أولاً بالفكر والأدلة، ثم تطورت حركتها ونمت بشدة، فتوسلت بالقوة لرد الخصوم، فرسمت شخصيتها بصورة مباشرة معلنةً صفاتها المتجبرة وقوتها بلا رادعٍ أو خوف، ولذا قمعت كلَّ من عارضها، وهو سلوك عام في أغلب الملوك، لكي تنتمي هذه الشخصية إلى نمط معين ومحدد له ذات الصفات والحركات، برغم اختلاف الزمان والمكان ونوع الحركة التي تقوم بها هكذا شخصيات نمطيةٌ مَلكيَّةٌ، مع التفنن في الأساليب والفساد، قال ﷻ: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً وَكَذلِكَ يَفْعَلُون﴾(٢). فنمطية هذه الطبقة من الشخصيات ﴿الْمُلُوكَ﴾ غالباً ما تحتم عليها الإفساد في كلِّ شيء، لأنهم هم من يُدخِل الفساد في شؤون الناس، وهم من يقررون كلَّ شيءٍ، ومن ذلك وغيره يكون إيقاع العذاب

* لأن نمرود بعد هزيمته من قبل إبراهيم عليه السلام، قام بتحريض الناس عليه بحجة تسفيهه آلهتهم المقدسة والعظيمة، فإن كنتم تعبدونها حقاً فعليكم نصرتها منه، لأنه قد طعن بها ودمرها، فأجمعوا أمرهم بهلاكه وحرقه. وقيل هو حشدهم على إبراهيم، وحين سألوه ماذا نفعل به، قال لهم نحرِّقه بالنار، فكان هو صاحب الرأي الذي أشار بالحرق. ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، ٤٦٤/١٨-٤٦٥، التفسير الوسيط، ٣٤٣/٣-٢٤٤، الكشاف، ١٢٥/٣، التفسير البنائي للقرآن الكريم، ١٦٣/٣-١٦٤، القصص القرآني، محمد باقر الحكيم، د. ط، الناشر: المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، ص ١٨٠ – ١٨١، القصص القرآنية، ٨٨-٨٩.

(١) سورة الأنبياء، ٦٨.

(٢) سورة النمل، ٣٤.

بغيرهم، وهنا تحقق القصة إلتفاتةً فنيةً وجماليةً قامت برسمها الشخصية الثانوية عندما أصدرت حكمها على الشخصية الرئيسة بكلمةِ ﴿حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُم﴾[١]، إذ ناسقت بين شكل اللفظة ومضمونها، ليأتي المعنى مناسباً ومساوياً تماماً بين الحكم وواقع الجريمة العظمى – في نظر الشخصية الثانوية الكافرة – التي فعلتها شخصية البطل، وهو مما أشارت إليه البنيوية التكوينية؛ إذ إنها "تسعى إلى تحقيق وحدة بين الشكل والمضمون، بين حكم القيمة وحكم الواقع"[٢]. فمن جمال ما دلَّت عليه اللفظة هو أنها جاءت بالتأكيد والتشديد على هلاك وفناء إبراهيمﷺ وإلى الأبد، لا أن يُعذب عذاباً محدوداً بعقوبة معينة تؤدبه فيرجع عما هو فيه، لأن الإحراق لو كان هنا لتأديبه كي يرتدع ويتوب عن آلهته لجاءت بلفظ ﴿احرقوه﴾ مثلاً، بلا تشديد عليه، فضلاً عن ذلك فقد وُصِفت عملية الإحراق بأنها كانت محرقةً كبيرةً جداً. إذ إنها من كثرة الحطب وما جُمِع منه بلغت شدتها واتساع مساحة حجمها ووهجها أن تُصيب الطيور وهي في كبد السماء فتحرقها، وقد بلغت مبلغاً صعُب عليهم كيف يرمونه فيها، إلى أن استخدموا المنجنيق في رميه فيها.[٣] إذن كانت الدلالة البلاغية والاستعمال الأسلوبي من قبل الشخصية الثانوية المعتدية للفظة مستوفيةً للمعنى المراد بلا زيادة ولا نقصان، فكل حرف زِيد فيها قابلته زيادة في المعنى، وكما هو معروفٌ أن كلَّ زيادةٍ في المبنى لابدَّ أن تتبعها زيادة في المعنى، لذلك حصل التماسك والترابط بين المبنى والمعنى الذي شددت عليه الشخصية لإيقاع الجزاء بصورة تتلائم وجريمة الشخصية البطلة وحجمها، وقد ركز (كولدمان) كثيراً على قضية التماسك والترابط داخل العمل الأدبي، لأن جمالية العمل وفنيته تكتمل حين يكون الشكل معبراً بدقةٍ عن المعنى المراد ، الذي يُقصد من وراء اختيار الشكل المناسب، فيكون هذا الترابط والتلاحم جزءاً مهماً من أجزاء تكوين الوحدة الكُلية للعمل للوصول إلى المعنى الداخلي لبنية ما.[٤] وهذا يؤكد ما للغة من وجوه متعددة تكشفها مظاهرها وطريقة استعمالها لتلك الوجوه المتنوعة في ضوء ما يمتلكه المتكلم من ثقافةٍ وقدرةٍ يمنحها له وسطه الاجتماعي بلا اعتراض عليه، أو الحالة التي يكون هو فيها أثناء تعبيره

(١) سورة الأنبياء، ٦٨.

(٢) البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، ص ٤٦.

(٣) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، ٤٦٥/١٨، الكشاف، ١٢٥/٣.

(٤) ينظر: في البنيوية التركيبية، ص ٤١-٤٢، شعر اللصوص في العصر الأموي، ص ٨٨.

عن المواقف المختلفة.[١] فيعبر عن الفعل بما يتناسب والجو العام السائد مع الحدث، إذ تقوم الشخصية بتجاوز وضعها وحالها الخاص بها، فتتكلم بما هو عام – ظاهراً – لِتُحقِّقَ من العام ما هو خاصٌ بمصلحتها وما هو أبعد هدفاً منها، لذلك ماذا قالت من خلال النص: ﴿حَرِّقُوهُ﴾، ثم ماذا: ﴿وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾، وبذلك تخلصت من خصمها أولاً بغير أداتها المباشرة، ثم كسبت خواطر الناس لحسابها على أنها المدافعة الأُولى عن حقوقهم ومعتقداتهم ثانياً. وبهذا أصبحت الدلالة الحركية التي قامت بها الشخصية الحاكمة فعالةً جداً في نجاح تحركاتها، وتحقيق أهدافها بما يتوافق مع طبيعة الأحداث المتسارعة.

إن شخصية الملك وعلى الرغم من تلك المراحل التي مرَّت بها ورسمت بعض ملامحها، فإنها تبقى – وبحسب النص – مجهولةً غير مُعرَّفةٍ للقارئ بوضوح من هي بالتحديد، ولكن الأمر من إخفائها له من العلامات والإشارات ما قد يُغنيه أيضاً في فهم الجزء المفقود من صفاتها؛ لأن الشخصية عندما تكون غير معروفةٍ في لغة النص أو في الواقع المادي وأثره، فهي شخصية مجهولةٌ ونكرةٌ يصعب تحديدها لقارئ النص، خاصةً إن اعتمد لغته فقط.[٢] لأن للاسم دلالاتٍ وإشاراتٍ كثيرةً ومفيدةً، تدخل ضمن التعاملات المتنوعة لدى الشخصية، وفي مقدمتها تقع الدلالات الاجتماعية المهمة، فضلاً عما تجلبه تلك الدلالات من فهم عن المجتمع، وعن أبرز أحداثه التي ترتبط ببنيته الاجتماعية العامة بمختلف فروعها الاقتصادية والسياسية وغيرها.[٣] ومعلومٌ أن الشخصية – وإن غُيِّبَ اسمها أو أتى مبهماً – فهي ترتكز أساساً على مدى قابليتها في الإقناع، وكيف يكون إقناعها فنياً بأحداثها داخل العمل القصصي، والذي تجسده عبر أفعالها وأقوالها الموكلة إليها، التي تجعلها شخصيةً ناجحةً وخالدةً بفنها.[٤] ولكنها أحياناً تأتي مبهمةً – على الرغم من نجاحها في أداء وظيفتها – نكرةً لا يُراد علوّها لقبح عملها وسلبيتها، وزيادةً في إنكارها وبيان لؤمها. أو لعل صاحب النص لا يُريد لشخصيةٍ من شخصيات

(١) ينظر: الأسلوب والأسلوبية، عبدالسلام المسدي، د. ط، الدار العربية للكتاب - تونس، ١٩٩٠م، ص٨١-٨٢، شعر اللصوص في العصر الأموي، ص ١٠٤.

(٢) ينظر: دراسات في نقد الرواية، طه عمران وادي، ط٣، دار المعارف – القاهرة، ١٩٩٤، ص ٢٥، بنية السرد في القصة القصيرة" سليمان فياض نموذجا"، نبيل حمدي الشاهد، د.ط، المجلس الأعلى للثقافة – القاهرة، ٢٠١٦، ص ٢٣.

(٣) ينظر: بنية السرد في القصة القصيرة، ص ٢٤.

(٤) ينظر: دراسات في نقد الرواية، ص ٢٥.

النص، أو لشخصياتٍ عديدةٍ البقاء والخلود، وهي شخصيات ليست جديرةً بذلك.[١] لأن هناك بعض الشخصيات لا تستحق الذكر بوضوح من تكون؛ لسوئها، إلا على قدر ما تُعطيه للقصة من هدف وحكمةٍ تخدم مجريات الأحداث ووقوعها من قبل تلك الشخصية، لترسِّخ لدى البشر طبيعة تلك الشخصيات كيف كانت تتصرف عكسياً مع منقذيها، كما في شخصية نمرود الملك هذا، وكذا من سار على خطاه من سائر الملوك الذين ذكرتهم القصص الأُخر، نحو الملك (الغاصب) الذي يأخذ بقوته كلَّ شيءٍ يقع أمامه، قال ﷻ: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾[٢].

نلحظ أن الشخصية هنا أعلنت عن طغيانها مباشرةً ومن دون أية مقدمات، ولم يقع الحوار منها ولا من غيرها، لكنها شخصيةٌ حاضرةٌ بقوةِ أفعالها السابقة التي أخفاها النص عنا، وكذلك برزت قويةً بأعمالها القادمة التي ذكرها وذكر كيف تكون ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾[٣]، فباستدلال الحركة الظاهرة من النص ﴿غَصْبًا﴾، تكشفت بنية الشخصية المتجبرة الظالمة. الأمر الذي جعلها تأتي إلى أموال الناس من المساكين والفقراء فترهِقهُم طُغْياناً وَكُفْراً بسلب ما عندهم عنوةً منهم وإذلالاً لهم، وتغصبهم على ما لا يقدرون عليه.[٤]

لعل التشابه في سلوك أغلب شخصيات الملوك، آتٍ من النظرة المادية التي تتحكم في تصرفات كلِّ شخصية محبةٍ للمال، ترى وجودها قائماً منذ البدء بما تمتلكه من أموال وثروة، وذلك شعور نفسي باطني لدى الشخصيات المالكة التي تحدد وجودها بالمادة، وهو ذاته الشعور الاجتماعي الذي تعيشه الشخصية عندما تريد أن تزداد رفعتها ومكانتها داخل المجتمع الذي تعيش فيه، ظناً منها أن الرفعة والتفوق، والتقدير الاجتماعي هو التسلط على رقاب الناس والصعود على حسابهم، وهو قمةُ انغلاق الفكر وتحجره عند تلك الشخصية الحاكمة التي يكون

(١) ينظر: بنية السرد في القصة القصيرة، ٣٦.

(٢) سورة الكهف، ٧٩.

(٣) سورة الكهف، ٧٩.

(٤) ينظر: تفسير ابن عرفة، محمد بن محمد ابن عرفة الورغمي التونسي المالكي، أبو عبد الله (المتوفى: ٨٠٣هـ)، تحقيق: جلال الأسيوطي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ٢٠٠٨م، ٩٨/٣، تفسير الشعراوي - الخواطر، محمد متولي الشعراوي (المتوفى: ١٤١٨هـ)، ط١، مطابع أخبار اليوم – القاهرة، ١٩٩٧م، ٨٩٦٧/١٤، ٩٩٦٨/١٦، ١٠١٥٣/١٦.

همها الأول المُلك والسيطرة السياسية والمادية، واخضاع الناس كما تريد.[١] ولا شك في أن المال والملك هما مصدرا الحدث الأبرز اللذان وجّها الشخصية كيف تسير وتتحرك، وهكذا تحكمت الدوافع النفسية اللئيمة في الشخصية الطاغية المولعة بالملك للحصول على ما تريد كيفما كانت الطريقة. وهنا تتجسد النظرة الاقتصادية الضيقة في وعي الأفراد التي تتخذ من الأنانية والطمع محفزات لتحقيق دوافعها، ولكن أية أنانية؟! هي تلك الأنانية العقلانية التي تخطط بحرص على جني الربح الأقصى ما استطاعت، ومن دون الاهتمام بأية علاقات إنسانية، بل ومن دون اعتبار حتى للمجموع الذي تنتمي إليه الشخصية.[٢] وبذلك يتأكد ما ذهب إليه البحث من أنه ليس صحيحاً ما وُصِفت به الشخصيات الحاكمة بأنها بلهاء أو غبية ساذجة وغير ذلك، لأنها وبحسب رأي (كولدمان) فهي تمتلك وعياً اقتصادياً يؤمن بالتخطيط وتحسين اقتصادها، وإن كان تخطيطاً فردياً قد أضرَّت به الشخصية بمن حولها من الشخصيات الأُخر، عندما تحركت بهذا الاتجاه السلبي ولم تُراعِ فيه مصالح الآخرين.

إن الأضرار التي تركتها الشخصية الثانوية الحاكمة بفعل دوافعها وأهوائها، لم تكن محددةً على شخصيات بعينها أو في مكان معين، وإنما أثرت على أمكنة وشخصيات أُخر، ربما كانت في أزمنة غير زمانها، إذ بالإمكان عدّ هذه التصرفات المريضة عدوى تنتقل من شخصية إلى أُخرى تتأسى بها وتتخذها قدوةً لها – وإن اختلف الزمان والمكان – إذ يمكن تسمية هذا التأسي والتشبه بـ (عدوى الشخصيات)، فتتشابه صفات الشخصيات الطاغية بأفعالها وحركاتها، كأن تكون شخصية الملك الذي يأخذ السفن قد تأثرت بشخصيةٍ سبقتها، كشخصية النمرود مثلاً، فأحبت أن تكون مثلها لنفس الدوافع والأطماع الدنيوية التي تعشقها النفوس. ولكن لا يُعدُّ هذا قياساً ملزماً لكلِّ الشخصيات الحاكمة، لأن من الشخصيات الحاكمة ما تكون خلافاً لذلك، وعلى الضدِّ منها في تصرفاتها ومبادئ سلوكياتها التي تبني بها بنيتها الحركية، كما هو يُلحظ على شخصيةِ (الملك) الحاكمة التي ركزت عليها قصة يوسف عليه السلام، وأشارت إلى أدواره بوصفه ملكاً ايجابياً مثابراً*، يبحث عن رعاية شعبه بشتى الوسائل لحفظهم، ومن ثم حفظ ملكه من الضياع،

(١) ينظر: قصص القرآن الكريم دلالياً وجمالياً، ٨٨/١.

(٢) ينظر: مقدمات في سوسيولوجية الرواية، ص٢٠١.

*وينظر كذلك بعض تلك الاوصاف الايجابية في قوله تعالى:[البقرة:٢٤٧]،وقوله تعالى:[يوسف:٥٠]،وقوله تعالى:[يوسف:٥٤]، وقوله تعالى:[يوسف:٥٤]،وقوله تعالى:[يوسف:٧٦].

إذ هي شخصية تحكمت بصفاتها وحركتها إيجابية النوايا التي تبعث في الأعمال والأدوار روحاً ولوناً مغايراً لأفعال تلك الشخصيات التي كانت قبلها، التي لايهمها غير الملك وجمع الأموال.

إذن تبقى الايجابية في التصرف تمثل الصورة الحقيقية التي تعبر عن القيم داخل المجتمع، ولاشك أن شخصيةً مثل شخصيةِ هذا الملكِ لا تكون لها مؤهلات ودوافع مشتتةً في طريقة عملها، بل لابد من ضبطها وكياستها؛ لأنها شخصية تتحكم بها فكرة البقاء المفيد لمن حولها وضمن رعايتها، الذي بدوره يمكنها أكثر في الحكم ما استطاعت، وكذلك الخلود السليم فيما بعد، فضلاً عن السيطرة على أمور الدولة. لذا يتولد عن ذلك الصراع الدائم أو شبه الدائم تفكيرٌ داخليٌّ لا يفارق الشخصية مادامت قائمةً بالحكم، بسبب الاهتمام بشؤون دولتها. فظهرت أُولى بوادر حركة ملك القصة ونشاطه الفني في شيءٍ قريب من المنطق العلمي الذي تعلوه لغة الأرقام، إذ جاء النص برقم محدد قد وحَّد معنى الرؤيا على الرغم من اختلاف طرفيها بالنوع – البقرات، والسنابل – في رؤيا الشخصية وتفكيرها المتواصل، وهو العدد الحسابي (٧)، وبما أن للإنسان حواساً عدَّةً – منها الخفية – تُعطيه إشارات قد تُنبؤه ببعض الأمور قبل وقوعها، وهي تختلف من إنسان إلى آخر بحسب قابليات الشخص الإدراكية والثقافية التي تعتمد يقيناً على مدى سعة الشخص الفكرية والعقلية[١]، وكذلك على قدرته في معرفة الأحوال والأوضاع من حوله. وبما أن شخصية الملك هي القائمة "على أمر البلاد والعباد، فإن ما يطرقه من تلك الأحداث المقبلة أكثر مما يطرق غيره من الناس"[٢]. لذلك اجتمعت أشياء كثيرةٌ لدى هذه الشخصية أهَّلَتها أن تكون شخصيةً واعيةً تمتلك معرفةً وافيةً عن الأحداث والأخبار، وربما كانت على درجةٍ ليست بالقليلةِ من العلم ببعض العلوم الأُخرى من حولها، لذلك حصل توافق منطقيٌّ عندها في كلا الحلمين، قال ﷻ: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾[٣]. أي: سبعٌ سمانٌ، وسبعٌ عجافٌ، وسبعٌ خضرٌ، ويابساتٌ. فاجتمعت الأعداد متساويةً كأنها أعدادُ معادلةٍ رياضية تكون نتيجتها منطقيةً وواحدةً، ولذلك قيل عن هذا العدد أنه جاء هكذا لأنه "دليل على أنّ السنبلات اليابسة كانت سبعاً كالخضر؟ [لأن التساوي حصل بينهما

(١) ينظر: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص ٤٤٨ - ٤٤٩.

(٢) م. ن، ص ٤٤٨.

(٣) سورة يوسف، ٤٣.

كتساوي البقرات من قبل، ولأن] الكلام مبنى على انصبابه إلى هذا العدد"[١]. كأن المتكلم أراد أن يكون كلامه منتظماً لا اختلاف فيه وإن كانت رؤياه في عالم اللاشعور، لكنها انتظمت كأنها في الواقع ليأتي كلُّ نظير مع نظيره متساوياً لا يقبل الاختلاف، وكذلك نلحظ في نهاية كلام الشخصية شيئاً تقوله للملأ، تُبينُ الشخصية فيه ضعف هؤلاء السحرة والكهنة في العلم، إذن هو على علمٍ من علمهم الذي ربما قد حدث أن حصل نقاشٌ بين الشخصية وهؤلاء عن مسائل أُخر اكتشفت الشخصية الحاكمة فيه أنهم قليلو العلم والمعرفة. وإلا لماذا استفهمت الشخصية في نهاية كلامها؟ أو قد تكون شككت بعلمهم وقصورهم في تأويل الأحلام فلم يُقنعها جوابهم؛ لأنهم عجزوا عن إيجاد الجواب الدقيق الذي يُشفي قلب الملك فيُقْنعه، بل عندما سألهم واستعبرهم عن الحلم لم يجد منهم من يُجيبه، أو حتى يُحسن قول شيءٍ ما عن ذلك، فتجاهلوا بالقول ماهي إلا أحلام مختلطة ومشتبهة بالأباطيل المُتوَهَّمة[٢]، لذا وبسرعةٍ ختمت الشخصية كلامها مباشرةً بالقول بـ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾. طبقاً لما أحسَّه منهم من قلة العلم، وهو ما جاء فعلاً في جوابهم له: ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾[٣]. فكان علم الشخصية وثقافتها باديةً من أول وهلةٍ لتحركها، ومطابقاً لردهم وعدم مقدرتهم، وفضلاً عن ذلك كله أن هذه الشخصية كانت فيما روته بعض النصوص المفسرة للقصة والحدث، أنها تتكلم "بسبعين لساناً، فكلّما كلّم يوسف بلسان أجابه يوسف بذلك اللسان، فأجابه الملك، فأعجب الملك ما رأى منه"[٤]، ومن الأدلة الأُخر على علمية هذه الشخصية وفكرها، هو تفسير الشخصية الرئيسة لحلمها، ذلك التفسير الذي كان بداية انطلاق العمل العلمي والعملي المنظم في إدارة البلاد عند مواجهة الخطر القادم، فكانت الحلول منظمةً بحسب الترتيب المنطقي للإدارة الناجحة. تزرعون دَأَباً، بجد واجتهاد ومن دون ملل أو كلل، ثم تخزنوه بالطريقة الصحيحة لئلا يفسد، وتأكلون منه بقدر سد الحاجة لا سرف فيه، لتنجون من الهلاك، وكذلك تُحفظ الأموال والأرواح حتى تصلون إلى

(١) ينظر: الكشاف، ٤٧٣/٢.

(٢) ينظر: م. ن ، ٤٧٣/٢ ــ ٤٧٥.

(٣) سورة يوسف، ٤٤.

(٤) الكشف والبيان عن تفسير القرآن، ٢٣٠/٥.

الرخاء والسعة وكثرة الخيرات بالتدبير وحسن إقامة النظام الصحيح.[١] فهذه الإنارة العلمية والبيان الصريح عن تفسير الحلم من قبل الشخصية الرئيسة، تؤكد أيضاً ما تمتعت به الشخصية الحاكمة من رجاحة عقل ونظر سديد يعلوه العلم والمعرفة – حتى وإن كان حرصاً منه على البلاد – فهو لا يخلو من الفهم والتدبير اللَّذين يحتاجان إلى المعرفة، وهو بعدُ حلم بعالم الرؤيا، أي بعالم اللاشعور وقد سجَّل حقيقةً واقعةً لا محالة برؤية البقرات، ومن ثم السنابل، والمعروف أن العقل الواعي يأمر بأخذ الاحتياط مما يُحْذَر منه، فكيف وقد ركَّزت رؤياه على أمرٍ مهمٍّ يكون به محور إدارته المالية وغيرها، ونجاحه في دولته، وهو تنظيم اقتصاد الدولة الذي يعني الجميع لا الملك وحده.

يُعدُّ الحلُم مادةً قصصية مهمة في بناء العمل القصصي، فهو جزءٌ فني يحتل مكانة مفيدة في بناء الشخصية وبيان مديات سلوكها حين حركتها في ضوء توازناتها المتنوعة. وترقى أهميته داخل القصة، حيث يُعد "من أهم فعاليات السلوك: في نطاقه خارج اليقظة، أو ما يُسميه البحث الأرضي: خارج (الوعي)"[٢]. لأنه مادة فنية فعَّالة تُغني الأحداث حركةً ونشاطاً لما له من تأثير في سلوك الشخصيات، ذلك السلوك الذي ينتقل من اللاشعور إلى الشعور وإدراك ما يكون فيما بعد، فلذا هو بدوره يشكل مادةً فنيةً مهمةً وعنصراً تقنياً قصصياً لا غناء عنه في كثير من القصص.[٣]

لقد كان الترابط بين الشخصيات الثانوية والرئيسة واضحاً، وبنقاط التقاء وثيقةٍ جداً، فبناء قصة يوسف عليه السلام هندسياً وفنياً بدأ برؤياه الأولى، وهي الرؤيا الرئيسة في القصة، ثم انبنت أحداث القصة على وفق هذه الرؤيا، وتمَّ نسج خيوط القص وسردها بِدأً منها، ولا غرابة في أن تكون رؤيا الملك امتداداً لمادة القصة الرئيسة، لكنها بوضع مختلفٍ تماماً عن رؤيا البطل، لأنه ومعلوم أن في الحلم نمطين، منه ما هو "صادق وكاذب، إنما يُعدُّ الصادق منه جزءاً من الإلهام تدفعه السماء إلى الشخصية خارج يقظتها، بُغية الإفادة منه في تصحيح السلوك في نطاق الحلم

(١) ينظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن، ٢٢٧/٥، غرائب التفسير وعجائب التأويل، محمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم برهان الدين الكرماني، المعروف بتاج القراء (المتوفى: نحو ٥٠٥هـ)، ط١، دار القبلة للثقافة الإسلامية - جدة، مؤسسة علوم القرآن – بيروت، ٥٣٩/١، الكشاف، ٤٧٦/٢ – ٤٧٧.

(٢) التفسير البنائي للقران الكريم، ص ٣٢٣، قصص القرآن الكريم دلالياً وجمالياً، ٢٧١/١.

(٣) ينظر: قصص القرآن الكريم دلالياً وجمالياً، ٢٧١/١.

نفسه . . . أو بنحو عام متصلٍ بالجماعات الإنسانية كلِّها أو بعضها"[١]. لكنه وكما بُيِّن من قبل أن الارتباط بين الشخصيات الثانوية والرئيسة جعل العلاقة بين الشخصيات الثلاث التي رأت رؤياها تبدو متلازمةً مع بعضها وهم (شخصيتا الفتيين، وشخصية الملك)، التي هي الأُخر ترتبط بها شخصيتا الفتيين أيضاً بحكم طبيعة عملهما داخل القصر، أو لأنهما شخصيةٌ ثانويةٌ مرَّت بها ذات الأحداث المتعلقة بتقنية العنصر القصصي وصدقه في تغيير السلوك الشخصي لكلتا الشخصيتين.

إن الرؤيا التي شاهدها الملك تنتمي للرؤيا الحقَّة التي تقدم مصلحة الجميع، وهي في الوقت نفسه تعمل على تصحيح سلوك الشخصية نفسها من حيث لا تشعر، فضلاً عن تنبيه غيرها من الشخصيات الأُخر أن تتبع السلوك الأصح، حتى وإن كانت الشخصية أول أمرها سلبية كافرة لا تؤمن بما تؤمن به الشخصية الرئيسة. وبما أن نوايا الشخصية لا تنفع لتحديد الشخصية ووظائفها مثلما تحدده أو تقدمه أفعالها ودلالاتها ذات القيمة المهمة للشخصية ولبنيتها عندما تتحرك.[٢] فإن الوظائف والصفات المتعددة لدى الشخصية المساعدة – خاصةً عند شخصية حكيمةٍ، مثل شخصية هذا الملك – تكون ذات أهمية كبرى، لأنها تنبعث من حكمةٍ متنبئةٍ ترسم الأحداث القادمة بصورة تُعطي منبهات كثيرة عن الحدث الأبرز الآتي.[٣] ولذلك قيل: "إن المساعد في بعض الأحيان يقوم بإنجاز وظائف البطل النوعية"[٤]. لأن الحلم كان أبرز وأفضل حركةٍ قامت به شخصية الملك، وهذه الحركة كانت أيضاً حركةً ووظيفةً نوعيةً بارزةً لدى البطل في رؤياه الرئيسة أول القصة، وهنا حصل تقاربٌ وثيقٌ بين الشخصيتين بنفس الوظيفة والحركة، مع اختلاف أثر الوظيفتين، وهذا الأمر يُعدُّ طريقاً ومفتاحاً للشخصية في تغيير حالها نحو الأفضل وزيادة منفعتها وقيمتها. فقيمة كلِّ شخصية تكون بدورها داخل عالمها، وتتجسد فيما تُعطيه من نتاجٍ حركيٍّ مقنعٍ يُزيد من نشاطها وتطورها، ولكن بملامحَ فنيةٍ خاصةٍ تُخلدها.[٥]

(١) قصص القرآن الكريم دلالياً وجمالياً ، ٢٧١/١.

(٢) ينظر: مورفولوجيا القصة، ص ٩٩.

(٣) ينظر: م. ن، ص ١٠١.

(٤) ينظر: م. ن، ص ١٠١.

(٥) ينظر: دراسات في نقد الرواية، ص ٢٥.

لقد كان دور كلِّ شخصيةٍ واضحاً خلال مجريات الأحداث الطارئة التي حدثت فجأةً، فبعد أن يضعُفَ أمل الشخصية تأتي بحدث ما لِيُنهِضَ حركتها فتعمل من جديد، وهذه هي طبيعة الشخصيات النامية المتطورة. فالأمر الذي بدا من شخصية فتيي السجن قبل تعديل سلوكها نحو الإيجابية، أودى بهما إلى سكون حركتهما داخل السجن وضعف الأمل لدى الشخصية، ولكن الحركة التي أتت بها الشخصية (تقنية الحلم) أحيت الأمل فيها من جديد وبعثتها للحركة. أما شخصية الملك فبعد أن عجز الملأ من تفسير الرؤيا، حصل ما يشبه ذلك الضعف من الأمل إلى أن تحركت شخصيته بحركةٍ أخر

وعاودت الحلم ثانيةً، عندها أحسَّت الشخصية أنها على صوابٍ مما رأت، وأن هناك عِلَّةً وراء تكرر الحلم مرتين، وأنه لابد من معرفة ما يجري من حولها من أحداث قادمةٍ، لذلك تحركت وطلبت حلاً مناسباً وشافياً لكي تطمئن وتستقر. وكأن التواشج بين الشخصيات الثانوية رَسَمَ هندسيَّةَ تحركِها، فالتقت حركتها وايجابيتها مع حركة وإيجابية الملك بعد تفسير رؤياه الغامضة، وبوساطة الشخصية الثانوية السابقة (أحد فتيي السجن)، التي ساندت البطل في السجن، والآن تسانده في خلاصه من ذات السجن، لكن هذه المرة من خارج السجن، بمعونة شخصية ثانويةٍ جديدةٍ دخلت على خط الأحداث مؤخراً وبرؤيا أيضاً، مكملة لما سبق من تطور الأحداث والمواقف لتتحقق بسببها أهدافٌ كثيرةٌ يستفيد منها الكلُّ، بإرادةٍ قوية يقوم بها البطل بمساندة الشخصيتين معاً، وبهذا اكتسبت شخصية الملك تطوراً سريعاً يتناسب مع سيطرة حركته وقوتها في إدارة أمور مملكته، إذ لابد أن يقوم بشيء لمعالجة المشكلة القادمة، فعمل على تخليص شخصية البطل من السجن فوراً، وهذه الحركة المسرعة بالتطور والبناء في شخصيته توافق طبيعة عمله، لأنَّ شخصية الملك لها سطوتها وحسابها في اتخاذ القرارات المناسبة في المواضع الصحيحة، ما ولَّدَ منفعةً إنسانيةً جليلةً فيما بعد تمتع بها الجميع، ومن هنا تكتمل الصورة الحركية لهذه الشخصية التي ساندت بقوة فأضاءت فرج البطل، وهيأت أدواتها بنجاح فحققت نفع الناس ونفعها، ومشت بسلوك صحيح فأمَّنت نفسها من الزلل بركن شديد عندما استخلصته لنفسها، وهي حركةٌ جديدةٌ أُخرى قامت بها، قال ﷻ: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾[1]. فالشخصية الحاكمة الثانوية هنا نزعت للخير كله

(١) سورة يوسف، ٥٤.

بعد ما رأت البيِّات الواضحة من البطل، وهو أمرٌ يبعث على الدهشة والمتعة، والإعجاب بشخصية (نمطية) اعتادت نمطيَّةَ الملوك في تصرفها وتكوين بنيتها الخاصة بها، ثمَّ تنقلب فجأةً وبلا تردد رأساً على عقب لتتحول من النمطية السلبية المتعالية التي تكاد تكون (جامدةً) على منهج معين هي كانت تصوغه لنفسها وتسير عليه، إلى انفتاح – مؤمنةً – وتحرر من عقيدةٍ مشوبةٍ بالضلال إلى نور تستضيء به وتُضِيءُ، وكلُّ ذلك يُثبت تجليات الشخصية الجديدة وحركتها المتطورة في الأحداث؛ لأن حركة الشخصية أو الشخصيات عموماً لا تحددها مواقعها المعينة فقط، بل أفضل ما يميزها هو وظائفها والأدوار التي تسعى من خلالها للوصول إلى تجليات جديدة تقع في صميم خدمات المجتمع بشتى عناصره الاجتماعية، لاسيما الثقافية منها، وحتى الاقتصادية؛ لأجل إشباع الحاجات المتعددة، فتَبْرُزُ أهميته لديها بتجلياتها الحركية من أجل غاية ما، أو بلوغ قيمة معينة.(١)

لا يخفى على ناظرٍ سرُّ تطور هذه الشخصية الحاكمة، بسبب قيامها برسم شخصيتها بطريقتها الخاصة والمباشرة عندما عبَّرت عن نفسها بنفسها، وصرحت عما كان يجول في داخلها من حذر وخوف على مصالحها، لذلك بدأت حوارها من الداخل مع نفسها بعد حدوث الرؤيا وتحيُّرِها بها، ثم نقلت حوارها وجعلته خارجياً مباشرةً للوصول إلى رغبتها بكشفه علناً أمام الملأ، لأن الواقع يفرض على الحاكم حلَّ كلِّ شيء يهدد مملكته، وأيضاً لتزداد معلومات الشخصية عن الخبر وتُحيط به علماً لا يترجح بين الخير والشر – سمان وعجاف، خُضر ويابسات – بل إما هو خيرٌ، أو هو شرٌّ آتٍ. ولا شك في أنَّ أكبر معضلٍ تواجهه هكذا شخصيات في واقعها، وحتى في أفكارها العابرة، هو محافظتها على رؤية إقتصادية ناجحة تمثل الحفاظ على سياسة البلاد وأهلها، وهي في ذات الوقت تمثل سلطة من سلطات بقاء الدولة.

لقد سكتت القصة عن كثير من المواقف والأحداث التي طرأت على الشخصية، فمراحل القصة مفتوحةٌ بفنيَّتها وجماليتها، وتُطوى أحداثٌ كثيرةٌ ومثيرةٌ عن تلك الشخصيات المتعددة والمتنوعة، لِتُكشفَ صفاتها برموزها وإشاراتها البعيدة، لاسيما إذا بنت الشخصية بنيتها بحركتها الواعية، التي كانت فيما سبق تنظر إلى ذاتها من ذلك المنظور البدائي المنفرد الذي تتماهى فيه الروح مع الطبيعة، من خلال إدراكٍ فردي للذات، يحجر على الفرد أو– لنقل على الشخصية –

(١) ينظر: البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، ص٨٤.

أن ترى ذاتها محاكاةً وتناغماً مع الطبيعة ليس إلا، لا لشيء محدد بذاته، وإنما هي هكذا بوصفها جزءاً منها، يسير معها كيف تسير من دون معرفة الأسباب، ولا ما هي الوظيفة التي هو وُجِدَ لأجلها.(١) ثم تتفتح الشخصية بعد نضوج ثمرتها لِتُؤسسّ شبكةَ العلاقات الكلية المنفتحة على جميع مجالات الحياة، فتُكوِّن نظاماً جديداً لها، أو هو كما بيَّنه (جورج لوكاتش) في إحدى مقولاته الجوهرية، من خلال فلسفته الكونية التي أسست القاعدة الجوهرية للفكر البنيوي التكويني، مثل مقولة (الكلية) ذات البعد الشمولي الهيجلي، التي أخذت مجموع العناصر المؤثرة والمتأثرة في البشر لتكوِّن شبكةَ العلاقات الإنسانية التي تنظم وجودهم من جهة، وتحدد علاقاتهم مع الطبيعة من جهةٍ أُخرى.(٢) فليس للإنسان أن يكون هكذا بلا هدفٍ أو وظيفةٍ، أو أن أهدافه محددةٌ بذاته وحسب. لأن الدوافع لدى الإنسان أو الشخصية ليست بالضرورة أن تكون اقتصاديةً لفهم التاريخ ومجريات أحداث الأمم؛ لأن وضعها الصحيح – أي الدوافع الاقتصادية – والمباشر الذي يقع في المقام الأول هو فهم المجتمع وفعله داخل الواقع الاجتماعي الذي يعيش فيه ويتفاعل معه بوصفه فرداً ينتمي للمجموع.(٣) من هنا كانت حركة الشخصية الحاكمة هذه، حركةً تصحيحيَّةً لمسارها السابق الذي عاشت فيه، لأنها شخصية نمطية يحكمها الملك والسلطان، لتتحول – فضلاً عن نمطيتها – إلى شخصيةٍ اجتماعيةٍ تؤمن بحاجات الجميع داخل المجتمع، وأن المجتمع هو مَن يُكْمِلُ الفرد، وأن الفرد جزءٌ منه، ليدخل ضمن تلك (الكلية) ولا يكتمل الكلُّ إلا بوجود الجزء، وهذا لا يعني تحول الشخصية الحاكمة إلى فردٍ ينتمي إلى الطبقة العامة للمجتمع، بل هو تحوُّلٌ يرتبط بوعي الشخصية تجاه المجتمع الذي هو يُديره لِتُوصِلَهُ إليه، أو هو كما أسماه (كولدمان) بـ (الوعي الجماعي)، الذي يستشعر واقع المجتمع ويدفع نحو رؤية جديدة لوضع اجتماعي معين.(٤) وهو ما يُزيد من تطور الشخصية ونموها نحو آفاقٍ تُعمق من بنيتها الحركية تجاه الأحداث المستقبلية ومشكلاتها المفاجئة.

إن الصور الفنية والجمالية التي تمتعت بها مختلف الشخصيات، جاءت من خلال نسقٍ فكري وثقافي تميزت به أغلب الشخصيات، فالشعرية وجماليتها كانت واضحةً في أول صورةٍ

(١) ينظر: البنيوية التكوينية من الأصول الفلسفية إلى الفصول المنهجية، ٢٦ – ٢٧.
(٢) ينظر: م. ن ، ٢٦ – ٢٧.
(٣) ينظر: م. ن، ٤٨ – ٥٠.
(٤) ينظر: م. ن، ١١١ – ١١٢.

للحدث الأهم والأبرز في القصة، وهو (رؤيا) البطل يوسف(ع) وتشعباتها، فكانت الصور الجمالية والبلاغية والفنية يُكْمِلُ بعضُها بعضاً؛ لأنها كانت صوراً متجانسةً في تشكيلاتها ومضامينها الدلالية الغنية بالمعاني والدلالات الرمزية، لقد تمت الإشارة إلى تشكيل الأسلوب القصصي الحامل لتلك الصور، فوجدنا فيه تشكيلاً بلاغياً جميلاً تضمن صوراً مختلفةً من صور التشكيل البلاغي، نحو المجاز والاستعارة وغيرهما، التي جاءت على لسان الشخصيات. لكنَّ الأسلوب القرآني بما له من مجال واسع في تشكُّل صوره وتلويناتها الطبيعية، لا يقف عند الحدود البلاغية وبعض الأساليب، لأنه خطاب كبير ومتشعب يهدف إلى بناء أوسع ومتكامل من تشكل مختلف الصور الفنية والجمالية التي ليس تحدها حدود البلاغة ولا الأساليب.[1] لأن من جماليات التشكيل الفني هو بلوغ الصورة الفنية المتكاملة للعمل الفني التي تشمل بناءه الفكري والمعنى النفسي، وكذلك المعنى الاجتماعي، من خلال القيمة الجمالية للصورة التي تكوِّن بمجموعها جمالاً شمولياً يصل حتى إلى جزئيات إنشاء الصورة بنظرةٍ كلية وشمولية.[2] لذلك يُلحظ على حركة الشخصيات شعريةً واضحةً ارتبطت بتقنيةٍ فنية واحدة من أول القصة إلى آخر صورةٍ فيها وهي (رؤيا) الملك التي بعثت على نهاية الطرف الثاني من تشكُّلِ الصورة وتناسقها بكل تقنيِّةٍ وجمال. فحصل التناسق الفني الجميل داخل النص، وتساوى الشكل مع المضمون بلفتاته الفنية الرائعة، والتشكيل الهندسي المعماري والجمالي الأدبي البارع من كلِّ جوانبه، حيث بدأت القصة برؤيا وانتهت – تقريباً أهم أحداثها – كذلك برؤيا، ولكن الأجمل هو ليس فقط الانتهاء بنفس الحدث الأبرز، وإنما الأجمل هو حصول ومجيء كلتا الرؤيتين من مصدر واحد، ومعينٍ عذبٍ كله خيرٌ وعطاء متدفقٌ، وإن كان حال الرؤيا الأولى ظاهراً قد أوجدَ ألماً في شخصية البطل الرئيس فأبعدها بكل معنى الكلمة من بعد؛ لحكمةٍ بالغةٍ نافعةٍ، في حين كانت حال الرؤيا الأُخرى من الشخصية الثانوية الحاكمة تحقق فيها رفعُ كلِّ ألمٍ ألمَّ به، فدُفِع عنه بكل خير وحسن مآب.

(١) ينظر: التشكيل البلاغي للصورة الفنية في القرآن الكريم، محمد محمود صالح قاسم، أُطروحة دكتوراه، إشراف: أ.د. عبدالقادر الرباعي، جامعة اليرموك – كلية الآداب/ قسم اللغة العربية وآدابها، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، ٥١.

(٢) ينظر: م. ن، ٥١ – ٥٢.

المبحث الثاني

شخصية العزيز

هي شخصية ثانوية كان لها نصيبٌ من الحكم ليس بالقليل، وتُعدُّ من أقرب الشخصيات الثانوية مقاماً ومرتبةً من شخصية الملك السابقة، لما لها من التأثير في قرار الحكم، فضلاً عن أهميتها ومساندتها للشخصية البطلة، فضلاً عن أنها أكثر الشخصيات تماساً وحركةً داخل الوضع الاجتماعي للعامة والخاصة، إذ هي قريبةٌ من أوضاع المجتمع بمختلف جوانبه السياسية والاقتصادية وغيرها.

لقد اكتسبت شخصية العزيز قوة سلطتها من شخصية الحكم الأعلى في تلك الدولة، فكان لها نصيبٌ وافرٌ من السلطة والسطوةِ بنت من خلاله حركتها ونشاطها القويين، وبما أنها شخصية تابعةٌ لسلطةٍ أعلى، فهي قد مارست أعمالها في الحكم وفي خارجه أيضاً بناءً على صلتها واستغلال نفوذها، ولكنَّ تحركاتها بوصفها شخصية لها أفعالها الخاصة بها، جعلتها مختلفةً عن الشخصيات الأُخر، لذلك كان لها الدور البارز في مساندة شخصية البطل منذ وصوله إلى المدينة التي بِيعَ فيها عبداً أو خادماً في القصر، حتى تشابك الأحداث وزيادة عقدتها. قال ﷻ: ﴿وَقالَ الَّذِي اشْتَراهُ مِنْ مِصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْواهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ وَاللَّهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[1]. فكانت أول حركةٍ ذكيّةٍ تُلحظ على الشخصية لخصتها كلمته للمرأة ﴿أَكْرِمِي مَثْواهُ﴾[2]، أي: أحسني إليه ولمنزلته، ولِما يبدو عليه من حُسنٍ وتعقُّلٍ وأمارات الفهم والسلوك الجيد ما استطعتي من عنايةٍ، عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أو نصيب منه الخير والبركة، أو يكون وَلَداً لنا، لأنه أحسَّ أن مقامه كبيرٌ، أو سيكون شيئاً عظيماً في قابل الأيام. ويرى بعض المفسرين أنه قد بالغ في توصية زوجته على رعايته طوال إقامته معهم، بأحسن وجه.[3] من هذه

(١) سورة يوسف، ٢١.

(٢) سورة يوسف، ٢١.

(٣) ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي (المتوفى: ١٥٠هـ)، تحقيق: عبد الله محمود شحاته، ط١، دار إحياء التراث – بيروت، ١٤٢٣هـ، ٣٢٧/٢، التفسير الوسيط، ٦٠٥/٢، زاد المسير في علم =

الحركة يُستشفُّ أنَّ الشخصية نَبِهَةٌ وصاحبةُ فراسةٍ في تحركها، وهذه الصفات تُعدُّ من أبرز صفات القادة والحكم التي تمكنهم من إدارة حكمهم بنجاحٍ، فهي وإن كانت تابعةً لسلطةٍ أعلى، لكنها تمتلك مقوماتها الخاصة بها أثناء تأديةِ أدوارها وأعمالها، فلا يمكن وصف هكذا شخصية بالسكون والسطحية لأنها كانت تابعةً لغيرها، بل هي شخصية قويةٌ وصاحبةُ درايةٍ، خاصةً عندما أبدت علمها وخبرتها حين تفرَّست بشخصية البطل عند رؤيته، وتكلمت عنه كيف يكون فيما بعد بعلمه وفهمهِ، لأنه شخصيةٌ – أعني الشخصية الرئيسة – كبيرةٌ بما لديها من مقومات وحسن تصرف في الأمور.[1] لذلك أثبتت شخصية الحاكم هنا تطورها ونموها بطريقةٍ حركيةٍ فذَّةٍ من خلال عقلها وحسن خبرتها في إدارة الأحداث التي تقع معها، أو من حولها.

إذن تحركت الشخصية بناءً على ما تمتعت به من سلطان الحكم بوساطة المال والسلطة لتحقيق ما تريد، فهي جديرة بأدائها غير مترددة في اتخاذ قراراتها، سريعة الحزم في المواقف كما في تحركها في مساعدة شخصية البطل ابتداءً من الشراء بمجرد رؤيته، ومروراً بتحديد مكانته الجديدة داخل القصر، يُضاف إليها حركةٌ (نفسيةٌ) داخليةٌ تعلوها عواطف الشخصية الباطنية التي لم تَبُحْ بها، وهي ما كان في نفسها من مشاعر الأبوة وحب الأبناء، لذلك تحركت هذه الشخصية ثانيةً بحنان تلك الأبوة المفقودة ومشاعرها، كما دلَّ على ذلك قولهﷻ على لسانها: ﴿عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾.

كثيرةٌ هي الأحداث التي رافقت هذه الشخصية، وهي أيضاً قد رافقت الشخصية الرئيسة، لكنَّ النص قد اختزلها ببعض الأحداث، وركز على أهمها، فبعد استقرار البطل هناك وبلوغه نَمَت قدرته وبان حُسنه وعلمه، فمرَّت به أحداث متنوعةُ المواقف، فكان أحد أبطالها الثانويين شخصية العزيز في الحادثة المعروفة، قالﷻ: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾[2]. هنا تتحرك الشخصية بطريقة حكمها المعتادة في تقديم الأدلة الواضحة لمعالجة المواقف وتداركها عندما تقع، أو معرفة المتهمين. فيعلو الحدثَ حوارٌ عميقٌ وشائكٌ بين الشخصية وبين شخصيات أُخرى، فضلاً عن

= التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط١، دار الكتاب العربي – بيروت، ١٤٢٢هـ، ٤٢٤/٢.

(١) ينظر: التفسير الوسيط، ٦٠٥/٢، الكشاف، ٤٥٤/٢، زاد المسير في علم التفسير، ٤٢٤/٢.

(٢) سورة يوسف، ٢٥.

الحوار الأكثر عمقاً وحيرةً بالنسبة للشخصية، وهو حوارها الداخلي الذي أسكتها وأوقف حركتها بسبب التفكير الصعب والمر في معرفة الحقيقة، الذي يكاد يُفقِدُ الشخصية وعيها؛ لأن من أهم ميزات البناء القصصي هو خلق مشاهد متنوعة تُختَبرُ فيها الشخصية، لأنها عنصر بنائي يسير مع الأحداث ليعمل على نموها، فضلاً عن بيان وضع الشخصية كيف يكون رد فعلها عندما تقع في مشاهد مفاجئة ومباشرة، وبحالات مختلفة من حالاتها النفسية المتعددة، مثل الخوف والترقب والحيرة وضياع الجواب الواضح الذي يُسكِتُ كلَّ الأفواه(١)، كما حصل في ذلك المشهد الصعب بين الزوجة والبطل عندما ألفاهما سيدُها* لدى الباب. لكن الملاحظ على الشخصية أنها رجعت واستعادت نشاطها ووعيها بالأحداث بعد الاستماع لكل الشخصيات وأدلتها، إلى أن انتهت بالاستماع لكلام الشاهد الحاضر معها، فدقَّقت كما هي طبيعتها – بوصفها شخصية تُقدم الدليل قبل الحكم – بمجريات الأحداث والآثار من جهة قوتها، واحترام الدليل القاطع الذي بدا لها واضحاً وضوح الشمس، فقالت بعد الملاحظة، قالﷻ: ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾(٢). وهنا تنتصر الشخصية الحاكمة مرة ثانية لشخصية البطل فتسانده هذه المرة لقوة الدليل، وأيضاً لما تحمله الشخصية من معلومات كافية عن البطل وتحركاته مسبقاً، فهو شخصية عليمةٌ ببعض الشخصيات وما حولها.

لقد كان المكان عنصراً مهماً في جريان القصِّ، لأنه حافلٌ بمجموعة من التغيرات المتعددة تبعاً لتعدده، وكان لشخصية العزيز فيه أدوارٌ مختلفةٌ. فبالرغم من جمال المكان الذي عملت الشخصية على إيجاده للبطل لتنقله من مكان بيع العبيد (سوق النخاسة) إلى جمال القصور والمساحات الواسعة، وبرغم كلِّ تلك المساندة التي قدمتها له، لكنها عملت أيضاً على رميه في السجن فغيرت مكانه مرةً أُخرى من الجمال إلى الظلمات وعذاب السجون، فكان ذلك التغيُّر

(١) ينظر: العناصر القصصية في قصة سيدنا موسى عليه السلام في القرآن الكريم، الصادق أبو حسن، رسالة ماجستير، إشراف: د. عوض السيد موسى عوض السيد، جامعة النيلين – كلية الدراسات العليا/قسم اللغة العربية - الخرطوم، ٢٠١٠م، ٦٠.

* والسيد هنا بمعنى الزوج، ولأن الزوج سائسٌ في أُمور أهله، وهو الراعي لهم يسوسهم كيف يشاء، فيدير كلَّ أوضاعهم وشؤونهم، لذلك سمي سيداً، ومن يسود جماعةً متولياً أُمرهم يكون سيداً عليهم، لأنه يملك تدبير سوادهم الأعظم. ينظر: المفردات، ص٤٣٢، كتاب التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ)، ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، ط١، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ص ١١٦.

(٢) سورة يوسف، ٢٨.

بالأمكنة عنصراً فاعلاً ومؤثراً في شخصية البطل من خلال ما قامت به الشخصية الحاكمة من مساعدته وتحديد موقعه بالقصر أولاً، ثم رميه بالسجن ثانياً. فالتغيير الذي وقع ليس تغيير المكان وحسب، وإنما عملت الشخصية الثانوية على بعض التغيير في أفكار شخصية البطل، إذ قامت بنقله من بيئة بدوية معزولة جاء منها، ثم من بيئة سوق النخاسة والعبيد سلعةً تُباع وتُشترى، إلى بيئة اجتماعية واسعة لها ثقلها في المجتمع، تتعامل مع الأكابر والملوك والسلطة، ولها طريقة في الحياة تختلف عن البداوة وما بها من حياة.(١) وهذا من جهةٍ يعني حصول تغيير فكري وثقافي لدى الشخصية الرئيسة ساعدتها على ذلك الشخصية الثانوية بمساندتها له كثيراً، ومن جهةٍ أُخرى نستدل فيه على مدى الصراع والمعاناة التي كانت تحملها شخصية الحاكم في داخلها عندما قررت زج البطل بالسجن وعلى مضضٍ منها، ويدل أيضاً على الموقف المحرج الذي وقعت فيه الشخصية عندما نالت منها ألسنةُ الناس فيما جرى، فاختارت الشخصية الحاكمة الظلم على حساب درءِ العار وكفِّ المتقولين، فهو شخصيةٌ متواطئةٌ بحسب المواقف على حساب الآخرين وإن كانوا على الحق؛ لأن ذلك من صفات شخصيات السلطة.

إنَّ هذه الشخصية الثانوية كانت حازمةً في كل تحركاتها وتصرفاتها، فهي اعتمدت طريقة رسم الشخصية المباشرة عبر حديثها وحوارها المباشر مع شخصيات متعددة، وقد كان الحوار سيد الموقف بينهم، وهو مَن أفصح عما بداخل شخصية العزيز من توجه وعناية، وتصارع مع الذات البشرية ونزعاتها بوضوح تام، وهو نوع من الوعي الواقعي الذي وقعت فيه الشخصية الثانوية، واصطدمت بمؤثراته الاجتماعية، وأوجب عليها تقبل رؤية العالم حول هذا الحدث الذي هزَّ كيانها، وأوجد شرخاً كبيراً في وضعها، وفي كافة مستويات الشخصية الثانوية، لاسيما مكانتها في مراتب السلطة، وإن كان كلام الشخصية قصيراً جداً قد أُخفيت كثيرٌ من تفاصيله التي دارت حول جميع الأحداث، ليدلل ذلك على سرعة اتخاذ القرار من قبلها بشأن البطل، وهو ما تناسب مع شخصية العزيز – كما مرَّ من قبل – بأنه شخصية حاكمةٌ لها حزمها وقوتها في اتخاذ القرارات الحاسمة. وعلى هذه الهيئة من المقومات والمؤهلات الحركية للعزيز، مثل السلطة والمال والجاه والنفوذ وغيرها، يُلاحظ كيف بُنيت منه الشخصية وكونت سلوكها الشخصي،

(١) ينظر: الفن القصصي في القرآن الكريم، ص٣٠٢، سورة يوسف دراسة تحليلية، د. أحمد نوفل كلية الشريعة - الجامعة الأردنية، ط ١، دار الفرقان عمان – الأردن، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، ٣٢٩-٣٣٠.

فامتلك صفاتٍ عديدةً لوَّنت بنيتها الفكرية والحركية عبر حركتها وأدوارها، فقدمت نتاجها بجدارة ونجاح، مع بعض الإخفاقات التي فرضها عليها وضعها العام، لأنها شخصية حاكمة، ومكانتها الخاصة التي وُضعت بها، بوصفها شخصية لها ظروفها الداخلية التي أجبرتها على بعض التصرفات السلبية تجاه البطل وغيره من الشخصيات الأُخرى.

المبحث الثالث

شخصية فرعون

شخصيةٌ ثانويةٌ وحاكمة متنفذةٌ في حكمها، جاءت على نمطٍ مغايرٍ تماماً عن الشخصيات الأُخر في السلطة، فهو شخصية متسلطة اكتسبت من اسمها دلالةَ أغلب أفعالها وأدوارها التي قامت بها بوصفها شخصية حاكمة متجبرةٍ طاغيةٍ، لأن لفظة فرعون تكفي لِتّدُلَّ على العظمة والتجبّر، وإن كلَّ مَلِك علا في الأرض فهو طغَى وتعظّم، والتفرعن هو الدهاء والكِبرُ، وكلُّ عاتٍ متسلطٌ هو فرعون، ومن يفعل فعل الفراعنة العتاة والأبالسة، فهو يسمى فرعوناً؛ لقيامه بفعل الجور والظلم.(١) إذن هذه الشخصية أعطى اسمها قبل كلِّ شيء عنها كثيراً من صفاتها التي سوف تتحرك بها فيما بعد، ولأنها شخصيةٌ تحكمت بأغلب الأحداث التي دارت بين الشخصيات الأُخرى. فهي ذلك النوع من الشخصيات الذي له أثرٌ عظيمٌ في الحدث، لأنها صنعت أحداثاً، وحركت زمناً، وأنتجت كلاماً متنوع الأساليب، من جدلٍ وعناد أو فكرٍ ضالٍ(٢)، فهي تمتعت بعناصر ومقوماتٍ ماديةٍ ومعنويةٍ، جعلت منها شخصيةً حاكمةً متغطرسةً، قال ﷻ: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾(٣). فبناء الشخصية لنفسها أتى من الخارج أولاً، بما أحسَّته الشخصية من الزينة والزهو لتتفاخر به أمام شخصيات أُخرى معها، نحو الملأ وغيره، ثمَّ بما استشعرته في نفسها داخلياً من قوةٍ وامتلاك الأموال، لذلك تجبرت وعلت. فالحاكم عندما يسير بالعزة والجبر متفاخراً بنفسه متغطرساً، تكون شخصيتهُ متعاليةً تتكبر بسلوكها وحالها على كلِّ شيءٍ، لأن كلَّ مَلِكٍ جبار هو عاتٍ ومتسلط يقهر الناس بالقتل بغير حقٍّ ولا رحمة فيه.(٤)

إن الشخصية في تحركها عندما تقوم بأفعالها ترسم بعض صفاتها التي تُعرف بها، ولكن لها طرائقٌ عديدةٌ أيضاً تعرف بها. فالاسم مثلاً أحد تلك الطرائق التي بها تتجلى الشخصية

(١) ينظر: العين، ٢٤٥/٢، المفردات للراغب، ٦٣٢، ٨٤٧، اللسان، ٣٢٣/١٣.

(٢) ينظر: الشخصية القصصية بين الماهية وتقنيات الإبداع، صلاح أحمد الدوش، أماراباك - مجلة علمية محكمة تصدر عن الأكاديمية الأمريكية العربية للعلوم والتكنولوجيا، مج:٧، ع:٢٠، لسنة ٢٠١٦، ١٢٤.

(٣) سورة يونس، ٨٨.

(٤) ينظر: اللسان، ١١٣/٤.

معلنةً عن أكثر خصوصياتها وسماتها التي ستتحرك من خلالها فيما بعد، لأن للأسماء أثراً دلالياً واضحاً يؤكد العلاقة بينه وبين الشخصية التي سُميت به.[١] هذا من جهة، ومن جهة أُخرى فإن الأسماء "إما أن تقيم علاقات تداولية محضة [مع الشخصية تُعيِّن خصوصيتها في تحركها الخاص بها، و] إما أن توجد مقحمة في السببية التركيبية للحكي"[٢]. أي: أن فعلها تحدده دلالة الاسم الذي اختيِرَ لها وأصبح جزءاً من بنية تكوينها، كما يرى ذلك رايموند روسل.[٣] بهذا يكتشف القارئُ للنص طبيعةَ الصفات التي تميز هذه الشخصية عن غيرها، كفهم أولي لحركتها القادمة، قال ﷻ: ﴿اذْهَبْ إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى﴾[٤]. وكذلك جاء بالنص أيضاً قوله ﷻ: ﴿اذْهَبَا إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى﴾[٥]. فالقراءة الأولية للنص وهبت المتلقي عن حال الشخصية دلالة مفهومةً أنه متجبرٌ تكبَّر وطغى، وكان ما أخفاه النص هنا كافياً لبيان المعاني الجمَّةَ التي تحركت في ضوئها الشخصية الحاكمة، فحادثة العصى مثلاً، واليد، كانتا من ضمن محفزات تحركات الشخصية سابقاً عندما جمعت جمعها من الملأ والسحرة، لذلك قابلت شخصية البطل بالرد والعناد، لترد كلَّ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ رَسُولٌ، أو حتى لا يدعوه لعبادة الله، فطَغى وعَصَى تَكَبُّرَاً وَكُفَرَاً حتى جَاوَزَ الْحَدَّ في طغيانه، ثم كان منه أن تجرأ بكلمته الجاهلة، أنا ربكم الأعلى والأقدر، التي يعلم معها أنه ليس هو كذلك، فجاوز حده لأنه شخصية لا ترتدع بسهوة لغيِّها وعلوها، وكان يُوصف بالعلج وجافي القلب، وقد أرت الشخصية الرئيسة كلَّ المعجزات التي جاءت بها، لكنه أبى إلا فساداً وإفساداً بالأرض.[٦] سعياً منه لضرب البطل وقهره بكل الوسائل الخبيثة. لذا برزت شخصية فرعون شخصيةً حاكمةً (سلبية) بجدارة، لأنها لم تشارك من خلال وظائفها إلا بالضدِّ من البطل، ويُستشفُّ من تحركها أنها لم تترك أيَّ حدٍّ للرجوع عن مواقفها السابقة بعد مشاهدة البينات من الشخصية الرئيسة، بل زادتها الدلائل والمعجزات علوّاً وعنتاً، فكانت شخصيةً تعتزُّ بسلوكها.

---

(١) ينظر: مفاهيم سردية، ص ٧٨.

(٢) ينظر: م. ن، ص ٧٨.

(٣) ينظر: م. ن، ص ٧٨.

(٤) سورة طه، ٢٤.

(٥) سورة طه، ٤٣.

(٦) ينظر: الكشاف: ٦٩٦/٤، تفسير القرطبي، ١٩٢/١١، ٢٠٢/١٩-٢٠٣، فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، ط١، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، ١٤١٤هـ، ٤٢٩/٣.

لم تكن ردود وحركة الشخصية الحاكمة (فرعون) هي الدليل الوحيد على كلِّ تلك الأعمال والأفعال التي تحركت ضمنها شخصيتها، بل طبيعة العلاقات والتحركات المشهدية الأُخرى، كان لها نصيبٌ في وصف سلوك الشخصية الحاكمة أيضاً، فمثلاً عندما تطلب الشخصية الرئيسة مباشرةً وأثناء تكليفها بمواجهة الخصم، مدداً وعوناً لها في إنجاز مهمتها بأكمل وجهٍ، كما جاء نصاً، قال ﷻ: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾[1]. وهو أمرٌ يدلُّ على ثقل المهمة التي تتطلب صدراً واسعاً لتحقيق النصر أولاً، ولعلم البطل أن النصر والنجاح يحتاجان للفكر النيِّر الذي يوضح الطريق بفصاحة وبيان، لا لعلةٍ معينةٍ بالبطل؛ بل للتعبير الأدق والأنجع في النفوس التي سوف يؤثر فيها، ويوصل الكلام ومراده للسامعين بصورة جيدة لا ضباب عليها قط.[2] وذلك يعني علم الشخصية الرئيسة المتيقن بمدى قوة شخصية الحاكم الضَّالة، والمستوى الكبير من الكفر والجحود والجهل المركب بالأمور الكونية وغيرها، وإلا وَصْفُ المشهد القادم مع فرعون وقومه بكل هذا الحذر والتخوف من قبل البطل لِمَا سيكون لم يأتِ من فراغ، بل هو طلبٌ انبنى على مستوى التفكير الثقافي لدى الشخصية المعاندة، من خلال عدوانها وعدائيتها للحقيقة والعدل، وعدم التصريح بكلِّ ذلك ولو مرَّةً واحدةً منها، فضلاً عن الواقع الاجتماعي المرير الذي يساند تلك الشخصية من جوانب متعددة، وهو ما سيُثبته تحركها القادم.

إن مصلحة الشخصية بصورة خاصةٍ، تجعلها متقلبةً كيفما تكون تلك المصلحة مهمةً بالنسبة لها، ولذلك كثيراً ما تغيرت أفعال شخصية فرعون، كأن تقف عن الحوار، أو تتراجع بعض الشيء عن موقف ما لتنتقل إلى أمر آخر عندما تضطر للخروج من مأزق وقعت به، فمرَّةً تُجادل، ومرَّةً تتحدى، وتسكت أحياناً لعدم وضوح أمرٍ ما بنتائجه الأخيرة. كما حصل في نقاش السحرة مع موسى عليه السلام واتفاقه معهم إن يغلب يُؤمنوا به وبما جاء من أمر ربه، أو يؤمن هو بهم – جدلاً أو اتفاقاً لمجاراة عقولهم – وبما جاء به فرعون[3]، قال ﷻ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ

(١) سورة طه، ٢٥ – ٣٢.

(٢) ينظر: القصص القرآنية، ٢١١.

(٣) ينظر: الكشاف، ١٤١/٢.

سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾[1]. لكنه تجبَّر وتعنَّت وكفر أكثر، هنا نلاحظ عدم استقرار الشخصية على رأي محدد، فهي تطلب التحدي وعندما تُغلب تنسحب بتجبر أكبر، فلما جاء السحرة مثلاً وتمَّ النصر عليهم، فحصل تطور هنا في رأيها، واتجهت الشخصية الثانوية إلى سلوك أفضع من ذي قبل، قال ﷻ: ﴿فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ . . . فَما آمَنَ لِمُوسى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾[2]. هنا تنجرف الشخصية من عدم استقرارها إلى الإسراف؛ لأن "﴿فِرْعَوْنَ لَعالٍ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: عات متكبر متغلب على أرض مصر وإنه لمن المسرفين المجاوزين للحد في الكفر وما يفعله من القتل والصلب وتنويع العقوبات"[3]. فتجاوزت الشخصية بانحرافها كثيراً، وانجرَّ الانحراف إلى شخصيات أُخر قد قهرتها الشخصية بقوة حكمها، إذ وقعت في الضلال شخصيات من قوم موسى عليه السلام، فضلاً عن شخصيات قوم فرعون التي كفرت مع فرعون وجبروته تناسباً معه ومع عمله، حتى عُرفوا باسمه، قوم فرعون بناءً على هذا الاعتبار.[4] فبهذا التحرك من الشخصية نلمح فيه فرديتها في اتخاذ أيِّ شيءٍ تراه هي من وجهة نظرها مناسباً لها، فجعلت رؤيتها – وإن كانت شاذةً – هي الرؤية الأَوْلى أن تُتَّبعَ بحسب فلسفة الشخصية القاهرة للكلِّ، وقد أشار (كولدمان) إلى عدم صحة تحرك الفرد مستقلاً أو مغايراً لمن حوله، حين وصف رؤية العالم بأنها لا تكون منفردةً أبداً، وذلك لعدم استقرار وجهة النظر الفردية، واستمرار تغيرها لدى الشخصية الواحدة المنعزلة برأيها، وفقدانها للوقائع الاجتماعية الحقيقية المعيشة داخل المجتمع.[5] وقد كانت مسألة الفردية لدى الشخصية الثانوية موجودةً؛ لأنه يعدها تمثل الكل الذي يحكمه؛ بوصفه الإله المطلق والمقتدر للأمة جميعاً، وهما نلحظه فعلاً من خلال ما جاء بالنص من كلام يُبين نوايا تلك الشخصية الثانوية، وهو ذكرُ صفتها الآتية التي ستنطلق عبرها وتتحرك بها، وهو قوله ﷻ: ﴿لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾، أي: هو سيُسرف في بطشه وظلمه بعد تعاليه على كلِّ شيء، وكذلك في إيذاء وصدِّ البطل عن تأدية وظيفته، عندما تسير الشخصية خلافاً للواقع

(١) سورة يونس، ٧٩.

(٢) سورة يونس، ٨٣،٨٠.

(٣) فتح القدير، ٥٣٠/٢.

(٤) ينظر: م.ن، ٥٢٩/٢-٥٣٠.

(٥) ينظر: تحليل الخطاب الأدبي- على ضوء المناهج النقدية الحداثية-دراسة في نقد النقد، محمد عزام، د ط، منشورات اتحاد الكتاب العرب – دمشق، ٢٠٠٣م، ١٧١.

الصحيح والقوانين. فبدأت بالحجج الواهية والنتائج الكاذبة لأجل التخويف والتمويه[١]؛ لتعمل على التضليل قبل التحرك والفعل بما نوت في داخلها، قال ﷻ: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[٢]. فكانت حركتها ونية عملها هنا أن تعارض أيضاً الشخصيات المساعدة الأُخر، لكي تقف بوجه البطل وتمنعه، فهي شخصية معارضةٌ وضديَّةٌ تستخدم قوتها في مجمل الأحداث ومفاصل القصة؛ لتمثل القوة المعارضة التي تعرقل جميع المساعي المساندة أو الخيِّرة، لأنها تمتلك فعاليةً وحيويةً واسعةً في بنيتها الحركية كلما تتطور الأحداث ويشتدُّ الصراع بينها وبين البطل الرئيس، أو مَن يسانده من القوى الأُخر.[٣] إذن هي شخصيةٌ تسير باتجاه واحد بفرديتها عندما تتلخص نظرتها وحالتها النفسية والفردية نحو هدفٍ محددٍ، هو القضاء على القوى الإيجابية والسير عكس اتجاه القوانين جميعاً، حتى وإن كانت تلك القوى من سنخها ثمَّ أحسَّت بها أنها تغيرت أو أرادت أن تتحول مع خصمها، كما هو حال السحرة وغيرهم الذين قضت عليهم الشخصية بمجرد ميلهم للبطل أول الأمر وتأييده بالكلام.

إذن لابد من توظيف علم النفس في معرفة الشخصية، وكذلك تحليل نزعاتها التي تعيش داخلها وتحركها ببعض قناعاتها التي تأمرها بالقيام بتنفيذ أفعالها. فالشخصية الفرعونية الطاغية الظالمة تنتمي لما يعرف في علم النفس بـ (الشخصية السيكوباتية) الإجرامية العدائية للحقيقة في مفاهيم علم النفس، إذ تكون هكذا شخصيات جائرةً دأبها الظلم، بل ومتجاوزةً حدَّ الجور والميل عن الحق في أغلب تصرفاتها القاهرة لغيرها، فيكون من أبرز صفاتها التي ترسمها لنفسها ونهجها، هو أنها تضع الشيء في غير موضعه تعسفاً وقهراً منها لخصومها.[٤]

لقد اهتم القرآن الكريم كثيراً في ابراز وجه الشخصية الحقيقي المخفي وراء بواطنها. لذلك كانت عنايته بالشخصيات خاصةً جداً، حيث عمل على تقسيمها بحسب نمط كلِّ شخصيةٍ وما تقدمه من أثر إيجابي أو سلبي ، وفضلاً عن اهتمامه بالمظهر الخارجي للشخصية، فهو اهتم

(١) ينظر: الكشاف، ١٤١/٢

(٢) سورة الأعراف، ١٢٣.

(٣) ينظر: الشخصية القصصية بين الماهية وتقنيات الإبداع، ١٢٩.

(٤) ينظر: التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن الكريم دراسة دلالية مقارنة، عودة خليل أبو عودة، ط١، مكتبة المنار، الأردن- الزرقاء، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، ٢٧٨-٢٧٩، الشخصية القصصية بين الماهية وتقنيات الإبداع، ١٣٢.

بدقةٍ فائقةٍ بالجانب النفسي الباطني ليبرز دلالة كلِّ شخصية وما ستقدمه من نفعٍ وتجربةٍ للآخرين، لأن الرسم من الداخل يُبرز ملامح الأفكار ودوافع الشخصية وبواعثها؛ ليطلع الناس على ما هو صحيحٌ فيتبعوه، وتوقظهم التجربة السابقة بسلبيَّة أشخاصها فيحذرون من الوقوع بمثلها، لتقع من تلك الصياغة القرآنية الفذة مواطن المتعة والإدهاش والإثارة البليغة، التي تؤثر في النفوس كثيراً، وتجلي صدأها، فالحوادث لابد ولها أسبابٌ تُشعلُ حب الناس للاستطلاع ومعرفة العبرة من أحوال الأقوام السالفةِ، التي بدورها ترسخ في نفوسهم ما آلت إليه تلك الوقائع؛ لِتُرسمَ في مخيلتها طبيعة ذلك الصراع المستمر بين الخير والشر، فتنجلي المعاني عن كل تلك الأحوال ومقتضياتها.(١)

لاشك في أن القصة عندما تُكتب، يهتمُّ صاحبها كثيراً في وصف تحركات شخصياتها وطبيعة الأدوار التي تؤديها تلك الشخصيات. لذلك هو يحرص على أن تُستمدَّ عوالمها من تجاربَ متنوعةٍ من الواقع والخيال معاً؛ لأن حركة الشخصيات هي التي تُبقي تلك الشخصيات وأفعالها راسخةً في أذهاننا، حتى وإن انتهت قصتها وحكايتها داخل القصة. فالشخصية هي من يُعمَر بها المكان وتملأ الوجود، وهي العنصر الأهم في البناء القصصي، وأفضل ما يُبقي تلك المخلوقات القصصية حيةً في الذاكرةِ، هو قربها من حركة الأحياء وكأنها هي نفسها، وذلك حين يختارها كاتبها من الواقع المحيط به لإكسائها صفةَ الإنسانيةِ الحيَّة بقوة خياله، وذكاء اختياره بدقة.(٢) فكيف إذا كان خالقها هو الله؟ من هنا تمتلك الشخصية مقوماتها وأبرز صفاتها من الواقع لتعيش أكثر من زمن القصة. وبما أن الشخصية مجموعة من الصفات "الجسمية والعقلية والخلقية والروحية . . . [إذن هي] تتكون من عقليتك وكيفية قبولك للأشياء وحكمك عليها، ومقدار ثقافتك . . . [فهي] على الجملة كل علاقتك بالحياة، وكل علاقة الحياة بك"(٣). ولعلَّ هذه الصفات، وهذه العلاقة والكيفية عندما تُطبَّق على شخصيةٍ مثل شخصية فرعون الحاكمة، نجد فيها تحليلاً شافياً لتلك الشخصية الضَّالة التي انتهجت بسلوكها أعتى صور الكراهية والكفر،

(١) ينظر: أدب الشريعة الإسلامية، د. محمود البستاني، ط١، مؤسسة السبطين عليهم السلام العالمية، قم- ايران، ١٤٢٤هـ، ٥٤ ــ ٥٥، مباحث في علوم القرآن، مناع بن خليل القطان، ط٤، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ٢٠٠٠م، ٣٠٠-٣٠٥.

(٢) ينظر: فن القصة، ٩٠ــ٩٣، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، ٩١، الشخصية القصصية بين الماهية وتقنيات الإبداع، ١٢٤-١٢٥.

(٣) الشخصية، الأستاذ أحمد أمين، مجلة الرسالة للآداب والعلوم والفنون - القاهرة، ع: ٦٠، لسنة ١٩٣٤، ١٤٠٣.

فهو ملكٌ تقع تحت أمره إمارةٌ عظيمةٌ تحكمت بمصائر كثير من الناس، ولا يعني إطلاق كلمة ملك عليه أنه شابه الملوك الآخرين؟ نعم هو امتلك ما امتلكته الملوك من قوة وسلطان، لكنه اختلف في شخصيته وطبائع سلوكه عنهم كثيراً، فأسس بنيته الخاصة به، لأنه شخصية متفردة تجبَّرت علوّاً حتى على خالقها بفعل فساد نفسيِّتها المنتقمة، وهنا يُلمح شيئاً من الكراهية المتعَمّدةِ لدى هذه الشخصية الحاكمة، ربما لا شأن لها في قضية الفساد والعلوِّ الفرعوني الملكي، وكأنها أي: الشخصية كانت تَجِدُّ وتجتهدُ لتحقيقها بشتى الوسائل والطرائق، ألا وهي مسألة الانتقام والإذلال لبني إسرائيل جميعاً، قال تعالى:﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[1]، وهو قهر جماعي أرادت الشخصية الثانوية إيقاعه بقوم موسى عليه السلام أيضاً، يُضاف إلى أدوار هذه الشخصية وطريقة تحركها.

لقد قيل عن هذه الشخصية وتحركاتها المتنوعة كثيراً، إذ نصَّت بعض كتب التاريخ وأقوال العلماء، أن مصر قبل فرعون موسى قد اجتاحتها جموع (الهكسوس) الرعاة، وقيل هم من الكنعانيين، أومن العرب، واسقطوا ملك الفراعنة وحكموها كلها تقريباً لقرون، فبنوا دولتهم بعد إبادة الفراعنة الأصليين وتنكيسهم، فبلغت دولتهم أوجَّ مراحلها في أيام نبي الله يوسف عليه السلام، عندما كان يحكما الملك كما يُعرف في مصطلح تلك الأقوام القادمة لمصر من البدو، وهو ليس من أصلها المنتمي لمصر، حتى سمي عصرهم بعصر الملوك لا الفراعنة، وهو ما يؤكده النص الكريم للقصة بالتحديد، عندما ذكر الحاكم بالملك، ولذلك نرى في قصة يوسف عليه السلام قول الله ﷻ: ﴿وَقَالَ الملك ائتوني بِهِ﴾، فكان بنو إسرائيل ابتداءً من يوسف عليه السلام وإلى مجيء فرعون موسى عليه السلام موالين للهكسوس وملوكهم، ويعملون معهم في وطن واحد، من هذا الأمر وغيره نَقِمَ الفراعنة وقومهم من هؤلاء الملوك ومن كان بصفهم أيَّما نقمة وأذلوهم حتى عمل فرعون وأهل مصر على تسميتهم بهذا الاسم الهكسوس؛ لأنه يعني (الخنازير) أو (رعاة الخنازير) باللغة المصرية قديماً، كرهاً وبغضاً بهم.[2] ومن هذا يتبين أنَّ الملك ليس شرطاً أن يكون فرعوناً– كما

(١) سورة البقرة، ٤٩.

(٢) ينظر: قصص الأنبياء، عبدالوهاب النجار، ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٥٣هـ-١٩٣٤م، ١٥٣-١٥٤، موجز تاريخ اليهود والرد على بعض مزاعمهم الباطلة، محمود بن عبد الرحمن قدح، ط٢٩، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ع: ١٠٧، لسنة١٤١٨-١٤١٩هـ، ٢٤٧، هل العهد القديم كلمة الله، منقذ بن محمود السقار، ط١، دار الإسلام للنشر والتوزيع، =

هو حال الملك في قصة يوسفﷺ وغيرها – ولكن الفرعون هو ملكٌ أيضاً، إلا أن صفته الطاغية عليه التي اكتسبتها شخصيتهُ من أفعالها، هي التي جعلت منه فرعوناً ظالماً بتجبره وعلوِّهِ، ملكاً جباراً عنيداً لا يرحم، وأما الملك إذا تجبَّرَ وعلا ظلمه فهو أيضاً يُعدُّ طاغياً، كما مرَّ الحديث من قبل عن شخصية الملك الذي يأخذ السفن من الناس والمساكين، فهو ملكٌ، ولكن حدَّدتهُ قرينةٌ واضحةٌ جداً، هي أنه يأخذُ ﴿غصباً﴾.

إنَّ فرعون يحمل في داخله شخصيةً غريبةً بطبائعها وسلوكياتها المتلونة التي بُنيت على دوافع نفسية غير سليمة، هدفها الأول والأخير التسلط والانتقام وأخذ الثأر من شخصيات عديدةٍ، لا من البطل وحده، لكنه في ذات الوقت قد حسم تحركاته الانتقامية بطريقةٍ ذكيَّةٍ ومباشرةٍ، لجعلها سلوكاً جمعِيّاً يشارك المجتمع في تنفيذه، وهو إبادة بني إسرائيل – وموسىﷺ خاصةً – يكون في مقدمتهم، إذ هو عين تلك الأمة ويدها في نظر الشخصية الحاكمة المنتقمةِ التي تحمل في سلوكها –الخارجي والداخلي– أشدَّ ألوان العداء والبغض للشخصية الرئيسة، لذلك سعت بكلِّ ما أُتِيت من قوة على قتله وسبي اليهود وإجلائهم من مصر، رداً منها لما جرى على آبائها

= ١٤٢٨هـ -٢٠٠٧م، ٢١، تفسير القرآن الحكيم "تفسير المنار"، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (المتوفى: ١٣٥٤هـ)، د ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م، ص٢٦١/١٢، تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: ١٣٧١هـ)، ط١، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م، ١٥٣/١٢، ٦/١٣، التحرير والتنوير - تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد-، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)، د. ط، الدار التونسية للنشر- تونس، ١٩٨٤م،٢٨٠/١٢، ٤٨/١٣، تفسير الشعراوي- الخواطر، محمد متولي الشعراوي(المتوفى: ١٤١٨هـ)، د. ط، الناشر: مطابع أخبار اليوم، ٣٢٦/١-٣٢٧، ٣٠٤٦/٥، ٤٣٠٦،٤٢٧٧/٧، ٦١٨٦/١٠، ٦٩٦٨/١١، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، ط١، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة- القاهرة، ١٩٩٨م،٣٦٧/٧، تفسير جزء عم للشيخ مساعد الطيار،د.مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار، ط٨، دار ابن الجوزي،١٤٣٠هـ، ص٤١، التفسيرالمنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د.وهبة بن مصطفى الزحيلي، ط٢، دار الفكر المعاصر- دمشق، ١٤١٨هـ، ٩/١٣، الأساس في التفسير، سعيد حوّى (المتوفى ١٤٠٩هـ)، ط٦، دار السلام – القاهرة، ١٤٢٤هـ، ٢٦٤٢/٥-٢٣٤٣،٢٦٤٨،٢٦٥٣،٢٧٠٠، تفسير القرآن الكريم، محمد أحمد إسماعيل المقدم، ط١، دار النابغة للنشر، عمان - الأردن، ٢٠٠١م، ٣٨٩، القول المعتبر في بيان الإعجاز للحروف المقطعة من فواتح السور، إياس محمد حرب آل خطاب، ط١، مطابع برنتك للطباعة والتغليف - السودان – الخرطوم، ٢٠١١م، ٦٦، لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، فاضل بن صالح بن مهدي بن خليل البدري السامرائي، ط٣، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان – الأردن، ١٤٢٣هـ -٢٠٠٣م، ٧، الإعجاز العلمي إلى أين؟ مقالات تقويمية للإعجاز العلمي، د.مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار، ط٢، دار ابن الجوزي، ١٤٣٣هـ، ١٧٧، لمسات بيانية "كتاب محاضرات"، فاضل بن صالح بن مهدي بن خليل البدري السامرائي، ط١، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان – الأردن، ١٤٢٥هـ -٢٠٠٥م ، إعداد: أبو عبد المعز، ٤.

وبلدها بالأزمنة السحيقة من حملة الاجتياح التي عُرِفت بـ (حملة الهكسوس) التي أذلت الفراعنة وطردتهم من بلدهم.[١] لذلك كان أبرزُ ما يدور في خلد هذه الشخصية هو القتل وهلاك البطل، قالﷻ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾[٢] ؛ لأن "كلَّ شيء يواجه الإنسان في حياته يؤثر في شخصيته أثراً صالحاً أو سيئاً"[٣] فإن يأس وفقد الأمل انطوى على نفسه، وإن عاش الفقر ثمَّ اغتنى فإنه لا ينسى ما قاساه من حيف، وما مرَّت به من شدائد وأحداث مؤلمةٍ، وكلُّ ذلك وغيره حتماً يدخل في تكوين الشخصية وبنائها[٤]، لاسيما من الداخل أكثر وأعمق؛ لتعبر فيما بعد عما اعتراها من هموم أو أفكار. فكيف تتخلى شخصية فرعون عن كلِّ ذلك الاحساس والشعور بالذلِّ مما وقع على عرشها سابقاً من أحداث مؤلمةٍ لا تُنسى؟ فضلاً عن خوفه من البطش بمصر وبه مرَّةً أُخرى كما حصل سابقاً لآبائه من قبل، فتحركت الشخصية بحذقٍ هنا، مبالِغةً بتخويف المصريين كي لا يقع بهم الإذلال ثانيةً، فاتجه نحو القول: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾، إشارةً إلى خوف وحذر الشخصية لِما كان من أحداثٍ ماضيةٍ في الزمن البعيد. وإن هذا الإحساس هو واقعيٌ موجود لدى الشخصية أيضاً في حرصها على مصالحها بشكل عام، لأن الإنسان مهما بلغ من عظمةٍ فإنه يبقى يحمل في مخيلته إدراكاً باطنياً يقظ مضجعه بين حين وآخر بالحوادث الماضية واللاحقة، حتى يصل إلى مرحلة الإدراك الواعي الذي يحتم عليه فهم ما يجري حوله وما يقع في المستقبل، لذلك يكون إدراك الشخصية الواعي مصحوباً بالتفكير الخائف والحذر من نتائج الأمور.[٥]

لقد كانت هذه الشخصية تعيش التفكير الخاطئ المتفرد في ما ادعته خلال حياتها، ولم ترتدع إلى آخر ساعات حياتها بسلبيتها وإن نطقت بالتوبة، قالﷻ: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ

(١) ينظر: دراسات أصولية في القرآن الكريم، محمد إبراهيم الحفناوي، د. ط، مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنية – القاهرة،١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م، ص ٧١.

(٢) سورة غافر، ٢٦.

(٣) الشخصية، مجلة الرسالة، ع:٦٠، ص١٤٠٤.

(٤) ينظر: م. ن، ص ١٤٠٤.

(٥) ينظر: المعجم الفلسفي، إبراهيم مدكور، مجمع اللغة العربية- جمهورية مصر العربية، د. ط، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية - القاهرة، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، ص٦.

بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[1]. فهي شخصيةٌ فردية غريبة الأطوار، تتطور بسرعة، لكنَّ قابليتها بالتَّلوّن والخداع والتراجع أسرع، فمرَّةً تتفرد بغرابة أطوارها، قالﷻ: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾[2]. وأُخرى تكون ضمن الجماعة، حريصة على مستقبل الأمة التي تحكمها بداعي الخوف على الدين وعليهم لا على نفسها، ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾، وهنا تحول في الشخصية من الفرد الواحد، إلى مصلحة الطبقة أو طبقات الأمة كلها، لتتظاهر بأنها أمينةٌ عليها ويعنيها مصالحها الدينية والدنيوية، وهما أعزُّ شيئين تملكه الطبقات، فإذا ذهب الدين وعمَّ الفساد في الأرض، تتهددُ كلَّ المصالح الأُخرى، الاقتصادية والثقافية وحتى السياسية منها، آنيَّاً وفي المستقبل القادم، فتنهار قيم المجتمع بأكمله. لذا ضربت الشخصية بتحركها على وتر الأمة الحسَّاس لتنبيهها وتحريك وعيها تجاه الأحداث وتاريخها بمجموعها، خاصةً بعد تعرِّضِ هذه الأمة لأحداث سالفةٍ كما قيل، وهذا الوعي قد يمثل ما أسماه (كولدمان) بالوعي الممكن. ذلك الوعي الذي كانت خلاصته تضافر عوامل تاريخية واجتماعية متعددة تداخلت وتشابكت مع بعضها حتى تعقدت، ليصل به وعي الأمة إلى نتيجةٍ معينة تقتنع بها تلك الأمة، بسبب تفاعل مجموعة من الظروف الثقافية والاقتصادية في فكر الجماعة أو الطبقة، لكي تتشكل لديها مفاهيم ومعتقدات راسخةٌ يصعب تفكيكها من خارج الجماعة. لأنه وعي تعيشه وتحذر منه، وهو موجود بداخلها، وتستشعره تجريبياً على مستوى السلب الذي تحذره الشخصية؛ لأنه لا يملك الحلول الكافية لمواجهة ما يحيط بها من أزمات ومشكلات، لظرفيته القصيرة، مع وجود الكم الهائل من الظروف الاجتماعية والسياسية، والاقتصادية، والفكرية، والدينية، والتربوية المحيطة به، فضلاً عن غياب البديل الإيجابي والمثالي للحياة المعيشة التي تمرُّ بها الطبقات.[3] وربما خوف الشخصية من المستقبل الذي لا تعرفه بدقة – بناءً على حركة التاريخ بالأحداث المؤلمة التي مرت بها الأمة سابقاً – يدفعها لتبني وعيا حاضرا ومغلوطاً في تلك المرحلة؛ لأن الوعي الفعلي

(١) سورة يونس، ٩٠.

(٢) سورة الزخرف، ٥١.

(٣) ينظر: البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، ٣٦-٣٧، مدخل إلى البنيوية التكوينية، بقلم: د. جميل حمداوي عمرو، موقع: كتب ودراسات، مقال من شبكة الأنترنت، تاريخ النشر: ٢٠٠٦/١٢/١٢م، ص. ب: ٥٠٢١- الناظور المغرب، ٥، من البنية إلى السياق، ٥٩، شعر اللصوص في العصر الأموي في ضوء البنيوية التكوينية، ١٨.

"هو وعي التكيف والمحافظة على الواقع"[1]. بالقدر الذي تستشعر به الشخصية أنها قادرةٌ على حلِّ جُلِّ مشكلاتها الآنية، لضمان بقائها أكثر في السلطة، وتحقيق مصالها، وغاياتها.

(١) مدخل إلى البنيوية التكوينية، ٥.

المبحث الرابع

شخصية المرأة الحاكمة (ملكة سبأ)

تتميز شخصية المرأة بميزات كثيرةٍ من شخصية الرجل الذي يكون تعامله في المجتمع بشكل أوسع وأكثر حركة منها، ولكنَّ هذا الأمر لا يمنع المرأة من التطلع والعمل بما يعمل به الرجل. ولا يعني أنَّ ما كثُرَ فيها من صفات – نحو الخجل، والعاطفة، وقلة الظهور، وغيرها – عن الرجل حاجزٌ من أدائها بعض المهام التي عُرِف بها الرجال كثيراً. فصفاتها وإن قَيَّدت حركتها بعض الشيء، لكنها تبقى بحركتها تمثل الجِدَّ في إقامة العمران وبناء المجتمع، وجزءاً أساسياً لسعادة الإنسان، لأن نشاطها لا يختلف عن الرجل سوى في تكوينه العضوي، والقدرة على بعض الوظائف واستعدادها في تأديتها، فهي عاطفةٌ قد تُكتم، لكنها في استعدادها تكون أندر ببعض الأمور، كالشعر مثلاً، وما كانت أنوثتها تعبيراً عن عواطفها، بل هي أقرب إلى جعلها شخصيةً تحبس عواطفها أحياناً، فتأتي طبيعتها الأنثوية بترجمة أفعالها وميلها للعاطفة أكثر.[1] وهذا هو ما ظهر شيءٌ منه في شخصية الملكة الحاكمة التي حسمت بعض تصرفاتها بحسب تلك الطبيعة التي تتميز بها المرأة من الرجل في الحكم.

بدأت القصة تُسرد عن ملكة حاكمةٍ، ولكن هذه المرة بلسان شخصيةٍ من غير الجنس البشري الذي اعتادت قصص القرآن أن تتحدث فيه. وهو ما يبعث شعوراً جمالياً وفنياً تعلوه المعجزةُ، بأسلوب مدهش وممتع وطريف، وبأنماط مثيرةٍ جلبها السلوك الرائع من قبل شخصيات القصة في تنوعها، ولغة قصها وفعاليته في تطوير الأحداث والمواقف.[2] فالهدهد ذلك الطير الذي كان من جند سليمان عليه السلام، واجب الجندي أن يلتزم بالأوامر وتنفيذها، لكننا نرى طبيعة القصة بأحداثها بُنيت على ولادة أحداث جديدة أفرزتها المواقف المتنوعة من قبل الشخصيات.

(١) ينظر: كتاب بلاغات النساء وطرائق كلامهن وملح نوادرهن واخبار ذوات الرأي منهن وأشعارهن في الجاهلية وصدر الإسلام، الإمام أبي الفضل أحمد بن أبي طاهر المولود ببغداد سنة ٢٠٤هـ- والمتوفى سنة ٢٨٠هـ، جمعه وصححه وشرحه: أحمد الألفي، ط١، مطبعة مدرسة والدة عباس الأول، بالطرقة الشرقية – شارع خيرت بالقاهرة، ١٣٢٦هـ- ١٩٠٨م، ٢، نزهة الجلساء في أشعار النساء، للإمام جلال الدين السيوطي، دراسة وتحقيق وتعليق: عبداللطيف عاشور، د. ط، مكتبة القرآن- بولاق-القاهرة، ص ١٧، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ١٠٥-١٠٦.

(٢) ينظر: قصص القرآن الكريم دلالياً وجمالياً، ٦٥/٢-٦٦.

امتازت الشخصيات الثانوية في هذه القصة بتقديم خدماتها لأكثر من شخصية، فهذا الطير عمل على إنارة شخصيتين في وقت واحد، تمثَّل عمله بإلقاء الضوء على شخصية البطل الرئيس أولاً، ثمَّ أنار بموقفه على شخصية ملكة أُخرى تحكم مملكتها بعزم، ولكن بعيداً عن حكم سيده سليمان عليه السلام، وهو على علم يقين أن لمولاه ملكاً لا ينافسه أحد فيه، قال تعالى: ﴿وَقالَ يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾(١). فعندما غاب ثمَّ أتى سيده، بدأ كلامه بشيء أراد به إثارته وشد انتباهه له بالتدريج، فروى له حدثاً كبيراً خارج سلطته عن امرأة، قال تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَها عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾(٢). فكأنه أراد القول أيها الملك لست أنت تملك ما لا يملك غيرك، فهناك امرأةٌ وملكةٌ أيضاً، عندها من الذي عندك، فبدأ الحوار الخارجي عن الملكة أولاً، ثمَّ انتقل الحوار إلى نوع المُلْكِ والحكم العظيم ثانياً، ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾، ولِيُلفتَ انتباهه نحو الخبر اليقين. جاءه بحجةٍ قوية ودليلٍ يمحو تخلفه عن البقية، فبيَّن له أنها صاحبة علم ومال، ولها جنود وسلطان وأنواع من زينة الأرض والخير، فلا تظن أنك وحدك ملكٌ، قد أحطت بما هو عليك خاف، وعن مملكتك خارج، ثمَّ قال الهدهد: وَلَها عَرْشٌ عَظِيمٌ، هنا يُستشعر من شخصية الطير أنه أراد المقارنة بين المُلكين، وأيضاً ليدلل على عظمة بلقيس – الشخصية الحاكمة وصاحبة الحكمة والرأي السديد – التي ملكت أهل مملكتها بعظمتها، لأنها شخصية قادرة حكيمة، وصاحبة سلطان عظيم.(٣)

لقد أظهر الحوار الخارجي بين الهدهد والبطل الرئيس بعض صفات تلك الشخصية الحاكمة، وهذا الحوار رسم بعض ملامحها بصورة غير مباشرةٍ، لأنه جاء على لسان شخصيات أُخر تكلمت عن الملكة، ووصفتها كيف كانت بعرشها. والحوار له دورٌ فعَّالٌ وجماليٌّ في تطور الأحداث القادمة، وكذلك أوضح حال الشخصية الحاكمة كيف كانت تحكم مملكتها بنجاح عند إدارة وظائفها، فبين بعض صفات حركة الشخصية.

(١) سورة النمل، ١٦.

(٢) سورة النمل، ٢٣.

(٣) ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ٣٠١/٣، جامع البيان في تأويل القرآن، ٤٤٦/١٩-٤٤٧، لطائف الإشارات، ٣٣/٣، الكشاف، ٣٦٠/٣-٣٦١.

إن وظائف الحوار – كما قيل من قبل – كثيرةٌ، أبرزها هو الغوص والوصول إلى أعماق الدلالات والمعاني التي يرسمها النص في القصة، فالهدف الفني الأهم في هذا الموقف هو بيان مسألة مهمةٍ جداً، ألا وهي مسألة العلم، وأن العلم مهما بلغ به الإنسان ما بلغ، فإنه لن يصل لدرجة الكمال والإحاطة المطلقة بكلِ شيء، فهذا سليمانعليه السلام وقد أعطاه اللهﷻ ما أعطاه، غاب عنه أمرُ ملكةٍ تقع عنه ليس بكثير، قالﷻ: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾(١). ولم تُعطَ ما أعطاه الله له، ولا الهدهد بأعلم من سيده، إذن هو بيان فني وعلميٌّ قاطعٌ، بيَّنته جماليةُ النص بأن الله يختصُّ من يشاء من خلقه فيُعطيه علماً ومعرفةً أكثر من غيره وإن كان سليمانعليه السلام وهذا طيرٌ بسيط بنظرنا.

لقد كانت أول علامةٍ، أو دلالةٍ على عِظَم الشخصية هي ما كان من وصف خارجي لحال تلك الشخصية على لسان الطير عندما وصِف ملكها، ثم ذكر أنها صاحبة عرش عظيم. هنا تأتي جماليات المكان متناسقةً مع عرش الحكم الذي كان للشخصية، فيكون للمكان دورٌ بارزٌ في بناء القصة؛ لأن المكان هو الوعاء الذي يحتوي ويضم الأحداث لكي تنمو فيه وتتطور، ولا وجود لأيِّ حدث أو موقف من دونه، فضلاً عن دوره المهم في إقامة العلاقات المتبادلة بين الشخصيات. فهو بؤرة مركزية وأساسية تفيض بدلالات تغني أغلب الأطراف الأُخر المكونة للقصص بتلك الدلالات والإشارات النابعة منه، إذ هو إطارٌ غنيٌ بتجسيد المواقف التي تتفاعل بها شخصيات الحدث، فتأتي أدوارها ومهامها المكلفة بها ناضجةً بخصوصيتها المستوحاة منه ومن رمزيته التي تشعُّ بالدلالات الفنية البعيدة المرامي والأهداف بجمالها.(٢) لأن المكان يأخذ جزءاً مهماً من حياة الشخصية، إذ به تبرز مختلف الثقافات التي علاقتها بالمكان ملازمةٌ له، حيث هو الأرض الخصبة لأنواع من الممارسات الثقافية والاجتماعية التي تولد أنماطاً متنوعةً من أساليب التفكير، بحسب قيم كل مجتمع وما يمتلكه من بعد ثقافي وفكري لإيجاد عادات وأساليب مجتمعية تتناسب وحال ذلك المكان وما يحيط به من سلوكيات، فضلاً عن الغايات الأُخر للأمكنة التي تتعلق بثقافة وخلفية الشخصية وأهدافها عند حركتها مراعة له.(٣) إذن

(١) سورة النمل، ٢٢.

(٢) ينظر: الحبك المكاني في السياق القصصي القرآني "سورة يوسف أنموذجاً"، آمنة عشاب، رسالة ماجستير، إشراف: د. عميش عبدالقادر، جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف/ كلية الآداب واللغات- قسم اللغة العربية وآدابها، ٢٠٠٦-٢٠٠٧م، ١٣-١٤.

(٣) ينظر: جماليات التلقي في السرد القرآني، ١٧٠.

فالأمكنة تُصنَع فيها أغلب الأحداث، وتسيرها الشخصية على وفق حالها في هذا المكان أو ذاك.

وجدير بالذكر أنَّ الشخصية في حركتها ليس المقصود منها إبرازها بأنها شخصية معينة باسمها وجسمها، أو ببعدها الخارجي مفصَّلاً، إذ ليس المعول فيها على الأشخاص بذواتهم، وإنما الهدف الأساسي الذي ترتكز عليه القصة – لاسيما القصة القرآنية – هو المضمون الذي تأتي به الشخصية داخل القصة، فتكون الشخصية وجوداً حياً بما صنعت من أحداث بعيداً عن جنس الشخصية، ذكراً كانت أو أُنثى، مع ذكر بعض الصفات الخارجية بالقدر الذي يخدم القصة والهدف المراد، فالسرد القرآني صبَّ جُلَّ اهتمامه على الشخصية من باب منطلقاتها الثقافية التي من خلالها تتحرك الشخصيات داخل أمكنتها التي وُضِعت بها؛ لتكون الأمكنة وسائل إقناع وإدهاش لبعض الشخصيات الأخر التي سوف تستخدم عقلها عندما تتأمل بما حولها، فتعي دلالات ما يحيط بها من إشارات، أخلاقية، وماورائية، ونفسية، ترتبط بجو المكان.[1] وخير ما يُلحظ هنا على شخصية ملكة (سبأ) هو عدم ذكر النص لاسمها، أو ذكر صفاتها الجسدية، مثلاً بوصفها ملكة لها شكلها الخاص ببنيتها العضوية، نحو الطول والقصر، أو الجمال وغيرهما.

بعد الوصف غير المباشر الذي وقع على الشخصية الحاكمة من قبل شخصيات أُخر، بدأ اتجاه السرد يتحول نحو الوصف المباشر لصفات الشخصية وملامحها وما وراء ذلك، قال ﷻ: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ*وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾[2]، فبدأت تتكشف بدايات صورتها وهيأتها الخارجية. ثم تحركت الشخصية الثانوية بسرعةٍ ومن دون إبطاء لتعلم ما الصواب؛ لأن ما تمخض به ذهنها من خلال فكرها المتوقد بالحكمة وحسن الرأي، دليل تدبيرها ورجاحة عقلها قبل أن تملك قومها وتكون ملكةً عليهم.[3] فبعد أن جاءها الرسول علمت بمقدمات ما ينتظرها من مواقف وأحداث، لذلك كانت حركتها نامية بنشاطها وفهمها للأمور

(١) ينظر: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ١١٤-١١٦، قصص القرآن الكريم، ٢٠، جماليات التلقي في السرد القرآني، ١٧٠، ١٧٤-١٧٥.

(٢) سورة سبأ، ٢٣،٢٤.

(٣) ينظر: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ١١١.

جيداً، قال ﷻ: ﴿قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾[1]. هذه الحركة عبَّرت عن دراية ومعرفة الشخصية بسياسة الملوك التي تحكِّم عقلها قبل فعلها أو ردها، فـ ﴿مَا كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾، لا يدل على ضعف الشخصية الحاكمة، بل هي حركةٌ منها ليستشفَّ المتلقي أن هذه الشخصية قبل أن تحكم وتملك، كانت شخصيةً ذكيةً لا يسبق تدبيرَها فعلُها، والرأي عندها أولاً ثمَّ القوة، ولو قيل لماذا أُخفيَ اسم الشخصية ولم يُعلن عنه؟ لكانت الإجابة أن السياق والقرائن المعنوية من بعض الألفاظ أظهرت من تكون تلك الشخصية والمرأة، لأن حركة الشخصية الفكرية والمعنوية هنا ﴿حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾، تُثبت أنها كانت من بيئة تمتعت بثقافةٍ ملكيةٍ كافيةٍ – ومن قبل تسلمها الحكم – تؤهلها أن تمتلك القدرة الذهنية والفكرية في معالجة المشكلات حتى حين وقوعها، فقبل أن تجمع الملأ والقادة من حولها لتستشيرهم في الأمر، لابد أنها قد فكَّرت وحكَّمت عقلها ودرايتها، ومرَّت في ذهنها خواطر وآراء كانت تحوم حول الموضوع، لكنَّ نباهتها وحسن تدبرها أرشداها إلى المشاورة قبل الإقدام، وهذا تحرُّك معنوي من الشخصية لفسح المجال واسعاً أمام عرض الآراء والأخذ بأحسنها، لأن الحركة لدى الشخصيات تتمثل بالانتقالات المادية، مثل حركة الأحداث والزمان والمكان، وكذلك تشمل التحركات المعنوية لديها من الأفكار، والعواطف، والخواطر التي تجول في مخيلة الشخصيات.[2] وهو في ذات الوقت دلَّلَ على أنها شخصيةٌ لم تأتِ للحكم من ثقافةٍ بسيطةٍ أو اعتيادية، بل هي تنحدر من ثقافةٍ متراكمةٍ، وأصل عريق قد امتهن الملك والحكم حتى غدا جزءاً من تكوين بنيتها الشخصية والثقافية والفكرية الواعية لمختلف الجوانب، ليمكنها فيما بعد من إدارة الملك والحكم عند وصولها إليه، والأمر كذلك بالنسبة لها. إذ قيل عنها هي بلقيس بنت أبي سرح، أو اليسرح، وربما بلقيس بنت شراحيل، التي كان أبوها قد ملك أرض اليمن كلها، ولها من الآباء أربعون ملكاً، كلهم ملكوا قبلها، ولم يكن لأبيها ولدٌ غيرها، فغلبت على الملك، وكانت هي سيدةَ قومها، تَمْلِكُهُمْ جميعاً، وما في المملكة من ضخامة العتاد وحسن الآلة، فضلاً عن عظيم قدرها، وعظم خطرها، ويرجع سببُ تسمية مملكتها بسبأ، نسبةً إلى أحد ملوكها، وهو اسم أحد

(١) سورة النمل، ٣٢.

(٢) ينظر: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ١١٩.

أجدادها من الملوك.[١] إذن هي شخصية حاكمةٌ بَنَتْ كيانها من بنيتها الثقافية والفكرية التي اكتسبتها من البيئة الاجتماعية التي وجدت فيها داخل القصور، ومن نشاطها الحركي مع أحداث مملكتها بوصفها شخصية نامية واكبت كثيراً من المواقف التي مرَّت في حكم مَن سبقها، وكذلك ما مرَّ بها في حكمها وهي ملكة وشخصية فاعلة في جميع الأحداث والمواقف. وجديرٌ بالذكر أن هذه الشخصية الحاكمة كانت امرأةً لبيبةً وأديبةً واعيةً في بيت ملكٍ، ملكت من أبيها وأهلها سلطة الحكم، لكنها ساست بعقلها وحِكمتِها حتى أحكمت بناء شخصيتها وبنيتها الثقافية، فأدت دورها بنجاح وإتقان، إذ كانت قارئة وكاتبة أتقنت من اللغات ما ساعدها على معرفة ما يأتيها من كلام الملوك والشخصيات الأُخر، حتى أن سليمان عندما كتب لها وذكر السلام والتحية على من اتبع الخير والهدى، عرفت أن تقرأ كتابه قبل أن تُخبر قومها.[٢] فهي إذن شخصيةٌ متمكنةٌ عالمةٌ ببعض ما حولها من العلوم والمعرفة، فضبطت تحركاتها ونشاطها بصورة تدريجيةٍ بدءاً من حركتها المعنوية والفكرية عند مشاورتها للقوم، ثمَّ اتجهت بعدها إلى حركتها الفعلية والعضوية بعد سماع رأي قادتها الذين تَحْكم بنيتهم العقلية والجسدية القوةُ والسلاح، لأنهم قادةٌ وأُمراء ثقافتهم الأوامر والعُدَّةُ والدفاع عن الأوطان، فقالوا من وجهتهم وثقافتهم العسكرية، قالﷻ: ﴿قالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾[٣]. هنا تُوضعُ الشخصية بين أمرين: القوة والحرب للدفاع عن الأرض والعرش، أو المسالمة والمهادنة ودفع الضرر. وتبدأ بذلك حركة الشخصية المادية فيقع اختيارها المهادنة والتلطف قليلاً لمعرفة الخصم، فتقوم بحركةٍ تبعث على السلام ونبذ الحرب والقتال. تقول لهم بحسب رأيها، قالﷻ: ﴿قالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً وَكَذلِكَ يَفْعَلُونَ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُون﴾[٤]. هنا ربما تظهر صفات الشخصية بوضوح، هل هي فضَّلت السلام وترك الحرب بناءً على طبيعتها التكوينية التي تعلوها العاطفة والمشاعر، ونبذ العنف؟ أم هي شخصية أُنثوية لا تميل إلى القوة، ولا إلى القتل والقتال في حلِّ مشكلاتها؟ أو أنها علمت أنها لا قِبَلَ لها بمواجهة ذلك الملك العظيم الذي له ملكٌ واسعٌ من الأرض، ويملك من الجند والعُدَّةِ ما لا طاقة

(١) ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ٣٠١/٣، جامع البيان في تأويل القرآن، ٤٤٦/١٩-٤٤٧، لطائف الإشارات، ٣٣/٣، الكشاف، ٣٦٠/٣.

(٢) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، ٤٥٦/١٩، الكشاف، ٣٦٤/٣.

(٣) سورة النمل، ٣٣.

(٤) سورة النمل، ٣٤ - ٣٥.

لها به، فبان ضعفها بكلتا الحالتين. نعم يبدو أنها على يقين من ضعفها وعدم قدرتها العسكرية على مواجهة جيش الخصم، قال﴿ﷻ﴾:﴿قالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً وَكَذلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[1] فضلاً عن عدم رغبتها بالقتال بناءً على طبيعتها التي لا تهوى العنف، بحسب الفطرة التكوينية التي فطر الله النساء بها، وهو ما عليه جلُّ النساء إن صح القول.

إنَّ طبيعة المرأة كما قيل من قبل، تختلف عن الرجل، فهي مختلفةٌ عنه في تكوينها وبعض استعداداتها الخاصة، فضلاً عن بعض وظائفها التي عُرفت بها، وبحسب تلك الطبيعة التي تتميز بها، فإنه لا يلائمها القتال والحروب وهي مصدرٌ للحياة والعواطف الخلَّاقة، لذلك يقع التناقض هنا بين طبيعتها المملوءة بالحياة والخلق الجديد، وبين أن تصبح قاتلةً. لذا لم يجعلها القرآن في قصصه إلا عنصراً أصيلاً يأخذ مكانته في كلِّ موقعٍ يوضع فيه بناءً على الحدث الذي يقتضيه وجودها بوصفها إنساناً له إنسانيته أولاً، ولأنها مرأة لها طبيعتها المعينة ثانياً، لذلك نجد مكانتها في القصص القرآني شخصيةً يعتدُّ بها ويعبر عنها بفكرها المستقلِّ وإرادتها المتحررة، وبوصفها امرأةً صاحبة حكمة ومعرفة حصيفة، فهي لها رأيها الذي تفرضه قبولاً أو رفضاً لا جبر فيه، لأنها إنسانٌ عاقلٌ ورشيد يُميز ببصيرته وعقله مواطن الخير من الشر، وهو مناط التكليف.[2] إذن بحسب التكوين الطبيعي لها فهي تختلف، لكننا نجدها في قصص القرآن وقد جاءت بمختلف الحالات التي تقتضيها طبيعة القصة، ونوع الحدث الذي تقتضيه القصة نفسها. فمرَّةً نجدها المرأة المخالفة للسنن الإلهية الحقَّةِ والواضحة وضوح الشمس، بسبب ضلالها وعدم وعيها، كما في مثل امرأتي نوح ولوط (عليهما السلام)، قال﴿ﷻ﴾: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾[3]. ومرَّةً تجد المرأة التي تضرب مثلاً رائعاً لصفاتها وعفتها وحسن طبيعتها، كبنتي شعيب﴿عليه السلام﴾، قال﴿ﷻ﴾: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾[4]. ثمَّ المرأة التي يُسيرها الهوى، وتغلبها الشهوة، وتدفعها العاطفة والحب، فتميل كلَّ الميل بمكرها وحيلها الأُنثوية، قال﴿ﷻ﴾: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي

(١) سورة النمل، ٣٤.

(٢) ينظر: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ١٠٥-١٠٦، سيكلوجية القصة في القرآن، التهامي نقرة، رسالة دكتوراه، الحلقة الثالثة، جامعة الجزائر، الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧١م، ٤٠١.

(٣) سورة التحريم، ١٠.

(٤) سورة القصص، ٢٥.

بَيْتِها﴾[1]. ثمَّ المرأة بعاطفة الحنان والأمومة بتعطفها على الطفولة فيخفق قلبها حباً له، قال ﷻ: ﴿لا تَقْتُلُوهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾[2]. ومن ثمَّ نقف على اللون الذي نجد المرأة فيه ملكةً رشيدةً قويةً بعقلها وحكمتها وحسن بصيرتها، وتعقلها الذي أورثها تدبيراً ودرايةً أهَّلَتاها أن تكوِّنَ شخصيتها المستقلة والقادرة على مواجهة شتى المخاطر التي تُحيط بمملكتها وقومها، فرأت أن تُحذر أولاً، ثم تتخذ القرار ثانياً فجرى على لسانها، قال ﷻ: ﴿قالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها﴾، فما كان ذلك من ضعف الشخصية الحاكمة، بل هي خططت وزانت آراءً كثيرةً حتى توصلت لنتيجةٍ مرضيةٍ، ثمَّ قررت بعدها، ذلك ما دلَّ عليه النص بحديثها، قال ﷻ: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَناظِرَةٌ﴾، ولعل الأمر هنا متعلِّقٌ بشيءٍ من طبيعة المرأة الأُنثى التي تُعرف بأنها لا تيأس بسرعة، وأن من طبيعة النساء تحاول وتحاول، حتى أنها أحياناً تُماطلُ أكثر من غيرها، لكي تحقق مرادها – وهو شيءٌ قائمٌ في النساء وإلى يومنا هذا – لأنه معروفٌ عن المرأة أنَّ أملَها لا ينقطع بسهولة، لذلك نجدها في الأمور التي تعنيها وتهتمُّ بها تصبر كثيراً، إذ هنا انتظرت ﴿فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾، وهذا حُسنٌ من الشخصية الحاكمة، ودليلٌ على خبرتها التي اكتسبتها من سياسة الملوك، وثقافة الشخصية التي انبنت منها شخصيتها وحركتها النامية والمتطورة، فهي إذن شخصيةٌ نموذجيةٌ نمطيةٌ، مثلت نمطين في آنٍ واحد، الأول: نمطية الملوك العارفين بحوادث الخطوب، ونمطية المرأة القادرة على القيام بما يقوم به غيرها من الرجال – وهم الأغلب – لتمثل شخصيتين معاً عبر أفعالها والأدوار التي قامت بها بنجاح.

لقد تحددت شخصيات القصص القرآني عموماً، بأنها إما تكون إيجابيةً، وإما سلبية. وشخصية الملكة كما يُلحظ أنها بدأت سلبيةً كافرةً تُداري بحركتها خصومها، لتدفع عنها شرَّهم، لأنها حتى لقائها بشخصية البطل الرئيس، كانت معاندةً على معتقدها ولم تغيره، لكنه قد أراها عرشَها لتؤمن به، قال ﷻ: ﴿وَصَدَّها مَا كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرِينَ﴾[3]. وهذا الأمر دليلٌ على عدم ضعفها، أو أنها دفعتها عواطفها ومشاعرها، لأنها امرأة لا تقوى مع الحكم والقوة بحكم عاطفتها، بل هي إلى الآن شخصيةٌ تسير بحكمة عقلها وتفكيرها، مع اختلاف نوع الصدِّ هذا منها، سواءً كان عن الإيمان بالله، أو الإيمان بما رأت من قوةِ شخصية البطل

(١) سورة يوسف، ٢٣.

(٢) سورة القصص، ٩.

(٣) سورة النمل، ٤٣.

وسلطته العظيمة، لأن أغلب النصوص المفسرة للنص ترى أن ما صدَّها ليس جهلها ولا قلة عقلها، بل هي كانت على دين ثمَّ تفكَّرت قليلاً بدين الله وسليمان عليه السلام، حتى أخذت الأحداث تتداخل عليها مما رأت، لذلك أمرت الشخصية الرئيسة بجلب عرشها ليقع التأمل منها أكثر، وتعي ما حولها بذكائها، ثمَّ عرض السؤال عليها ليعرف ما مدى سعة علم تلك الشخصية الحاكمة ونباهتها، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جاءَتْ قِيلَ أَهكَذا عَرْشُكِ قالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾[1]، بذلك ستُجيب الشخصية حتماً بشيءٍ ما، فيقع الاستدلال لدى البطل عنها لما قصد، وكأنه تدرجٌ لاستدلالات الشخصية بأفكارها أنها تعقل ما سترى شيئاً شيئاً، لِتعِيَ سلامة دين البطل.[2] وعدم الوقوع في هزَّةٍ كبيرةٍ تتفاجأ بها دفعةً واحدةً لتغيير دينها، وحتى لا يكون وقعُ ما سوف تُؤمر به عليها صعباً وصاعقاً؛ لأن تغيير الدين وما يعتقد به الإنسان لا يُغير بين ليلة وضحاها عند جميع الناس، فكيف بشخصيةٍ حاكمة ينظر إليها قومُها ورعيتُها من مرتبةٍ أعلى تمثل الإله في الأرض، فضلاً عما يجول في داخل الشخصية نفسها من خواطر وأفكار تتنازعها بشتى الهواجس التي تكون الشخصية فيها بتلك الحال. وبعد ذلك كله ترجع بنا هندسية القصة وشكلها المعماري الجميل ليذكرنا بشاعرية المكان وخصوصياته الرائعة والفنية التي تبعثُ بروح الاطمئنان والراحة لدى الشخصية الحاكمة، وكذلك عند المتلقي؛ لأن المكان وجماليته لهما أبعادٌ كثيرةٌ تجاوز حدود الإطار الشكلي الذي تتحرك به الشخصية بأحداثها، فهو يحمل دلالات ورموز من خلال علاقات الإنسان المتنوعة، لأنه تعبيرٌ عن مختلف الأبعاد الإنسانية، بدءاً من الأبعاد النفسية الباطنية المستورة، وكذلك الأبعاد الاجتماعية والثقافية والمعرفية التي تجلبها الأمكنة لأفكار الشخصية، فهو ذلك الإبداع الفني الخارق للأعماق والدلالات البعيدة، لأن وجوده هدف داخل القصة، يجمعُ جوانب عديدةً من الإثارة والتشويق والمتعة للمتلقي عندما يقع السأمُ أو الملل عنده، وفضلاً عن ذلك فإنَّ المكان القرآني له ميزةٌ أدبيةٌ مع اختلافه في جوهره عن المكان الخيالي، إلا إن لكليهما تأثيراً بارزاً في بناء القصة وبيان أحوالها وجوانبها المتنوعة في رصد طبائع الشخصيات

(١) سورة النمل ٤٢.

(٢) ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ٣٠٨/٣، جامع البيان في تأويل القرآن، ٤٧٢/١٩، لطائف الإشارات، ٤٠/٣، الكشاف، ٣٦٩/٣-٣٧٠.

واختلافها.[1] قال ﷻ: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2]. فجماليات المكان وخصوصياته تجزأت، أولاً: الصرح العظيمُ، وفيه اللُّجةُ الجميلةُ، التي دلت على عفوية الشخصية في حركتها فيما بعد، حيث بينت حركتها ما عليها من رداء الملوك الفخم والطويل المتدلي على جانبيها، فرفعته قليلاً عندما حسبت ما تحتها ماءً، وهنا حركة جميلة يرسمها القصص القرآني مبيناً ما كانت عليه تلك الشخصية النسائية، أو النساء بصورة عامة من اهتمام بمظهرها ومراعاة الهيأة والجمال – الذي نسميه حديثاً بجمال الذوق – وهو ربط فني قصصي رائع من الواقع إلى أحداث القصة على الرغم من صعوبة المواقف والاختبارات التي مرَّت بها الشخصية خلال رحلتها ودخولها قصر البطل، ثُمَّ صرحٌ ممرَّدٌ، ومن قواريرٍ تُطير العقل، وتُشعر النفس بجمالِ صنعها وبريقها الفاتح للنفوس وتطييبها بذوق الصانع والمالك لها. وهكذا تصل جماليات ذلك المكان ونفحاته إلى روح ونفس الشخصية الحاكمة التي في النهاية وبحسب كلِّ ما امتلكته من بنيتها الثقافية والفكرية، ومعرفتها الفعلية الواقعية من تجارب مرَّت بها وتبيَّنت صحتها، أن تسلك الطريق الإيجابي الذي أنار طريقها وصحح نظرة عقيدتها لِتفيءَ إلى رشدها، وتتبذَ سلبيتها الماضية، قال ﷻ:﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[3]. فأضاءت لنفسها كي تشرق بهداها، الذي يُضيءُ شخصية البطل الرئيس من جديد، وعلى لسان وفعل شخصية حاكمة أُخر، تشابهت معه ببعض الصفات في الحكم، فكانت جديرةً أن تقترب من الشخصية الرئيسة، مع أنها شخصيةٌ غيرُ رئيسةٍ عملت بشيءٍ قريب من النمط نفسه لشخصية البطل.

(١) ينظر: الحبك المكاني في السياق القصصي القرآني "سورة يوسف أنموذجاً"، المقدمة أ، الدور الوظيفي للمكان في القصص القرآنية على ضوء البنيوية التكوينية "قصة نبي الله موسى عليه السلام أنموذجًا"، كبرى روشن فكر، وعدنان زماني، و يوسف غرباوي، مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية، مجلة علمية دولية محكمة تصدر شهريا، ع: ٤٣، لسنة ٢٠١٨، ١٠١-١٠٢.

(٢) سورة النمل، ٤٤.

(٣) سورة النمل، ٤٤.

الفصل الثالث

الشخصيات الثانوية النِّسائية

المبحث الأول: شخصية الزوجة

المبحث الثاني: شخصية امرأتي نوح ولوط (ع)

المبحث الثالث: شخصية امرأة فرعون

المبحث الرابع: شخصية امرأة العزيز

المبحث الخامس: شخصية الأُم

المبحث السادس: شخصية الاخت

المبحث السابع: شخصية مريم(ع)

مُدخــل:

إن نسج خيوط القصة يبدأ من حسن فكرة كاتبها عندما يُريد لقصته أن تشتمل على تنوعٍ وتعددٍ لمقومات وعناصر بناء القصص، فالعناصر بتناسقها وتداخلها مع بعضها تجعل منها قصةً قويةً مترابطةً، وممزوجةً بألوانها الجمالية التي يقع في مقدمتها تنوعُ الشخصيات وتكامل بعضها ببعضٍ في النوع والجنس، كما هي حال شخصية المرأة داخل القصة القرآنية، التي تأتي بدورها المتميز والناضج في أفعالها وحركة نشاطها التي تقع عليها. فالمرأة فيها عنصرٌ أصيلٌ ولها مكانها القصصي الخاص؛ لأنها إنسان له شخصيته التي يعبر عنها، وكذلك فكره المستقل والإرادة الحرة، وبوصفها امرأة لها خصائصها التي تحركها وتحرك نشاطها ليدفعها نحو وظائفها، فضلاً عن أُنوثتها التي تدخل في نطاق وظائفها المتعددة ضمن الحدث القصصي وديمومته؛ لأن شخصيات أية قصةٍ لابدَّ أن تُرسم بطريقة حيةٍ تجعل منها شخصيات مشبَعةً بالحياة وصادقةً في تحركها، ونجاح الشخصية يكمن في إمكانياتها، وطاقاتها الكامنة فيها، وما تحمله من فطنة وأحاسيس داخلية تُبيِّن خفاياها.[1] ومتى تقلصت شخصيات القصة على نوعٍ معين من الشخصيات، فإنها تبعث على الملل والضجر، حتى يصبح القارئ على عجلٍ لإنهاء تلك القصة، لذلك يكون التنوع في الشخصيات داخل القصة أمراً محبباً لدى كلِّ الأطراف التي تشارك في القصة، بدءاً من الكاتب وانتهاءً بالقارئ، إلى استخلاص النتائج.

(١) ينظر: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص١٠٥، الفن القصصي في القران الكريم، محمد أحمد خلف الله، ط٤، دار سينا للنشر، ١٩٩٩م ٩١-٩٢، سيكلوجية القصة في القرآن، ٤٠١، ٤٠٦.

المبحث الأول

شخصية الزوجة (حواء)

هي الشخصية النسائية (الثانوية) الأُولى في القصص القرآني، برزت هذه الشخصية عنصراً مكملاً للشخصية الرئيسة ومساعدا له، إذ كان لكثرة تحرك البطل الرئيس، واضطلاعه بأغلب الأدوار المكلف بها، والخاصة بأجواء الحدث داخل القصة، دورٌ جعل من شخصية زوجة آدمعليه السلام تبدو على نطاق ضيق أو محدود بعض الشيء، على خلاف الشخصيات الأُخر التي كان دورها أكثر حركةً مع حركية وسير الأحداث وتتابعها، وكذلك آثارها. قالﷻ: ﴿وَقُلْنا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْها رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما وَلا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[1].

تتغير الأحداث مع ظهور شخصية جديدة، ألا وهي الشخصية المساندة للبطل كما وردت في النص القرآني، وقد ذكرت بعض التفاسير أن اسمها (حواء)، ولكن الذي يبدو على هذه الشخصية بروز أحداث وأشياء جديدة تهتم أكثر فأكثر بالشخصية الرئيسة، فالملاحظ أن الحدث الجديد الذي بدا جلياً معها هو اقتران آدمعليه السلام ببيئة جديدة هي الجنة، وهذه الجنة لم يسكنها وحده، بل مع شخص جديد هو زوجه حواء.

كان اقتران السكن والمأوى والاستقرار الجديد مع ظهور هذه الشخصية مباشرةً، لذا دلت (زوجك) على ذلك المنزل والمأوى الذي سيتخذه آدمعليه السلام مع حواء التي خُلقت بعده لتكون أُنساً له في تلك الجنة، وحواء كما قال بعض المفسرين أنها سميت كذلك؛ لأنها خُلقت من شيء حي ليسكن اليها آدمعليه السلام ولا يبقى وحيداً[2]، فهي إذن شخصية ثانوية مهمةٌ تجاوزت إكمال دور الشخصية الرئيسة بمساندتها في كلِّ شيءٍ، لأنها شاركته بصميم أحداث قصة الجنة وحركته فيها، ثم انتقلت معه فيما بعد تشاركه الأحداث اللاحقة حتى النهاية، التي تبعث على أهمية

(١) سورة البقرة، ٣٥.

(٢) ينظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد، ١٢١/١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، تح: محمد حسين شمس الدين، ط ١، دار الكتب العلمية- منشورات محمد علي بيضون– بيروت، ١٤١٩هـ، ١٤١/١.

الحدث الجديد في القصة وتطورها، وامتدادها ليكون المكمل لبقية الأحداث القادمة التي سوف تأتي في بيئات وأجواء مختلفة، وماذا بعد الشقاء الذي حذرهما الله منه، بعد السعي في توفير متطلبات الحياة الجديدة، غير التعب وبذل المجهود في كل نواح الحياة، قالﷻ:﴿ يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾(١).

لقد كان وجود هذه الشخصية الثانوية ذا أهمية في وضع مصير البطل على المحك- خصوصاً عند الاختبار الذي حدث لآدمعليه السلام – عندما تمت الوسوسة من الشيطان إليهما، وهذا تبين جلياً عند الطموح الذي بدا في الشخصية الرئيسة حين قالت عنه الآيات المباركات: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾(٢). وقولهﷻ: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾(٣). فمما زاد من تطلعات الشخصية الرئيسة أنها بدأت تتطلع لما هو أكثر من الجنة وسكناها، خاصةً بعد وجود وظهور الشخصية الثانوية (حواء)، لذلك أخذت تبحث عن النعيم الأوفر والأطول- كالخلد والملك الذَّين نصَّت عليهما الآية- بسبب الوجود الجديد لـ (زوجة)، فكأن الشخصية الرئيسة ومن خلال البنى الفكرية والعقلية التي تمتلكها أحسَّت أو أدركت الحاجة الى شيء كثير، أكثر مما سبق لإنشاء وجود متصل يكفل هذا الامتداد البشري فيما بعد، إذ هو حساب مادي بشري يميل لتوفير الحاجات لهذا الخلق الجديد وغيره، تأثراً بما تفرضه الضرورات القادمة للحياة، وتماشياً مع الفكر الذي يحكم المجتمع بهذه النظرة. ومن المعلوم أن "كل سوسيولوجيا للفكر تقبل بوجود تأثير للحياة الاجتماعية . . . وبالنسبة للمادية الجدلية، فإنها تعتبر ذلك مسلمة أساسية، مع الحاحها بصفة خاصة، على أهمية العوامل الاقتصادية والعلاقات بين الطبقات الاجتماعية"(٤). وهذا ما بدا أثره أيضاً على شخصية امرأته وزوجته حين شملها بيان النص عن تلك العوامل الاجتماعية والمادية، على اختلاف تأويلها، قالﷻ: ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ﴾(٥). إذن يكون تحرك شخصية الزوجة هو من دافع حرصها على أُمور الحياة

(١) سورة طه، ١١٧.

(٢) سورة طه، ١١٧.

(٣) سورة طه، ١٢٠.

(٤) البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، ١٣.

(٥) سورة الأعراف، ٢٠.

وحاجاتها، وكيف تمتلكها، لذلك خاطبها النص بذكر المكانة وعلوها، فضلاً عن ذكر قضية الخلود بالحياة ونعيمها، وهو غاية كلِّ أبناء البشر وإلى يومنا هذا. وقد قيل عن (ملكين وخالدين) أنه قصد المُلكَ والتملك في الحياة، وأنهما سيكونان باقين ومن معهما مدى الحياة إلى قيام الساعة، عندها لا تموتان أبداً، لأنكم خالدون ولكم كلُّ شيءٍ تطلبونه.[1] بهذا تكون المكانة بالنسبة للزوجة مهمةً في تلك الحياة، وكذلك نلمح سعيَ الشخصية نحو الملك والخلود، وحب الجاه لتهيئة العيش الجيِّد، من اقتران الشجرة بالخلد الذي دلَّ على رغبة الشخصية بالبقاء وحبِّ الخير من النعم، قال ﷻ: ﴿قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾[2].

يبدو أن شخصية (حواء) وما لها من ارتباطٍ وثيق بشخصية آدم عليه السلام من جهة، وتوجهها البشري نحو الحاجات المتعددة من جهة أُخرى، يبيّن أن الأفكار التي تحملها الشخصية بداخلها ستميل لاختيارها، لأنها من نسيج يحمل ما تحمله الطبقة التي سوف تنتمي اليها هذه الشخصية النسائية فيما بعد، وهي جزءٌ منها. فكان مبدأ (حرية الاختيار) أحد البنى الفكرية التي تمتعت بها هذه الشخصية، وكان جزءاً من نسيجها الفكري وثقافتها المحبة لجلب الملك، والخُلد الذي تنشده، وهو تأثرٌ عملي قد تكون شخصية البطل تركته عليها. وإن كان هذا المبدأ في نظر (القديس أوغسطين) واحداً من القوى التي خضع لها آدم عليه السلام، وهي قوى متنوعة تمتعت بها الشخصية الإنسانية منذ الخلق الأول، وقد أُختلِف في مبدأ حرية الاختيار بين الملائكة وبين آدم عليه السلام مثلاً، وكان وجوده في آدم أمراً ضرورياً يدخل في أعمال الخير والمنفعة[3]، والذي بدوره أورثه هو لمن بعده، حيث بدأً تأثيره بالشخصية الثانوية الأُولى والأقرب إليه (زوجته) التي شاركته وساعدته في كلِّ خطواته. إذن هو مبدأ ملزمٌ ومجحفٌ بحقِّ الشخصية، إذ أخضع آدم وزوجه عليهما السلام وأذلهما عندما اختارا الشجرة، أي أبعدهما عن منبع الخير وفيوضاته والمنفعة التي لا تنضب أبداً، ولم يغدو ضرورةً للخير والنفع، فبإخضاعه للشخصية الإنسانية الأُولى سلبَ حريتها ولم يُعطِها هذا المبدأ. يبدو على أُغسطين أنه نظر للشخصية من منظرِ التسلط والقوة المتجبرة التي كانت

(١) ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ٣٢/٢، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، ٣٥٦/٢، الكشاف، ٩٥/٢.

(٢) سورة طه، ١٢٠.

(٣) ينظر: الإله المحتجِب، ٢٨٧.

تستعملها الكنيسة حين تريد فرض سلطتها ونفوذها على الجميع بجبروتها[١]، ومن واجهة عليا هي الدين وعدم الرد على ما يقول دين الكنيسة.

لقد كانت هذه الشخصية الثانوية النسائية واضحةً منذ الظهور الأول لها في القصة، فلم يحتج اكتشافها الى مجموعة جمل، ولا الى تعمق أوسع لفهمها ومعرفة دورها بأدق تفاصيله خلال القص، بل إنَّ القارئ يكتشفها بمجرد رؤيتها من خلال قراءة الجملة الأولى التي وردت فيها الشخصية الثانوية (الزوجة) التي رافقت البطل في أحداث مسيرته. إذ يطلق على هكذا شخصيات محددة الأدوار وقليلة الحركة بـ (الشخصية المسطحة) التي تكتفي بدور أو دورين صغيرين بحسب حجم الشخصية خلال العمل، والدور الذي أُعطي لها. إذ من صفاتها أنها لا يُغيرها تغيُّر الأحداث، فهي تبقى ذات سلوك وفكر واحد، وتصرفاتها معلومة لقارئها، واذا حدث تغير ما فهو يحصل خارجها برغم تغير علاقات بقية الشخوص في الرواية.[٢] وهذا نجده في شخصية الزوجة التي حافظت على مكانها ولم تتجاوزه، لأنها شخصية كيَّفت حالها ودورها في ضوء حركة الشخصية الرئيسة، فهي شخصية متكيِّفةٌ مع طبيعة الأحداث التي عصفت بالبطل، وهي في الوقت نفسه تابعةٌ له وغير مستقلةٍ عن ذاته، مؤمنةٌ بما يؤمن به، متحركةٌ في نطاق حركة البطل، لم تخرج عن نطاق حركته في مواجهة المواقف التي مرَّ بها. فهي كما قيل عنها قد أدت دوراً فاعلاً ومميزاً في بعث الحركة والحيوية داخل العمل القصصي، أو أنها تعمل خادمةً للشخصية الرئيسة، ودورها يكون عرضياً وتابعاً له، لأنها أقلُّ عمقاً وأثراً من الرئيسة، بفعل حركتها المحددة في المشاهد التي تظهر بها من حين إلى آخر.[٣] لكنها، أي – الشخصية الثانوية المسطحة – قد تكون متحركةً ومتطورةً لو أنَّ النصَّ شرح أكثر عن تفاصيلها فيما بعد مع البطل، وكيف تحركت خلال مجريات حياتها معه، لا سيما بعد هبوط الشخصية الرئيسة إلى

(١) ينظر: المدرسة الإسلامية، الشهيد محمد باقر الصدر (قدس)، ط١، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي- مطبعة الأمير- العراق، ٢٠٠٣م، ٧٩.

(٢) ينظر: في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، ص٨٩، الأب في الرواية العربية المعاصرة، ص ١٦٩، مدخل الى تحليل النص الأدبي، ١٣٤.

(٣) ينظر: تحليل النص السردي، ص ٥٧، البنية السردية (المكان- الزمن- الشخصيات) في رواية الأعظم لإبراهيم سعدي، رسالة ماجستير، إعداد الطالبتين: مهاجري ليندة، مرار صورية، إشراف: الأستاذ سعيد إباون، جامعة بجاية- كلية الآداب/ قسم اللغة والأدب العربي، ٢٠١٣- ٢٠١٤م، ٥٣.

الأرض، وممارسته لتجربة جديدة وهي معه، لكنَّ ما خفي من تلك التفصيلات والأحداث اكتفى بأن تبقى الشخصية محدودة ثابتةً ضمن إطارٍ معين.

المبحث الثاني

شخصية امرأتي نوح ولوط (عليهما السلام)

هما شخصيتان نسائيتان اندمج عملهما فأصبح يمثل شخصيةً واحدةً في طريقة السلوك والعمل المتبع في نشاط الشخصية الواحدة التي تمثل حركتها القائمة بها. فهذه الشخصية الثانوية تميَّزت بسلبيتها الواضحة من أول وهلةٍ خلال حركتها التي قامت بها، قالﷻ: ﴿ضَرَبَ الله مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ امرأت نُوحٍ وامرأت لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ الله شَيْئاً وَقِيلَ ادخلا النار مَعَ الداخلين﴾[1]. لتدُلل على قوةِ الشخصية في معتقدها الضَّال، وهدفها الذي تراه بحسب بنيتها الفكرية الكافرة سليماً؛ فتعمل على مواصلته بشدة عند تحركها بالضدِّ من الشخصية الرئيسة وأهدافها السامية، فالذي أُخفي من النص شاهدٌ على سلوكها، إذ كانتا تعملان مع القوم الكافرين وما يروه مناسباً لصالحهم، ﴿ضَرَبَ الله مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، فهما تمثلان المجموع في العمل والسلوك المعاند، إذن كان هناك عملٌ دؤوبٌ في الخفاء تقوم به الشخصية من وراء البطل، وهو يمثل كلَّ الاتصال والحوار بين الشخصية والقوم لإفساد جهود البطلين وهلاكهما، وهنا يلاحظ أن الشخصية قد وقفت موقفاً "تبدو فيه المرأة وكأنها خارجةٌ عن طبيعتها، منحرفةٌ عما ينبغي أن يكون منها من القيام وراء رجلها"[2]. وهو الشخصية الرئيسة التي لها الدور الأبرز في تصحيح أعمال العباد جميعاً. وهذا الأمر إن دلَّ على شيء فإنه يدلُّ على حال الشخصية كيف يبدو بموقف الخلاف والعناد الكافر الذي يَقلِبُ كيان الشخصية من الحالة العاطفية والحميمية التي يجب أن تعيشها المرأة مع زوجها وتناصره، إلى الكيان المعادي المتربص بالبطل، وتشجيع الشخصية على قيام جبهةٍ معادية تحارب بها مع المجموعة الكافرة التي تنتمي إليها، فيكون أول همها فناء البطل والإيقاع به، وترك نور الهداية الذي يُحيطُ بالشخصية الرئيسة بسبب جهلها وتخلفها عنه.[3] وبهذا يُستشعرُ وجود لونٍ من الحرية العبادية لدى الشخصية بعيداً عن مسألة الانتساب الزوجي وقضية الإلزام القهري في اتباع العقائد

(١) سورة التحريم، ١٠.

(٢) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ١٠٧.

(٣) ينظر: م. ن، ١٠٧، سيكلوجية القصة في القرآن، ٤٠١-٤٠٢.

واعتناقها جبراً؛ لأن ذلك الانتساب لا يكون "عنصراً في تكييف المصائر العبادية للإنسان فقد يكون الزوج مؤمناً وامرأته فاسقةً . . . فلا يتوقف هدى الزوجة على المقدرة الشخصية للزوج"[(١)]. بهذا تكون الشخصية النسائية هنا قد أحكمت عنادها وسارت بضلالها ضدَّ البطل، لا لضعف الشخصية الرئيسة، وإنما بحسب تمادي الشخصية عند تجاوز حدودها والخروج عن جادة الصواب، وكذلك فعلت هنا عندما تآمرت للإيقاع بالبطل الرئيس.

إن السلوك السلبي لدى هذه الشخصية لم يكن سلوكاً فردياً منها فقط، بل هي مثَّلت سلوك طبقةٍ كبيرةٍ من الناس تواطؤا عليه واتفقوا أن يكون كلُّ فردٍ من هذه الجماعة ممثلاً عنهم جميعاً، وهذا السلوك الجماعي يعبر عن وحدة المصالح واتفاق الأهداف، وهو مما أشار إليه البحث سابقاً من أن المنهج التكويني ينظر لسلوك الفرد بأنه يمثل حالة الطبقة التي ينتمي إليها بمختلف جوانبها الفكرية والثقافية والاقتصادية وغيرها. لذلك يُفسَّر هنا تخلي شخصية البطل عن تلك الشخصية الثانوية وسلوكياتها – وهما من أقرب الناس إليهما – بأنه محق؛ لأنه يعلم أن المرأة تنفذ عملاً هو أوسع من نطاق تحركها معه، وهم قومه الكافرون، لذلك لم تنفع صلة القرابة بين الشخصيتين مع اختلاف الهدف، وعدم مشاركته الإيمان برسالة السماء، فانتهت حركة الشخصية سلبيةً مثلما بدأت سلبيةً مع البطل الرئيس، ومما أكد ذلك هو وقوع الجزاء الذي جاء فيما بعد، وختم عليهم بأنهم مجرمون، قالﷻ: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾[(٢)]، أي: قوم لوطٍ الذين كانوا جمعاً وكانت امرأته من ضمنهم لمشاركتها أعمالهم وإفشاء سرِّ زوجها لهم، فكانت الشخصية مع كلا البطلين خائنةً بإفشاء سريهما، فأرهقتاهما بالتكذيب وبالمعاصي التي اقترفتاها مع النبيين، فضلاً عن أنهما كانتا تبعاً لقومٍ ذوي جرائم متعددة، من كبار المعاصي من كفر وعصيان.[(٣)] إذن كانت تلك الطبقة الاجتماعية متماسكة في أفكارها واتجاهها العملي والعقائدي، ومنها بنت الشخصية بنيتها الفكرية الكافرة، وفي ضوئها تحركت مبيِّنةً أبرز ملامحها الشخصية

(١) التفسير البنائي للقرآن الكريم، ٦١.

(٢) سورة الحجر، ٥٨، سورة الذاريات، ٣٢.

(٣) ينظر: التيسير في أحاديث التفسير، محمد المكي الناصري (المتوفى:١٤١٤هـ)، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان،١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، ٢٩٢/٢، ٩٠/٦-٩١، تفسير الشعراوي– الخواطر، ٧٧٢٩/١٣، صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، ط١، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م، ١٠٥/٢-١٠٦، ٢٣٦/٣، القصص القرآنية، ٤٩، ١١٩.

والثقافية المخالفة للصواب، فهي شخصية مسطحةٌ، أو شبهناميةٍ تقريباً، سارت باتجاه واحد لا تكاد تفارقه، عُبِّر عنها بجملةٍ، أو لنقل بجملٍ قليلةٍ جداً. ويرى (فورستر) أنها ليست معقدةً جداً، تدور في أدق تحركاتها حول فكرة معينة أو صفة محددةٍ، ولا يحتاج تقديمها لمرات متعددةٍ، ولا تحتاج إلى رعايةٍ خاصةٍ لتتطور، والقارئ لها لا يحتاج إلى عناءٍ لتذكرها، لأنها باقيةٌ في ذاكرته ولم تغيرها الظروف كثيراً.(١) وهو ما ينطبق على شخصية (المرأة) هنا، فهي مثَّلت حالةً طبيعية بقيت ثابتةً عليها، ولم تغير شيئاً من سلوكيات تحركها حتى نهايتها، قال ﷻ: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾(٢). إذ تتجسد حركة الشخصية الثابتة هنا من حيث أنها لم تتطور كثيراً أو تتعمق في أدائها لوظائفها؛ لأن لفظة ﴿الْغَابِرِينَ﴾ فيها شيءٌ من الإقامة والمكث في المكان، وهو يدلُّ على قلة حركة الشخصية فكرياً وانغلاقها على كفرها.(٣) فضلاً عن عدم تحركها بوظائف متنوعة ومتعددة تجعل نشاطها أوسع وأعمق، أو قابلاً للتطور أكثر؛ لأنها شخصية حركية نامية متطورة، لذلك كان توجهها أمراً طبيعياً لا غرابة فيه ولا إدهاشَ للقارئ. والشخصية عندما لا تُدهشُ أو لم تكن مقنعةً، فهي لا تمثل اتساعاً في الحياة؛ لأن حركتها الوظيفية محددة ومقيدةٌ نحو اتجاه معين لا تتطور إلى غيره.(٤)

(١) ينظر: أركان القصة، ٨٣ – ٨٥.

(٢) سورة الأعراف، ٨٣، سورة النمل، ٥٧.

(٣) ينظر: تفسير الشعراوي – الخواطر، ٤٢٣١/٧، صفوة التفاسير، ٤٢٣/٢،٤٢٤/١.

(٤) ينظر: أركان القصة، ٩٥.

المبحث الثالث

شخصية امرأة فرعون

إنَّ من أبرز ما يُلاحظ على هذه الشخصية النسائية، والشخصيتين اللتين سبقتاها هو عدم ذكر القرآن الكريم أسماء النساء الثلاثة في القصة، لغرضٍ فني بعيد الأهداف والأثر يتركه النص في نفوس المتلقين، لاستكشاف ما هو أعمق من ذكر النموذج الانساني واسمه؛ لأن القرآن يرسم النموذج الإنساني من خلال لمساتٍ مؤثرةٍ، تكون شاخصةً وحيةً بسماته التي تبقى خالدةً مدى الدهر، لا بوجوده العيني والفعلي المحسوس؛ لأنه يرى الإنسان هنا مجرد أمثلةٍ تُضرب، وكلُّ إنسان عليه أن يعي مسؤوليته الفردية – ذكراً كان أو أُنثى – وهو في إشارته –أي القرآن الكريم– للنساء من دون أسمائها، أراد البيان عن وجود حقائق فعلية مستقلةٍ عن الأسماء وأصحابها، لتكون لعامة الناس فيما بعد ولا تختص بنموذج محدد.(١) بذلك كانت روعة التصوير الفني للشخصية وعملها، هي قيمة المعجزة التي أرادت القصة بيانها لها؛ لأن "المعجزة الفنية في التصوير، جعلت هذه النماذج أبدية خالدة؛ تتخطى الزمان والمكان، وتتجاوز القرون والأجيال"(٢). فلا داعي لذكر الاسم هنا والمقصود هو الأثر أو المنهج الذي يجب أن تسير عليه بقية البشر مستخلصاً من تلك المبادئ السامية التي حملتها شخصية امرأة فرعون في عملها.

لقد كانت هذه الشخصية على وعي تامٍ من أفعالها، إذ تحركت منذ البداية بحركات ذكيةٍ ودقيقةٍ أثبتت وجودها فيها لتتمكن فيما بعد من أداء وظيفتها بنجاح. وهذا فعلاً ما حصل في تحركاتها السريعة في رسم الخطط الناجحة والمتينة لمناصرة الشخصية الرئيسة، ومساندته منذ قدومه وحتى تمكنه وبلوغه أشده. ومن الملاحظ أنها شخصية مدورةٌ ناميةٌ نمت بتطور الأحداث، فتفاعلت معها وبشدة حين وقوعها، قال ﷻ: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾(٣). فالبطل هنا مرَّ بمواقف عديدة وصعبة كانت السبب المباشر في تحرك الشخصية الثانوية من خلال الوعي الممكن الذي رافق

(١) ينظر: التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، ط١٠، دار الشروق – القاهرة، ١٩٨٨م ٢١٦، سيكلوجية القصة في القرآن، ٤٠٢.

(٢) التصوير الفني في القرآن، ٢١٦.

(٣) سورة القصص، ٩.

الحدث وأحاط به، هذا من جانب، ومن جانب آخر فقد بيَّنت تلك المواقف سرعة وذكاء الشخصية الثانوية في اختلاق الأعذار والحجج لمساعدته – وتلك طبيعة النساء منذ القدم وإلى الآن هي موجودةٌ في طبيعة المرأة وطرائق حججها – ففي لُجة الأحداث واحتدامها وتداخل الوضع العام بالقتل، استطاعت الشخصية وبحذاقةٍ من الانتصار وحماية الطفل البطل، فحالت دون قتله، وهنا تكمن الصورة الفنية للشخصية وحركتها من خلال ما أخفاه النص من تفصيلات المواقف وتأزمات الكلام بين شخصية المرأة وزوجها، وما دخلا فيه من نقاشات حول الطفل وقتله. فعندما بيَّنت له أنه طفل مولودٌ منذ زمن، وهو ليس من الأطفال المولودين حديثاً، لأنه وليدٌ يكْبرُ مَن تبحثُ عنهم لتقتلهم، ولعله ليس من بنى إسرائيل، وقد يكون ولداً من أبناء الملوك.[١] حتى وصلا إلى قولها: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾[٢]، بعد وسائل الاقناع العديدة التي ألقتها الشخصية على فرعون، لكنه في حينها أفصح عن رأيه في الطفل وردَّ عليها أنه قد ينفعك أنت، أما أنا فلا نفعَ لي به ولا حاجة بي إليه، وهو عدوي وأمري جاريٌ فيه كما في غيره، ولا مكان له عندي.[٣] من هذا الأمر يكون وضع الشخصية وحركتها على المحك مع خصوم البطل، لكنها وكما هي شخصيةٌ حاذقةٌ عالجت الموقف بشيءٍ من النباهة والسرعة، قالت ضمن حديثها لفرعون ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾[٤]، لتأتي إلى فرعون من حيث ما هو يؤمن به من البقاء وطول الحياة، والامتداد النفعي له؛ لأنَّ الولد يملك ما يتركه من العرش وغيره، ولعل رأيها هنا يمثل ما ألمح إليه (فورستر) من أن الشخصية النامية عندما تتحرك مع الأحداث تُريد أن تمثل الاتساع في الحياة، أو ربما تبحث عن ديمومتها قدر المستطاع بحسب نظر بعض الشخصيات وتوجهاتها.[٥] ولكن ما بدا من شخصية المرأة، وما يختلجها من دوافع نفسية داخلية تدفعها باتجاه هذا الطفل، لأنها امرأة لم تمتلك الولد فأرادت أن تعبِّرَ عن غريزة الأمومة المفقودة بشتى الوسائل لكي تحتفظ به؛ لِتُشبع مشاعرها وعواطفها بذلك الطفل، لذلك نجد

(١) ينظر: التفسير الوسيط، ٢٩١/٣، الكشاف، ٣٩٤/٣-٣٩٥، مفاتيح الغيب - التفسير الكبير، ٥٨١/٢٤، قصص القرآن دلالياً وجمالياً، ١٣٦/٢.

(٢) سورة القصص، ٩.

(٣) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، ٥٢٤/١٩-٥٢٥، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، ٢٣٦/٧، التفسير الوسيط، ٢٩١/٣، مفاتيح الغيب- التفسير الكبير، ٥٨١/٢٤.

(٤) سورة القصص، ٩.

(٥) ينظر: أركان القصة، ٩٥.

تحرك الشخصية كان قوياً تجاهه حتى أنها "فزعت أشد الفزع حين رأت الطفل الرضيع موسى، وقد همَّ به جندُ فرعون أن يقتلوه امتثالاً لأمره، فصرخت . . . [ليتكشف للقارئ من تلك الصرخة ما بداخل الشخصية من عواطف ومشاعر مختلفة تُخفيها المرأة تجاه أُمومة الطفل ومكانته، فضلاً عن رعايته ومساندته فنيَّاً، لأنها شخصية رئيسة في الحدث، لذلك كانت أجمل حركةٍ سريعةٍ قامت بها أن تقول] في مثل هذا الموقف: قرة عين لي ولك"[١]. لِتُلهبَ الموقف بالأحاسيس الأبوية لدى فرعون، لأنه هو أيضاً يفقد الولد الذي يُريد أن يرثه ويسلِّمه الملك من بعده – وإن كان هو: أي فرعون يُخفي هذا الإحساس أيضاً ويُضمره تماشياً مع الأمر العام الذي أطلقه بقتل المواليد – لكنَّ النص قد فضحه من خلال شخصية المرأة التي قالت له برجاء الطلب وغضِّ البصر عن هذا الطفل ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، عندها "اسْتَوْهَبَتْهُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ وَتَبَنَّتْهُ فَتَرَكَ قَتْلَهُ"[٢]. فلو لم يكن بقاؤه وعدم قتله برضاه، كيف تبنته الشخصيةُ وهو زوجها فرعون، الذي لم يلد ذكراً من نسله؟ كذلك تدل حركة الشخصية واهتمامها بالطفل على قضية التبني بالنسبة لفرعون، ولكن بالخفاء عن أعينِ الناس، حتى قيل إنَّ المرأة كان رأيها مع فرعون واتفاقهما معاً أن لَا يَشْعُر أحدٌ من بَني إِسْرَائِيلَ، ولا من أَهْل مِصْرَ أننا التقطناه، أو أننا تبنيناه من غيرنا، والعمل على إذاعة خبرِ أنه ولدنا نحن.[٣] ومن ذلك أيضاً ما أثبتته بعض النصوص المتعلقة بذات القصة، وطبيعة الأحداث التي رافقتها، قالﷻ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾[٤].

يبدو أنَّ هذه الشخصية كانت تُراعي النظرة الاجتماعية التي يعيشها المجتمع، على الرغم من أنها ملكةٌ في عُرف ذلك المجتمع، وهي زوجةُ ملكٍ صاحب نفوذ وسلطان كبير، ولا يجرأُ أحدٌ على المسِّ بخصوصياتها الشخصية، لكنها كانت تنظر إلى خصوصية المجتمع بدقةٍ ونباهةٍ؛ كي لا تقع في مشكلات هي في غنى عنها، أو قد تُقيِّد حركتها مستقبلاً. إذن هي شخصيةٌ اجتماعية تُداري خصوصيات المجتمع الذي تعيش فيه، لكنها بوصفها فرداً مستقلاً له رأيه الذي تؤمن به؛ فقد حافظت عليه بشتى الوسائل والحجج التي تمتلكها، وهو أمرٌ يدل على بنية الشخصية الثقافية وأدواتها الوظيفية الناجعة في رد خصومها وإسكاتهم، والانتصار عليهم.

(١) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ١١٠.

(٢) مفاتيح الغيب - التفسير الكبير، ٥٨١/٢٤.

(٣) ينظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن، ٢٣٧/٧، مفاتيح الغيب - التفسير الكبير ٥٨١/٢٤.

(٤) سورة طه، ٣٩.

إنَّ أفكار الشخصية لم تأتِ لتشرح كيف هو حالها بوصفها امرأة فقط، وإنما هي بيانٌ لفكرةٍ أراد منها القرآن الكريم الإفادة والنفع لجميع الناس فيما بعد؛ لأن سلوك الشخصية الصالحة الايجابية يعني وضع منهج – إن صحَّ التعبير – ناجحٍ يتم فيه ربط تلك الأحداث الماضية بالواقع المعيش، وتفاعل القيم السلوكية التي تستهدف ايصال غرض معين للمتلقي بوضوح ليعيه ويطبقه في واقعه، حتى يصل إلى فكرةٍ محددة انطوت عليها أحداث القصة الماضية، وأن يفهم ما يكون عليه حاله في المستقبل والحاضر، لأن بمقدور أي شخص أن يدرك فحوى قصة ما، لكنه هل يستطيع مستقبلاً مثلاً أن يعالج أمراً ما لو وقع معه؟ هنا يتمُّ ربط القيمة الفنية بالقيمة الاجتماعية التي تؤديها الشخصية من خلال التذوق الفني لدى قارئ القصة والحدث، عبر خبرته أو تذوقه الفني، وكذلك توسله بالنصوص المفسرة للقصة التي تُثري ملكته الثقافية.(١)

تمتعت شخصية امرأة فرعون بحالتي، أو بنوعي الحوار (الخارجي والداخلي)، وكانت فيما سبق من حديث تمثَّل بالحوار الخارجي الذي بيَّن كيف تعاملت فيه مع شخصيات باسمها أمثال (فرعون)، وأُخرى قد أخفاها النصُّ كانت موجودة بالواقع، لكنها لم تُذكر علناً ربما من باب الاقتصاد اللغوي الذي عُرفَ به الكتاب الكريم. إنَّ أبلغ ما يُعمقُ فكر القارئ للقصة هو ما كان عند الشخصية من حوار داخلي يُبرز ما تعيشه الشخصية في باطنها بوضوحٍ تام، بلا تسترٍ أو مداراةٍ لأحد أو شيءٍ ما.

لقد كانت المرأة ترسم هدفاً محدداً لنفسها، أفصحت به الشخصية جليَّاً عندما كانت تُناجي ربها بصفاء وهدوء، وتتجلى أمامها أسرار معاني الغيب وهي مقيمةٌ بمكان جميلٍ، أو هو أجمل مكان عاشت فيه برفاه وراحةٍ، وهو قصر الملوك، لكنها بعيدةٌ عنه كلَّ البعد والاحساس، إذ نجدها ترفضه بكلِّ قناعةٍ ومرارةٍ كانت تشعر بها هناك، قال ﷻ: ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(٢). نستشعر من قولها أنَّ المكان الذي هي فيه لم يكن مناسباً لما تحمله الشخصية من أفكار ورؤى، أو هو مكانٌ على رغم اتساعه وجماله قد ضاق بالشخصية وتجلياتها الحقيقية، وهو شعورٌ داخلي يكشف لنا أحاسيس وأعماق الشخصية، وحرارة اللقاء الملتهب لذلك المكان الذي تنتظره وتطلبه من الله، لأنها أحسَّت أنه مكانٌ جديرٌ بما تصبو إليه روحها من تحقيق توجهاتها الحقَّة والصادقة؛ لأن

(١) ينظر: قصص القرآن دلالياً وجمالياً، ٣٠١/٢، جماليات التلقي في السرد القرآني، ٦٨.

(٢) سورة التحريم، ١١.

العلاقة بين الشخصية والمكان علاقة ذات جذور متينة تربط فيما بينهما، لما يحمله المكان من تعبيرات جمالية ودلالات رمزية تدخل في جوهر الموضوع الذي تحمله الشخصية، من خلال نفسيتها فيه وما تعبر به عن رؤيتها للكون وحرية الأفكار بمنتهى إرادتها.[١] وكيف لا يكون هذا التناسب بينهما والمكان جوهرٌ ثمينٌ عندما تطمئن له الشخصية لتعبِّر عن مكنوناتها الدفينة خلف الحُجب، وهي تستشعره رفيقاً أميناً يحتويها ويضمها لـ "يبدو كما لوكان خزاناً حقيقياً للأفكار والمشاعر والحدوس حيث تنشأ بين الإنسان والمكان علاقة متبادلة يؤثر كل طرف فيها على الآخر"[٢]. ولا تعني هذه العلاقة أنَّ القيمة متساوية بين المكان والشخصية، أو أنَّ أحدهما أفضل من الآخر. ولكنَّ للمكان فاعليةً وأبعاداً اهتمَّ بها القرآن في قصصه، جاء بها المكان بأبعاده المختلفة لتتطابق والحالة النفسية للشخصية وقرارها، فكان الترابط بينهما مؤدياً إلى هذا التطابق والتكامل المتداخل.[٣] فكان دعاؤها بكلمة (ابني)، ولم تطلب منه (أعطني) مثلاً الجنة، هكذا من دون مقابل، فكان تحركها ووظيفتها أن قدمت عملاً وصبرت غاية الصبر على العذاب والمساندة للبطل، وكان كلُّ ذلك حركةً ودوراً منها لبناء بيتها في الجنة عن طريق أعمالها – أي حركة الشخصية ووظيفتها – التي قدمت، فنالت مع زيادة في الأجر، حيث "وتدها بأربعة أوتاد في يديها ورجليها، وربطها وجعل على صدرها حجر الرحى . . . فأراها الله ﷻ بيتها في الجنة، ونسيت ما هي فيه من العذاب [وكانت] تعذب في الشمس، فإذا ذرت، أي: طلعت الشمس وارتفعت، أظلتها الملائكة بأجنحتها، وأُريت مقعدها من الجنة"[٤]. فيكون المكان مُهيئاً على حسب حركة الشخصية وبنيتها التي تحركت بها. فمع امرأتي نوح ولوطعليهما السلام – الشخصية السابقة – كان المكان عاماً ﴿ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾، أما امرأة فرعون فإنها طلبت، إذ بدأت الشخصية من البناء المستمر للوصول إلى ذلك البيت المتكامل لبلوغ الجنة، فالنجاة من فرعون ومن القوم الظالمين.

توضح المكان جلياً بالنسبة للشخصية ولا غموض فيه، إذ عمل الحوار على إبرازه بصورة تحمل كلَّ أجواء الراحة والاستقرار لدى الشخصية، فكانت ملامحه شاعريةً تضمُّ في جنباتها

(١) ينظر: بنية الشكل الروائي، ص ٣١، البنية السردية، المكان- الزمن - الشخصيات، ٣٠.

(٢) بنية الشكل الروائي، ٣١.

(٣) ينظر: جماليات التلقي في السرد القرآني، ١٦٢-١٦٣.

(٤) بحر العلوم، ٤٧٢/٣.

جمال الشخصية وحسن العاقبة التي وصلت إليها بأدائها لوظائفها الحركية الموفَّقة عند أدائها، ولعل ما كان في ذلك المكان من معاني ودلالات نفسية أراحت الشخصية منذ البداية عندما استشعرته، جعلت منه هدفاً أساسياً في سعي الشخصية الحثيث لبلوغه والظفر به. ولِمَ لا؟ والمكان "يتضمن معاني عديدة بل إنه قد يكون، في بعض الأحيان، هو الهدف من وجود العمل كله"[١]. لذلك بنت الشخصية نفسها من خلال ما اعتقدت به صائباً في تحركاتها، فخالفت الجماعة والطبقات المعاندة، الغارقة بالعمران الدنيوي المحدود، قال ﷻ:﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾[٢]، وقال ﷻ:﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي، فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ، فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[٣]، فآمنت بالرأي السليم للفرد الذي يمثل فئةً من الناس المضطهدين – وإن كانوا طبقة محدودة – في توجهها واعتقادها الموحِّد لله. وهي بذلك أنجزت ما أشار إليه (كولدمان) من أنَّ رأي الفرد لا يخلو من الصحة الواقعية إذا تجاوز فرديته معبراً عن فئةٍ اجتماعية هو يؤمن بها لتكون أساس فكرته، وهو مندمجٌ بها فكرياً وإن بَعُدَ عنها مكانياً؛ لأن البنيوية التكوينية تؤمن بالفاعل الجماعي الذي تميَّز بتجاوز فرديته إلى الصوت الجماعي الذي مثَّل في ممارسته دوراً ما، نحو الدور الثقافي مثلاً، خاصةً عندما يكون العمل كبيراً بشخصيته الفاعلة والاستثنائية، والقوية القادرة على التفكر والتعايش برؤيةٍ للكون في غاية الدقة، فتكون بذلك الشخصية فرداً معبراً عن وعي تلك الفئة التي يشعر بها وقد أصبح جزأً منها، ومعرفته انطلقت من أفكارها ورؤآها لكي يتجاوز الأنا الفردية بأنواعها، ويتجه نحو مصلحة الجماعة بجميع تحركاته الشخصية حتى تتلائم حركته مع الرؤية المركزية الكبرى والحقيقية للكون، وهي رؤية العالم من الوجهة الأصح.[٤]

---

(١) بنية الشكل الروائي، ٣٣.

(٢) سورة القصص، ٨.

(٣) سورة القصص، ٣٨.

(٤) ينظر: البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، ص ١٨-١٩، مقدمات في سوسيولوجيا الرواية، لوسيان غولدمان، ترجمة: بدرالدين عرودكي، ط١، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية - دمشق، ١٩٩٣، ٢٢٩-٢٣٢، في البنيوية التركيبية، ٢٨-٢٩، مقالات ضد البنيوية، ٤١، تأصيل النص، المنهج البنيوي لدى لوسيان غولدمان، محمد نديم خشفة، ط١، مركز الإنماء الحضاري للدراسات والترجمة والنشر- حلب، ١٩٩٧، ١٦-١٧، شعر اللصوص في العصر الأموي في ضوء البنيوية التكوينية، بشائر أمير عبدالسادة، أُطروحة دكتوراه، إشراف: أ.د. هناء جواد عبدالسادة، جامعة بابل – كلية التربية، ٢٠١٣م، ٢٨-٣١.

لعل خير تحرك وتطور لهذه الشخصية نجده في حركة أدوارها التي مثَّلت بها طبقةً وفئةً واعيةً وراقيةً جداً متكونةً من مجموعة أفراد ذات ثقافةٍ واحدةٍ تجمعهم، كان أبرزهم مؤمن آل فرعون ومن ناصره، وكذلك من تبعها من داخل القصر وخارجه. وكان من هؤلاء الذين كانت كثيراً ما تلتقي بهم، وتتحرك عن طريقهم؛ لِتُوصل أفكارها من خلالهم، الذين كانت تساعدهم من المساكين، إذ أُثِرَ عنها أنها ترحمهم وتتصدق عليهم وتعطيهم كلما يدخلون عليها القصر؛ لأنها كانت عوناً للمحتاجين وأُماً لهم، وهي بعدُ من خيرة النساء ومن بنات الأنبياء، وقيل عنها إنها كانت عمةً للبطل موسىعليه السلام تستمع أخباره من الناس بما يدور حوله، وأيضاً لها قوتها في البلاط بوصفها شخصية مشهورة بفكرها.[1] إذن هي شخصية نافذةٌ بفكرها وعقليتها وطريقة إيمانها القوية، انبنت شخصيتها من خلال ما حملت من مقومات سماوية، واجتماعية لتمثل تلك الطبقة من الناس، وتفضح ما خفي عن الناس من حقيقة أفكار فرعون وملئه، غير المعلنة التي يخدع بها الناس، وما كان عليه واقع الطبقات المتمردة الأُخرى بعدائها للبطل ومن معه.

(١) ينظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد، ٣٩١/٣، معالم التنزيل في تفسير القرآن - تفسير البغوي، ١٩٣/٦، مفاتيح الغيب - التفسير الكبير، ٥٧٤/٣٠، الجامع لأحكام القرآن - تفسير القرطبي، ٢٠٣/١٨.

المبحث الرابع

شخصية امرأة العزيز

إن تنوع الشخصيات يجعل من القصة لوحة جمالية تنطق بالحياة ومنعطفاتها، فامرأة العزيز شخصية ثانوية أخذت حيزاً كبيراً بين بقية الشخصيات الثانوية الأُخرى، وكانت شخصيةً فعالةً جداً لما تميزت به من حوارات كثيرة دخلت بها مع شخصيات مختلفة، ولَّدت أحداثاً متعددة صاغتها هذه الشخصية بذكاء وحبكةٍ بحسب كلِّ شخصية تحاورت معها، وكما سيُلاحظ فيما بعد.

بدأ أول تحرك للشخصية الثانوية بفعل (المراودة)، وهو إن دلَّ على شيءٍ فإنه يدل على أُسلوب التلطف والتَّليّن ومخادعة الرجال، إنه طريقة ناجحة تمتلكها النساء تجاه من تريد الإيقاع به. خاصةً إذا كان من شخصيةٍ استبدَّ "بها الحب ويغلبها الهوى فتتبع داعيه، وتميل معه، وهي في هذه السبيل تندفع بكلِّ عاطفتها، وتستخدم كلَّ ما أُتيت من دهاءٍ ومكرٍ"[1]. وهي حركة جيدةٌ بالنسبة للشخصية، إذ تناسبت مع طبيعة هذه الشخصية النسائية التي تتميز بالتلون وعدم الاستقرار؛ لأن عاطفة المرأة مهما بلغت من الحرص على كتمها، فإنها لابد وأن تبدو عليها لاحقاً وبجلاء، وهذا الأمر يدل على حالة الشخصية النفسية تجاه البطل، وما هو بداخلها من شعور جسَّدته حركتها سواء في حبها له، أو بغضها عند ممانعته الوقوع بالرذيلة. لذلك تُعطينا هذه الشخصية مشاهد متنوعة من الحياة، تمثل الضعف البشري بصورة عامة عند كلا الجنسين مع اختلاف الضوابط عند البشر، فالمرأة في جوانبها الأُخرى تبدو عاشقةً، ومنتقمةً، وأخيراً نادمةً، فعندما تطغى عاطفتها تعشق، ويأخذها الغرام فتراود كلَّ من يعجبها، وحين يأبى الرجل يستبدُّ بها العقاب انتقاماً لكبريائها، فهي إذن شخصيةٌ شاذةٌ بسلطانها عن طبيعة النساء وما تتمتع به من التحصن والتستر والحياء، صفاتها بذلُ النفس، ولكن الرجل هنا أعرض وتمنَّعَ عنها بعزِّ إيمانه وسلوكه القويم، وكرامة الطهارة.[2]

(١) ينظر: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ١١٠.

(٢) ينظر: م. ن، ١١٠، سيكلوجية القصة في القرآن، ٤٠٣.

يظهر تناسق القصة بين أحداثها وترابطها بطريقة تتشابه فيها أغلب الأحداث وإن اختلفت الشخصيات، فهناك من قبل قد حصلت حادثة مع البطل يوسف عليه السلام جسدت أيضاً دسيسة ومؤامرة من نوع آخر قد تتوافق خيوط نسجها مع ما يحصل له من امرأة العزيز، وكأن الأحداث صيغت بطريقة مغايرة أو عكسية، فالإخوة أرادوا أيضاً الإيقاع به، فكانت النتيجة فيما بعد واحدةً، وهي الإيقاع بالبطل. فوقع التماثل والتضاد معا في قصة واحدة، كان التماثل متمثلاً في نسج المؤامرة ضد البطل والإلقاء به مرَّة في البئر، والأُخرى في السجن، أما ما وقع من التضاد فهو الحسد والكره من الإخوة أولاً، ثم تعرضه للحب والتعلق والتودد من قبل المرأة الجامحة، وهو تضاد مثله أول الأمر رجال إخوة، وفيما بعد مثلته امرأة تمثل أغلب سلوكيات النساء البائسات.[1] وهنَّ بعدُ نساءٌ جمعٌ ونسوةٌ.

يظهر البناء الفني المتماسك من خلال عنصر برز بوضوح فيما وقع بين الشخصية الثانوية (المرأة) والبطل، وهو عنصر الحدث الأكبر (الرغبة ومن ثمَّ المراودة) الذي تنوع وترابط ارتباطاً قوياً مع بقية الأحداث المتلاحقة بسرعةٍ خلال حوارهما، لذا توافق مع طبيعة هذا العمل السيء الذي لا يناسبه غير الخفاء والسرعة في إنجازه، حيث تواترت أفعال الشخصية الثانوية بناءً على جوٍّ "مشبع بالإغراء وبالعوامل التي تقود إلى الانحراف . . . [وهو ما نقل لنا طبيعة بواطن هذه الشخصية لأنها] أُنثى يحرق مشاعرها وأحاسيسها جمال يوسف الرائع وشبابه المتفجر"[2]. لكنه حوار امتدَّ كثيراً بتفاصيله المتشعبة على خلاف غيره من حوارات القصة الأُخرى كما هو معروفٌ، بل كان سبباً في خلق الحوارات الأُخرى جميعاً – الداخلية والخارجية منها على حدٍّ سواء – لأنه كان جزءاً مهماً في إبراز وإضاءة وجه الشخصية الرئيسة ونقائها وبيان عدم انحرافها. لذلك كانت القصة في هذا الموضع دقيقةً جداً بنقل التفاصيل؛ لتبيِّن أن أيةَ مبادرةٍ – صغيرة ولا كبيرة – لم تكن لِتُبادِرَ بها الشخصية الرئيسة بسوء تجاه الشخصية الثانوية، صاحبةِ الريادة والمبادرة التي لَهَثَ بها كلُّ كيانها[3]، فأتت بمكر السوء بالبطل. لذلك كان الحوار في القصة سيّدَ العناصر بعد الشخصيات، وكاشف السرائر والنفوس من بواطنها وكَذِبِ ظاهرها.

(١) ينظر: التفسير البنائي للقرآن الكريم، ٣٥٨/٢-٣٦١، قصص القرآن الكريم دلالياً وجمالياً، ٣٠٨/١-٣١٠.

(٢) الحوار في القرآن، قواعده - أساليبه- معطياته، آية الله العظمى السيد محمد حسين فضل الله، ط٥، دار الملاك للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٦م-١٤١٧هـ، ٣١٥.

(٣) م. ن، ٣١٥.

يصور فعل الشخصية الثانوية هنا للقارئ مديات بعيدةً كانت تجول في خواطرها وداخل نفسها التي كانت طموحةً في نوال كلِّ ما تصبو إليه، فدل كل فعل منها على أصل الحدث الأول وهو المراودة وما تحمله هذه اللفظة من طرائق النساء في ارتكاب المنكر بشتى الحيل عندما تقتدر. فكان الرفق والترقق والملاطفة وبذل النفس أول الفعل، كما في أفعال الشخصية (راودته، غلَّقت، هيت لك)، ثم تحول فعل الشخصية مباشرةً الى الوعيد والقوة وفرض السلطة بالقهر وغيره، بأفعالها (همت به، قدَّت، يُسجن، ليُسجَنَنَّ)، فتكشَّف التباين والازدواج في الشخصية بين الملاطفة واللين، وبين ما انتهى بالقوة والقهر وفرض الإرادات، فترتب على بناء هذه الأحداث تكوين البنية الفكرية للشخصية، وطريقة تفكيرها المتسرعة التي لا تنظر إلا إلى كسب المصالح أو المواقف لصالحها، وأياً كانت تلك المصالح، اقتصاديةً أو سياسيةً، أو غيرهما، فهو ما سارت عليه الشخصيات المتمكنة في المجتمع، التي لها سطوتها بحكم مكانتها فيه، وموقعها ونفوذها كشخصية امرأة العزيز التي فرضت سلطانها حتى على زوجها كما تريد فملكت قيادته، بسلطان مكرها وعظم كيدها، ذلك الكيد الذي عُرِفت به نساء الأكابر والمترفين اللائي أفسدت أخلاقهن زينة الحضارة وبهارجها الدنيوية، إذ جعلت النساء مبتذلات للرجال إلى حدَّ الوقاحة والصراحة بأنفسهن، فضلاً عن المنصب الرفيع مع الجمال والجاه الكبير، كما هو حال شخصية تلك المرأة.[1] فالشخصية ربما تتوافق مع فكرة المادية الجدلية التي تحكمها أهمية العوامل الاقتصادية مثلاً، وقضية العلاقات القائمة بين الطبقات الاجتماعية ومكانتها، بجميع فروقها ونظرتها للآخرين.[2] وما هذه الشخصية إلا مَثَلٌ عن طبقةِ تلكم النساء اللائي يعشن بفضل الجاه والأنفة، فضلاً عن الصفة الخاصة التي تحملها بأنها سيدة لا حساب يقع عليها، لذلك تحكمها مشاعرها الجياشة، فأصبحت امرأة وشخصيةً منفلتة من لجام المجتمع. أما في بنية أو بناء العمل القصصي فلا تُعدُّ حركة الشخصية هنا شذوذاً، أو مخالفةً من الشخصية لطبيعة تكوينها الأُنثوي، لأن الكاتب حينما يختار شخصيات قصصه، يحاول أن يرسم ملامحها عند تشكيلها بما يُعيْنُه على خلق وحدةٍ تنسجم قدر المستطاع مع الوجود من خلال لفتاته الذهنية، إذ

(١) ينظر: تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (المتوفى: ١٣٥٤هـ)، د. ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م، ٢٤٦/١٢، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ١١٠، سيكلوجية القصة في القرآن، ٤٠٤- ٤٠٥.

(٢) ينظر: البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، ١٣.

لا يعنيه أن تكون طبقاً للأصل في الوجود الواقعي الذي يعيش هو فيه أو بقية الشخصيات الأُخر.[١] ولعل من يرى أنَّ الحياة في الواقع وفي القصة بالنسبة للشخصية شيءٌ متباينٌ، لأنها في الواقع وجود مستمر، أما في القصة فهي تبدو وجوداً منقطعاً بحسب ضرورة وجود العمل الذي يؤدى وينتهي بزمن محددٍ.[٢] فما بين هذا التباين تكمن صورةُ الترابط والتلاحم الرمزية بين العالَمَين بإيحاءاتها ودلالاتها الهادفة من وراء عمل الشخصية داخل القصة بطعم الوجود المعيش. وليس منصفاً أن يُقال إننا نعيش حياتنا بأيامها العديدة من دون أن نعمل عملاً مهماً أو لافتاً للنظر ولو بأقلِّ أحداثه ومواقفه[٣]؛ لأن الأمر لو كان كذلك لما كان عالم القصة بفنيَّتهِ وشخصياته وبقية عناصره الأُخرى يقتبس شيئاً من الوجود الحي الذي يعيش فيه الناس، فيطعمه الكاتب بخياله وتصرفه ليمنحه لمسةً فنيةً تقربه من واقع الأحداث والشخصيات لتزداد المتعة، وتَحسُن فكرة العمل القصصي .

على أيَّةِ حالٍ تمحورت شخصية امرأة العزيز فكونت بنيتها شخصية نمطية نامية متطورة، لكنها (منبسطة)*، تطورت بسلبيةِ دوافعها وغرائزها وأحاسيسها المملؤة بالعواطف الجامحة التي جعلتها تميل لهوى العشق السيء أول أمرها، لترسم شخصيتها بطريقة مباشرة تفصح عما في داخلها بوضوح من دون رادع. فهي إذن شخصية جليَّةُ الملامح، سهلةٌ في كشف أسرارها بتحركها بين الشخصيات الأُخرى بحرية من خلال أدوارها وسلوكها المنفتح مع الأحداث بسيطرتها وقوتها، فتسلسلت أحداثها التي قامت بها للإيقاع بالشخصية الرئيسة، وهو ما ألقى إنارةً أكبر على شخصية البطل أخرجته من الخصوص إلى العموم، فتبيَّن أنه شخصيةٌ متَّزنةٌ برغم كلِّ ما جرى عليه من مؤامرات حِيكت ضدَّه، وهذا الأمر فيه لفتةٌ فنيةٌ جميلةٌ، وهي أن الأحداث السابقة والمتتالية ارتبطت مع بعضها فوقع خلالها التآمر عليه سابقاً ولاحقاً مع اختلاف المتآمرين بين شخصيتين، أولاهما شخصية (الإخوة)، والأُخرى شخصية (المرأة)، لتكتمل

(١) ينظر: فن القصة، ٩٣.

(٢) ينظر: م. ن، ٩٣.

(٣) ينظر: م. ن، ٩٣.

* يبدو أن الشخصية المنبسطة: هي التي فيها شيءٌ من السعة والانفتاح أكثر مما يُلزَم، فتتجاوز بعض الحدود المعروفة؛ لأن البسطة هي السعة، وكذلك تمهيد العذر وقبوله، والانبساط هو ترك الاحتشام وعدم مراعاته عند بعض الشخصيات، والبِسَاط ما يبسط أو ينشر. ينظر: المفردات، ١٢٣، مختار الصحاح، ٣٤، ٣٠٠.

الأحداث معاً فتَكُوِّنَ معاً حدثاً كلياً واحداً ومتلاحماً رتبته الأقدار، وقامت به الشخصيات المتنوعة، بوسائل جمعت بين حيلِ الرجال، وبراعة حيلِ النساء أيضاً. لكنها في النهاية خرجت من سلبيتها إلى إيجابية الحق وكشف جميع الأسرار التي ظلت خافيةً طوال مدةٍ طويلة، وذلك باعتراف الشخصية نفسها وبلسان حالها بعد أن تأكد عجزها عن مواصلة الكيد بالبطل والإيقاع به، وظهور الحقائق بوضوح أمام جميع الملأ، ولا فرار من الحقيقة لنجاتها بما بقي لها من بقية. قال ﷻ: ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾(١). فهذا اللون من البوح لدى الشخصية هو اعترافٌ جيدٌ بما اقترفت من مكر على البطل، وهو أيضاً اعترافٌ يُشعِر بندم الشخصية على ما قامت به في سالف ما مضى. لأنه يُعدُّ إقراراً وإفصاحاً في الأدب، وإفضاءً من قبل بعض الشخصيات، إذ هو تعبيرٌ يُخرجه الوجدان بكلِّ صدقٍ وبساطة ومن دون تكلفٍ عن مشهدٍ أو قصةٍ مرَّت من قبل وانكشفت فيما بعد.(٢) وهذا المصطلح الأدبي قد أثرى القصص كثيراً بما لديه من تعمقٍ نحو الباطن يكشفُ عن النفوس، وخواطر الشخصيات أثناء رجوعها إلى تحكيم ضمائرها، وهو أيضاً مرتبط بالواقع الاجتماعي، وبواقع الشخصية المعيش عندما يفلت منها زمام الأمور، وتصبح الأوضاع ليست في صالحها.

(١) سورة يوسف، ٥١.

(٢) ينظر: معجم المصطلحات الأدبية، ص ٣٣، المعجم المفصل في الأدب، ١٠٩.

المبحث الخامس

شخصية الأم

ويتجه القصص القرآني هنا باتجاه آخرَ يمثل قضيةً إنسانيةً كبرى، تتمتع بها كلُّ النساء أو أغلبهن بصورة طبيعية، ألا وهي (الأمومة) وما تحمل من عطف الأُمهات ورعايتهن لأولادهن، منذ أن يُخلق الإنسان وحتى بعد أن يكبر ويشتدَّ رجلاً تبقى تلكم النظرة لدى الأم متَّقدةً لا تنطفأُ حرارة قلبها نحو أبنائها. لكنَّ المرأة لم يأتِ بها القرآن لإثارة لوناً عاطفياً يستجلب القارئ والسامع ليتأثر به، ولا هي عنصر تشويق أو غيره، وإنما هي عنصرٌ له أهميةٌ بالغةٌ، ويحتلُّ مكاناً خاصاً في قصص القرآن، لأنه يدخل في كلِّ مجالات الحياة من أقل مستوى فيها، وإلى أعلى مرتبة فيها بحسب ما يوكل لها من أعمال، وما تتركه وظائفها من آثار تختصُّ بها دون غيرها – خاصةً دورها في القصة – إذ تُعدُّ ركناً قوياً في بنائها، ولا يختلف دورها فيها عن دور الرجل في جذب القرَّاء أو امتاعهم، بل تكادُ تكون القصة التي تخلو من وجودها جافَّةً لا رغبة للمتلقي بها من دون وجود لمساتها وآثارها.[1] فيملُّ القارئ من تلك القصة بسرعة وقد تراه يعجل في انقضائها. لذلك كان وجودها ضرورياً لا لأجل الترفيه وبعض الميولات الأُخرى، وإنما لأجل تمام الحدث وما يتطلبه من وجودها بشكل تلقائي؛ لتؤدي دورها الخاص بها شخصية نسائيةً بعواطفها ومشاعرها الخاصة، وكذلك بشخصيتها المتميزة بالقدر الذي تقتضيه الضرورة وطبيعة المشهد من وجودها.[2]

انطلقت هذه الشخصية الثانوية النسائية من أول نداء وُجِّه إليها عن طريق حوارٍ متواصلٍ سبقته أحداثٌ كثيرةٌ اختصت بالبطل موسىعليه السلام، ذلك البطل الطفل الذي تشعبت وتداخلت الأحداث عليه وعلى جميع الشخصيات المساندة له كثيراً. ومن بين أبرز تلك الشخصيات الثانوية هي أُمه التي بدأ أول تحرك لها بعد ندائها الذي غابت جُلُّ تفاصيله عن الذكر كيف

(١) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ١١٢.

(٢) ينظر: سيكلوجية القصة في القرآن، ٣٠٦.

كان أو من أين أتى. قال ﷻ: ﴿إِذْ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّكَ ما يُوحى﴾[١]. إنَّ هذا الإيحاء إما أن يكون بصورةِ كلام جاء بلسان شخصٍ آخر بوساطة نبي مرسل مثلاً، أو ملكٍ معينٍ، أو أنه كلامٌ يُقذف عن طريق منامٍ تراه الشخصية ليدخل ضمن المنامات الصادقة التي تراها الشخصية، أو هو إلهامٌ أتى الشخصية بناءً على تلك الأحداث المختلفة التي مرَّت بها وعايشتها. والإلهام طرائقه كثيرةٌ وحاصلةٌ لخواص البشر، وبعض ما خلق الله من غير البشر كما هي الحال في النحل.[٢] وأيَّاً كان ذلك الإيحاء فهو حوارٌ قد وقع، لكنه حوارٌ يحتمل القسمين من الحوار معاً – الخارجي و الداخلي – مع الشخصية لأنه احتمل أو تضمن الكلام مباشرة مع شخص آخر، أو هو كما قيل منامٌ وإلهامٌ أتى الشخصية فوجهها ماذا تفعل بعد حيرتها وخوفها على البطل الطفل.

إن الحوار بقسميه كشف لنا أعماق الحيرة التي كانت تمرُّ بها شخصية الأم حيال رضيعها، حيث كانت تواجه مصيراً وحلاً قاسياً يكتنف حياة الطفل، وهي بتلك الحال بدت شخصيةً حريصةً ومتيقظةً لما يدور حولها من خطر محدقٍ بالشخصية الرئيسة، حيث نستشفُّ من الحوار تحركها السريع في الحفاظ عليه. إذ عملت له ذلك الصندوق وأمَّنَتْهُ من التَّلَفِ بطليه بالحُمَّرِ والزِّفت لكي تأمن عليه بعد رميه في البحر، ثم أوصت مَن يتبع أثره لتعرف خبره على الرغم من علمها برعايته من قبل يدٍ أقوى منها، وعدم تعرضه للأذى.[٣] قال ﷻ: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾[٤]. وهنا ينكشف حوارٌ خارجيٌ آخرٌ للشخصية مع شخصية جديدة، لكنه حوارٌ ملتهبٌ بحنان وخوف الأمومة بكل عاطفتها، وتلك الشخصية هي أُخت البطل الذي طلبت منها الشخصية متابعته. وقد نفَّذَت هذه الشخصية بدقةٍ وحذرٍ ما أُمِرت به إلى أن استقر التابوت بالبطل عند ساحل قريب من بيت فرعون.[٥] بهذه العناية من لدن شخصية الأم، والاهتمام المتواصل، نستشعر دوافع الشخصية لرعاية رضيعها، وأنها بلغت بها الحال من الخوف والهلع أن تخرج من التطمين والتأكيد بحماية وليدها، إلى الفطرة الطبيعية لدى النساء التي تحتم عليها أن تتناسى أكبر العنايات وأهمها للبطل – وهو أمان السماء له – وتتجه نحو غريزتها وفطرتها التي فطرها الله بها. ولو كان دور

(١) سورة طه، ٣٨.

(٢) ينظر: الكشاف، ٦٢/٣، قصص القرآن الكريم دلالياً وجمالياً، ٢٩/٢.

(٣) ينظر: قصص الأنبياء، ١٥٨.

(٤) سورة طه، ٤٠.

(٥) ينظر: قصص القرآن الكريم دلالياً وجمالياً، ٣٠/٢.

الشخصية يقتضي فقط حدثاً معيناً تقوم به ثمَّ ينتهي، أو أنها وُضِعت لديباجة وزينة معينة يقتضيها لون القصة بوصفها امرأة، أو بحسب ما رُسِمَ لها، لكانت الشخصية هنا اكتفت بالتطمينات والعناية الأوفى التي في ضوئها وضعته بالصندوق وألقته في البحر. لكنَّ القرآن الكريم يُبرز سمات الشخصية بوضوح تامٍّ ليركز على ما يسمى (اتساق الشخصية) في علم النفس، الذي يجعل سلوكها متناغماً باستمرار مع الظروف الداخلية والخارجية للشخصية، وما يحيط بها عوامل أُخرى، طبيعية أو فطرية تجعلها ملازمةً خصائصها الاعتيادية في المواقف جميعاً، مما يؤثر في سلوكها واتجاهها نحو نمط محدد وهو الخوف والعاطفة من الفراق.(١) وهذا ما جعل شخصية الأُم تتناسى كلَّ شيءٍ أمامها، وتدفع شخصيات أُخرى بمتابعة البطل أينما حلَّ، جرياً وراء عاطفتها وشدَّةِ وجدها عليه، لأنها امرأة أُمٌّ لا تتنازل عن ربيبها. ومما يدلَّ أيضاً على تمسُّكها به بشدة – مقدِّمة بقاءه على تركه – هو قوله ﷻ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إلى أُمِّ موسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليم وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تحزني إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المرسلين﴾(٢). فهي حرصت على إرضاعه أولاً، ثمَّ أبقته قربها بعد الرضاعة إلى أن خافت عليه ثانياً، أي أنها بقيت ملازمةً له لآخر لحظةٍ من فراقه ولم تتركه بيسر، بل إلى أن أُرغمت على وضعه في التابوت ومن ثمَّ رميه، على الرغم من كلِّ التطمينات والإعداد الذي قيل لها سلفاً وهي تعلم بما سيكون، و ألا تخاف ولا تحزن لأن الله سوف ينجيه بقدرته وينصره.(٣)

لقد تبيَّن من قبل أنَّ للحوار وظائفَ كثيرةً يتضمن أهمها، الكشف عن أعماق الشخصيات، وربما الوصوال إلى بعض الأحداث التي تنوي الشخصية القيام بها؛ لذلك نلحظ على شخصية أمِّ البطل أنَّها بالحوار بيَّنت سرعة حركتها بمواقف، وتباطأها بأخرى، فمثلاً عندما اعدَّت لوضعه بالتابوت وإلقائه، كانت الشخصية الثانوية تؤدي وظيفتها بسرعة وحذرٍ، إذ "تجد اللقطات سريعة متتابعة لتعبر عن التصرف لحظة الخطر"(٤). فجاء الكلام المبارك سريعاً فيه شيءٌ من العجلة في المواقف ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليم﴾، في حين عندما بدأ الكلام يطمئنها ويصبرها ويشرح لها حاله، تجد الهدوء والسكينة والبشرى ببطء، كأن الله سبحانه يوضح لها أنه

(١) ينظر: سيكلوجية القصة في القرآن، ٣٦٩.

(٢) سورة القصص، ٧.

(٣) ينظر: تفسير الشعراوي – الخواطر، ٢٣٨/١، ١٨٨٨/٣.

(٤) م. ن، ٤٢٩٧/٧.

لن يعيش لأنها فقط أُمه، بل إن عليه مهمةً أخرى كُلِّف بها من الله، وإنَّ السماء ستحافظ عليه لا لأجل الأم وعواطفها ومشاعرها فقط، بل ستحفظه لأنناَ جَاعِلُوهُ مِنَ المرسلين ليهدي الناس ويرعاهم، فجاء البطء والهدوء بقولهﷻ: ﴿وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تحزني إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المرسلين﴾. لذلك هدأ الحوار عندما سمعت: رادوه، وجاعلوه نبياً.(١)

لقد رسمت الشخصية صورتها الخاصة بحركة أدوارها، فجاءت مرَّةً سريعةً، وأُخرى هادئةً ببطء، وبفعل البنية الغريزية والنفسية الداخلية التي تتمتع بها شخصية النساء الأمهات في الغالب، رسمت هذه الشخصية تحركاتها على وفق تصرفات الأُم التي تطبعها جوانبها العاطفية المملؤة بالحنان والحب تجاه أبنائها، وفضلاً عن أنَّ الشخصيةَ أُمٌّ، فهي أصبحت فيما بعد على علمٍ أنَّ رضيعها هذا سيكون ذا شأن عظيم، لذلك زاد تعلقها به وازدات عنايتها أكثر فأكثر، حيث نراها قد تطورت بسرعة ونمت أدوارها مع تطور تلك الأحداث الجديدة التي سوف يكون عليها البطل بعد رجوعه، وهذا الأمر أيضاً كان سبباً في نشاط حركة الشخصية أكثر من ذي قبل، وزيادة دفعها ومبالغتها في عنايتها للشخصية الرئيسة، مما زاد من إلقاء الإنارة عليه وإضاءة دوره المستقبلي أكثر كونه ليس طفلاً مثل باقي الأطفال والرُّضَّع، الأمر الذي جعل الشخصية تتجه نحو تحرك وثبات أكبريمثل مصلحة أعلى من مصلحتها الذاتية الخاصة، وهي مصلحة الطبقة التي هي منها وتعاني معها ما عانت، وهي بالنتيجة النهائية تمثل مصلحة الأمة جميعاً بمختلف جوانبها، هذا ما جعل الشخصية ترجع إلى النقطة الأُولى من العطف والحبِّ وارتفاع درجة الخوف والفقدان للبطل الذي يصحبه ضياع الأمة. لذا جاءت القصة بزيادة تقوية قلب الشخصية ودعمها أكثر بنسبة تتوافق مع نسبة قلقها وخوفها عليه، حتى لا يحصل اضطرابٌ في الشخصية وحركتها، فكان منها أن بدا قلبها، قالﷻ: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٢). ولكن عندها جاء الدعم سريعاً توافقاً مع حركة الشخصية بسرعة فراغ قلبها على رضيعها، وأيضاً بيان مكانة الشخصية من الجماعة أو الطبقة التي هي منها، إذ ردها إلى طبقتها، فجاء بقول ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. ويأتي جمال النص متوافقا مع حرارة الموقف الذي عليه الشخصية، فكان فراغُ القلب ما يقابله من ﴿رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾، أي: أمرٌ بأمرٍ. لذلك قدم الموقف الأكثر التهاباً وأخذاً لروح الشخصية، ثمَّ ماذا؟ جاءها بالدعم سريعاً

(١) ينظر: تفسير الشعراوي – الخواطر، ٤٢٩٧/٧.

(٢) سورة القصص، ١٠.

لما اعتمل بنفسها من بعض الخواطر الداخلية التي تشعر بها كلُّ أُمٍّ تحافظ وتحرص على رضاعة وليدها، فكان الحدث قوياً هزَّ الشخصية من أعماقها، ليشعرها فيما بعد بما هو أعظم من مصلحتها، وهو كما قيل مصلحة الأمة أو الطبقة، لكن السرد لم يهمل الشخصية، وبقي محافظاً على انفعالاتها وخواطرها، وظل متابعاً لها ولتقلباتها. حزُنت عليه لعدم إرضاعه مجدداً، أو قد يطول العهد بعد إلقائه في اليم، فإذا بكلامها يُسمع فوراً لِيُجابَ سريعاً بالبشرى، قالﷻ: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾(١).

إنَّ الشخصيات التي تتحكم بها بنيتها العاطفية، أو التي يغلب قلبُها عقلَها تتمتع بتباين المواقف صعوداً ونزولاً، فحركة هكذا شخصيات من الصعب أن تتسم بالثبات على موقف محددٍ، لأنها مهما ثبتت حركتها على حال معينة، فإنَّ أفكارها وطبيعة تكوينها (المادية والمعنوية) يدفعانها نحو غريزةٍ صعب التخلص منها بسهولةٍ، لتجعل منها شخصية تجاري بعض الحوادث والأفكار، لكنها في النهاية تبقى شخصيةً عطوفةً حنونةً تنظر بعين الأُمومة لمن ترعاه، ولذلك لم يكن نداء القرآن للشخصية فقط من باب التطمين وعدم الخوف من هذا الأمر الذي سوف تقوم به. لأن القرآن يراعي كثيراً مسألة النداء كيف يكون مع كلِّ شخصية، إذ يعدَّه من الأركان الفنية المهمة في العمل القصصي، لذا هو يراعي المخاطب الفرد والطبقة وكذلك النظام من خلال مخاطبته العاطفة أو الفطرة أو العقل؛ لأنه ينظر للشخصية المخُاطَبة بعين الرؤية التكوينية لها ولطبيعتها الايديولوجية التي تحركها، عبر الفطرة الانسانية التي يراها الضمان لمخاطبة العقل وتوجيه عواطفه الإنسانية حيال المواقف التي تمرُّ بها الشخصيات.(٢) من هنا نلاحظ أن القرآن كثيراً ما خاطب أُمَّ موسىعليه السلام وألزمها ببعض الأوامر بخطاباته، لكنه جعلها خطابات ممزوجةً بلون من الفطرة والعاطفة المعروفة لدى الأمهات، ليتيسَّرَ على الشخصية مواجهة الأحداث القادمة، ولكي يتمَّ إعدادها إعداداً جيداً ومناسباً لما هو آتٍ، وهو قد التزم بهذا النمط حتى نهاية القصة أو آخر حوار جرى معها، قالﷻ: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٣). فانمزج ذلك الأمر من السماء بالوعد الصادق للشخصية الذي جاء بعطف الأُمومة، وحنانها لتقرَّعينها ويذهب حزنها عليه. فهو إذن ذلك الوعد

(١) سورة القصص، ١٢.

(٢) ينظر: تفسير الشعراوي – الخواطر، ٨٨٥٣/١٤، ١٠٨٩٠/١٧، القصص القرآنية وتاريخ الأنبياء في تفسير الميزان، ٤٨.

(٣) سورة القصص، ١٣.

الذي وعدها الله بخاطبه أول بداية الحوار معها، إذ قالﷻ: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾(١).

وجديرٌ بالذكر أنَّ معنى الأُمِّ يأتي بسياقاتٍ وتقسيمات عديدةٍ، منها ما يكون بمعنى الأصل والمرجع الذي يُرجع إليه، ومنها الأُمُّ وهي الوالدة بعينها كما مرَّ من قبل في الآيات السابقة، وكذلك في قولهﷻ: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ﴾(٢). ومن أبرز معاني هذه الشخصية، أنها تعني (المرضع).(٣) تحديداً في قولهﷻ: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾(٤). وهناك أقوال ومعانٍ أُخرى لا حاجة لذكرها.

(١) سورة القصص، ٧.

(٢) سورة طه، ٤٠.

(٣) ينظر: العين، ٤٣٣/٨، قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، للفقيه المفسر الجامع الحسين بن محمد الدامغاني، حققه ورتبه وأكمله وأصلحه: عبدالعزيز سيِّدَ الأهل، ط٢، دار العلم للملايين-بيروت، ١٩٧٧، ٤١-٤٢، اللسان، ٣٩٥/١٢، الكشاف، ٢٩٦/٣.

(٤) سورة النساء، ٢٣.

المبحث السادس

شخصية الاخت

تتحرك بعض الشخصيات الثانوية عند انطلاقها أحياناً لمساندة شخصيات ثانويةٍ أُخرى مثلها، بحسب ما تقتضيه ضرورة الأحداث وسرعتها داخل القص، ومن ثمَّ تتجه إلى وظيفتها الخاصة والأساسية التي أُنيطت بها لمساندةِ شخصية البطل وحده؛ لأنها شخصيات وُجِدت أساساً لمناصرته أو للذَّبِّ عنه عندما تعترضه العوارض والمشكلات.

لقد كانت الشخصيات النسائية الثانوية مكملا ضروريا وبارزا لدور البطل من بين الشخصيات العديدة التي عملت معه أو ضدَّه، لذا تجسَّدت تلك الشخصيات في أداء أعمالها مجتمعةً لِتُؤسسَ فئةً من الشخصيات ترجع كلها إلى هدفٍ محددٍ في ملازمة الشخصية الرئيسة وإنجاح تحركها بإنجاز مهامها. فكل شخصيةٍ يجب أن يُنظر لها على أنها "مجموعة من العلاقات والبنيات التي تَستمدُّ وجودها وكيانها المستقل من داخل النص"(١). إذن قدرة الشخصية على بناء نفسها وكيانها تبدأ من ذاتها قبل أيِّ بناء آخر تفرضه عليها السياقات الأُخرى، وهنا يتمُّ النظر بحسب هذا المنطق إلى شخصية الاخت كيف بدأت؟ وأين أسست بنيتها الخاصة بها.

لقد انطلق تحرك الشخصية الثانوية من خلال البذرة الأُولى التي صنعتها بفعلها الحركي الخارجي الأُول، حيث أوضح النص وجودها بعملها وهدفها المقصود، قالﷻ: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ﴾(٢). فتمشي كان أول نشاط للشخصية رسمت به تحركها في تقصي أثر البطل، فأسست الشخصية بنيةً متطورة للحركة تكون جاهزةً فيما بعد للأمر التالي من البحث عن الشخصية، وإنَّ هذه الحركة يقيناً سبقها تحرك فكري ونفسي لدى الشخصية، خلاصته التخطيط الذهني والأفكار المتعددة، وتقليب الآراء التي وضعتها للبدء قبل تحركها في العملية، وهو ما ذكر النص جزءاً منه حين قالت بلسان حالها قولهﷻ: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ﴾، وهنا يقيناً قد وقعت الشخصية بتسلسل الأحداث والأسئلة المتنوعة التي طُرِحت عليها بسبب هذا

(١) قال الراوي، ٨٨.

(٢) سورة طه، ٤٠.

العرض الموثوق به من قبلها. فقيل إنهم سألوها من تللك المرأة ومن أهلها؟ يبدو أنك تعرفيه وتعرفين أهله أيضاً، وكيف علمت أنهم ناصحون؟ وقد كان أول السائلين لها هامان الذي اتهمها بأنها تعرفه حقَّ معرفته من يكون[١] هنا انتقلت الشخصية وبحدِّة ذكائها ونباهتها ونضوج فكرها، وبنيتها العقلية والثقافية للتخلص من الموقف، فعطفت كلامها على معنى آخر لتخلص نفسها مما وقعت فيه من تهمة قد تُودي بحياتها. لذلك تحركت بجواب سريع "فقالت: إنما أردت وهم للملك فرعون ناصحون"[٢]. هنا نستشعر من الشخصيةِ وعياً تاماً وفطنةً ونباهةً عاليةً تنمُّ عن درايةٍ كاملة بحجم الخطر المحدق بالبطل وبمن يدافع عنه. وقد وردت إلتفاتةٌ فنيةٌ جميلةٌ منها، وصورةٌ رائعةٌ من صور العربية البليغة، وهو استعمالها للون وجمالٍ من جماليات هذه اللغة وبديع كلامها وهو (التورية)، ذلك الفن الجميل من فنون كلام العرب. وهو أن يُذكرَ لفظٌ له معنيان، قريبٌ وبعيدٌ، لإيهام المستمع أيَّ معنى قَصَدَ المتكلم من كلامه، ولا يتنبه لذلك القصد المراد غير المتيقظ الفطن لقرائن الكلام.[٣] إذن لا ينبغي أن تبقى الشخصية ثابتةً في بعض الأحداث التي تدور حولها، وتكتفي بما خُصِّصَ لها من دور تؤديه وتمضي. لأنه لا يجب أن تنطوي الشخصية على نفسها، أو تضيِّعَ وقتاً قد يكون استغلاله لمصلحتها ومصلحة الآخرين أيضاً معها، لذا يجب عليها أن تشترك بوظائفها بأقصى مجهودٍ منها لكي لا تتعرض أية شخصية أُخرى، أو مصالح عليا لمشكلات ومخاطر[٤]، قد يكون البطل أو غيره في غنى عنها، ولكن بالقدر الذي يَسمح لها بالتحرك بحرية وسلاسة في تأدية دورها. وعليه يتبين أن شخصية الاخت هنا قد تحرَّكت بدور يبدو أنه لم يُطلب منها بحسب ما مرَ سابقاً في النص، وما جاء به النص من كلام أمِّ موسى عليه السلام في موضع لاحق، قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[٥]. إذ هي طلبت منها – وكما بينه البحث من قبل – أن تتبع أثره أين سوف يكون أو سيستقر، ولكنَّ الشخصية عملت بما تقتضيه ضرورة الموقف، فتحركت من تلقاء نفسها وما تحتِّمه عليها مصلحة البطل، إذ رأيناها تقوم بعمل آخر مع تقصي الأثر، وهو أن بصرت به

(١) ينظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد، ٣٩٢/٣، الكشاف، ٣٩٦/٣، تفسير الشعراوي – الخواطر، ١٠٨٩٥/١٧.

(٢) الكشاف، ٣٩٦/٣.

(٣) ينظر: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي (المتوفى: ١٣٦٢هـ)، ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي، د. ط، المكتبة العصرية- بيروت، ٣٠١.

(٤) ينظر: أركان القصة، ١٠٥.

(٥) سورة القصص، ١١.

عن قرب لتراقب حاله على أيِّ حال ووضع يستقر. وتلك وظائف جديدة ومتعددةٌ تتطلب من الشخصية عملاً دؤوباً وجهداً أكبر مما طلبته شخصية الأُمِّ منها، ومنه نستشعر أيضاً الحرص والاهتمام الكبيرين الَّذَين تمتعت بهما شخصية الاخت لأجل الحفاظ على الشخصية الرئيسة من الهلاك، أو الإصابة بأذى ما، وهو بدوره يميزُ عمل الشخصيتين معاً من خلال تقاسمهما دور المساندة للبطل، وإنَّ من روائع القصص القرآني أن يرسم للمتلقين جميعاً طبيعة كلِّ شخصية كيف تكون وظائفها الخاصة بها دون غيرها، فأوكل لهذه المهمة شخصية الاخت، لا لأنها أُخته، بل؛ لأنها شخصية نسائيةٌ، وهكذا شخصيات لها القدرة على النفوذ والتحرك داخل البيوت والمجالس، وبين النساء خاصةً بحرية أكثر ربما من الرجال، فتأتي بالأخبار دقيقةً وافيةً من مصادرها، وهذه طبيعة النساء المعروفة بتحركاتها وإلى يومنا هذا، وفضلاً عن ذلك فهي أُخته، ومن أصلح منها حفاظاً وتيقظاً على مصلحة أخيها ومصلحة النبي القادم للأمة.

لاشك في أن هذه الشخصية الثانوية تُحسب على الشخصيات النامية والمدورة بحركتها المتطورة والمندفعة إلى الأمام، وحسن تصرفها ووعيها النافذ في معالجة المواقف والأحداث التي مرَّت بها، فالخروج من تلك المواقف بسلام وأمان دليلٌ على نباهتها وفهمها لكثيرٍ من الأُمور؛ لأن الشخصيات يكون ارتباطها قوياً ووثيقاً بالحوادث، والحوادث عندما تصدر منها فإنها تُغيِّرُ من حركتها الشخصية وتوجِّهُها في اتجاه آخر يخدم حركتها وهدفها الذي تنشده.[1] والشخصية نلحظ فيها هذا الاتجاه، إذ ارتبط فعلها وحركتها منذ البداية بحوادث سابقةٍ كانت قد وقعت مع أُمِّ البطل منذ ولادته وخوفها عليه من القتل، لذلك حصل أن قدَّمت شخصية الأخت جهوداً كثيرةً في دفع الضرر عنه، فوقعت في مآزق كثيرةٍ يصعب النفاذ منها بسهولة – مثل سؤالهم لها كأنك تعرفين الطفل وأهله – فكان ردها خلاف الواقع تمويهاً منها لخداع الخصم.

ومن صفات الشخصية أيضاً، أنها بدت متزنةً عند تأدية أدوارها، رابطة الجأش، في كلامها ثقةٌ عاليةٌ، فحين مضت تقتفي أثر البطل الصغير نلمحها لا تتردد ولا تسرع في طرح قولها، فتبدأ حركتها بهدوء تام، ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ﴾ وكأنها شخصية قد خبرت المجالس وعرفتها حقَّ معرفتها، حتى تساوت بأسلوبها وطريقة طرحها مع الرجال وكفاءاتهم في إدارة الكلام. ولِمَ لا ولحضور شخصية المرأة "في العالم القصصي دلالات عديدةٌ . . . [لأنها] شريكٌ حقيقي للرجل

(١) ينظر: أركان القصة، ١١١.

في صنع العالم وتمثله، يتعدد دورها باعتبارها فاعلاً ومفعولاً في أشكال تساوي في مقدارها دور الرجل إن لم يقفه"[١]. وذلك لأن حضورها منطقيٌ في عالم تقوم جُلُّ أساسياته على فكرة الثنائية وتداخل الأدوار وتمامها بينهما، حيثُ يُكمِل كلُّ جزء فيها جزءه الآخر، كأنه واقع عوالم الحياة التي يعيشها الناس وغيرهم من المخلوقات الأُخرى التي تعزز وجودها الفكرةُ ذاتها.[٢]

إنَّ المتأمل في هذه الشخصية النسائية، وفي الشخصية التي سبقتها – أعني شخصية الأُمِّ – يرى أنها قد مثَّلت في حركتها نفسها بما وقع عليها من وظيفةٍ فعليةٍ وجِبَ عليها تنفيذها، لكنه هل حركة الشخصية كانت فعلاً فردياً، ولم يكن لها نتائجٌ تخصُّ غيرها؟. هنا تتجسَّد فكرة المنهج البنيوي التكويني الرافض لحركة الأفراد التي تمثل فردية الشخصية بمعزل عن الجماعة والمجموع الذي تُبنَى في ضوئه حركة الشخصيات وآثارها كما قيل من قبل. لذلك كان لهذه الشخصية هدفاً أكبر من حركتها التي قامت بها، بل وأكبر حتى من الشخصية نفسها، إذ هذا الهدف قد حدده ارتباط الحوادث السابقة باللاحقة وما سوف يترتب عليه من ارتباط بأحداث مستقبلية سوف تخصُّ الشخصية ومن معها من جماعة اجتماعية نشأت معها، ويصبُّ فعل الشخصية ودورها في نفع الأُمة ومصلحتها الكلية، فيمثل فعلها طبقةً اجتماعيةً أو فئةً كبرى بأسرها، تعرضت لعدة عوامل اقتصادية وسياسية وثقافية واجتماعية، خلال التاريخ الماضي، حيث فرضت عليها قوانين وضوابط أرهقت أُمةً بأجمعها لمدَّةٍ طويلةٍ، فكان قيام الشخصية بأفعالها لنجاةِ تلك الطبقة وما تعرضت له من إضاعة وإذلال على يد مختلف الجبابرة الذين سبقوا قدوم موسى عليه السلام ورسالته، قال ﷻ: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[٣]. فالشخصية هنا معروفةٌ من بني إسرائيل، الذين خاطبهم النص وهم قد عُذِّبوا بأشد العذاب وأقبح الفعال بعد وفاة النبي يوسف عليه السلام، وفي وقت سابقٍ لموسى عليه السلام، كان الكهنة قد أخبروا فرعون أنه في المستقبل سيولد طفلٌ ينتزع ملكك منك، وكان من كثرة ما يُقتل من بني إسرائيل من الكبار والصغار أن أوشكوا على الفناء كلهم، فقيل لآل

(١) بنية السرد في القصة القصيرة- سليمان فياض نموذجاً، ١٠٧.

(٢) ينظر: م. ن، ١٠٧.

(٣) سورة البقرة، ٤٩.

فرعون أن يتركوا قتلهم وذبح صغارهم عاماً، ثمَّ يعودوا لقتلهم العام الآخر، وهكذا نجى بعضهم وحملت أُمُّ موسى بموسى عليه السلام.[١]

إذن ما يتميَّز به منهج القصة القرآنية من أصالة وإبداع وحيوةٍ، وإشاراتٍ عميقةٍ لمجريات الأحداث السالفة، يشكل زاويةً كبيرةً وجديدةً للبحث عن مادةٍ رائعةٍ من مجموع مواده العديدة، وهي اشتماله على إيضاح السنن التاريخية والنواميس التي كانت تتحكم بمجريات التاريخ الذي يضبط عملية وحركة الشخصيات[٢]، تبعاً لما كان من أحداث، وما سيكون محتملاً وقوعه على وفق قوانين وضوابط تحدد حركة الشخصية عند أداء وظيفتها، مراعيةً أحوال وأوضاع ما آلت إليه مصلحة المجموع مسبقاً، وما ينتظرها من أحداث تقع فيها إن اقتصرت حركتها على مصلحتها الذاتية والفردية من حماية البطل الصغير كأَخٍ دون النظر إلى ما تنشده مصلحة الأُمة التي عانت وستُعاني؛ لأنَّ "للتاريخ سنناً وإنَّ للتاريخ قوانين . . . تتحكم في المسيرة التاريخية للإنسان"[٣]. وهي مسيرةٌ تضبط أيضاً حركة الإنسان التكوينية التي في ضوئها يحدد مصلحته، وكذلك مصلحة الآخرين معه، فتكون الجوانب الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، وأيضاً السياسية جزءاً مهماً من جذور القضية التاريخية التكوينية لدى الشخصيات.

(١) ينظر: بحر العلوم، ٥١/١، ٣٩٥/٢.

(٢) ينظر: المدرسة القرآنية، المرجع الشهيد السيد محمد باقر الصدر (قدس)، ط٢، الناشر: دار الكتاب الإسلامي - مطبعة ستار، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م، ٣٣.

(٣) م. ن، ٤٢.

المبحث السابع

شخصية (مريم"ع")

قد يُقدَّم للشخصية قبل وجودها ودخولها عالم القصِّ ببعض ملامحها، أو أنها تُوصف ببعض صفاتها قبل أن تتحرك وترسم هي صفاتها وتكوين بنيتها التي سوف تنطلق منها، وعلى أساسها تبني خصائصها التي تكون أساساً لها وتُعرف بها. وهذا التقديم يسمى في العالم القصصي بتقنية "الاستباق الذي يدلُّ على كل حركة سردية تقوم على أن يروى حدث لاحق أو يذكر مقدماً"(١). أو كما يراه (برنار فاليط) سرد حدث مستقبلي ربما سيقع، أو أملاً بوقوعه، وقد ميزه (جيرار جنيت) بشكلين على حسب وفاء إخبار الراوي عنهما وما بهما من أحداث ستقع، فإن كان إخباره متحققاً أو ظنَّاً باحتمال حدوثه، سمي بـ (التمهيد)، أما إذا أخبر بوقوعه صراحةً وتكفَّل هو ما أعلن عنه في حينه دون تراجعٍ أو تردد فيما أعلن، فإنه يسمى عندها (إعلاناً) قد ألزم نفسه بتحقيقه.(٢) ويبدو أنَّ بعض ما قُدِّمَ من معلوماتٍ عن هذه الشخصية أوَّل أمرها – وإن كانت شخصيةً غامضةً لا يُعرف جنسها في الواقع – كان يمثل العنوان الرئيس لطبيعة الشخصية ونشاطها في المستقبل بعد وجودها. قال ﷻ: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(٣). إذ إنَّ النصَّ أفصح هنا عن بعض دلالات الشخصية كيف ستكون حركتها ووظيفتها فيما يأتي لاحقاً. وفي هذا الكشف الأولي عن طبيعة عمل الشخصية، أدى استباق الأحداث وتقديمها إلى قتل عنصري المفاجأة والتشويق لدى المتلقي بعض الشيء، بسبب إعلان الراوي عن تلك الأحداث قبل وقوعها، وبيانه العام بما قدَّم من معلومات عن الشخصية.(٤) وأُولى تلك المعلومات التي بدت ظاهرةً صراحةً من النص، هي حين قالت امرأة عمران: ﴿نَذَرْتُ﴾، ثمَّ ﴿مُحَرَّرًا﴾. أي ألزمت نفسي وأوجبتُ عليها القيام بجعل ما في بطني خادماً وعبداً لخدمة ربي والمعبد، عبداً خالصاً لهما بكل ما فيه؛ لأتصدق به على

(١) بنية السرد في القصة القصيرة- سليمان فياض نموذجاً، ٢٢٢.

(٢) ينظر: م. ن، ٢٢٢.

(٣) سورة آل عمران، ٣٥.

(٤) ينظر: بنية السرد في القصة القصيرة - سليمان فياض نموذجاً، ص٢٢٣، تقنيات السرد في النظرية والتطبيق، ١٢٠.

بيتك، ووقفاً لك ليطيعكَ، وحبيساً على خدمة الكنيسة، وسادناً من سدنتها، وأُحرره من كلِّ رقٍ تحريراً لك ولبيتك المقدس، ومن كلِّ خدمةٍ حتى خدمة أبويه.[1] ثمَّ تنكشف مباشرةً أبرزُ صفةٍ للشخصية بعد بيان بعض وظائفها الأوليَّة لتحدد جنسها، وكذلك اسمها، في قولهﷻ: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[2]. فتكتمل جلُّ معلومات الشخصية بأنها شخصيةٌ نسائية، واسمها مريم، بل وحتى من اسمها يُؤخذ بعض صفاتها العامة للوصول لخاصةِ صفاتها الأُخرى؛ لأنَّ مريم تأتي بمعنى الخادم بالسريانية، وقيل بالعبرية أيضاً هكذا معناها، وهناك من يقول إنَّ هذا الاسم يأتي صفةً بمعنى الخادِم.[3] ليُفهمَ من ذلك أوّل توجه للشخصية الثانوية نحو العبادة والإخلاص، والعمل الصالح الذي مصدره المنبت الحَسَن.

لا شك في أنَّ الشخصية الثانوية من أبرز وظائفها هي مساندتها لشخصيةٍ مركزيةٍ ما، لأجل إضاءتها بأحسن وجه من وجوه الإنارة والمساندة المطلوبة، لكنه عندما تحصل مساندةٌ لشخصيةٍ ثانوية من شخصيات أُخرى، ومتنوعة في تقديمها المساندة لهذه الشخصية، يكون الاهتمام تلقائياً منصبَّاً على هدف أكثر أهميةً منها يكمن وراء هذه المساندة للوصول إليه آخراً، وهذا ما جرى مع شخصية مريمعليها السلام عندما حصلت مساندتها من جهات وشخصيات عديدةٍ، كان أولها السماء، ومن ثمَّ شخصية أُمها (امرأة عمران)، وبعدها (زكريا) حيث تكفَّلها، ثمَّ الرعاية الدائمة والمستمرة لها عن طريق الملائكة الموكلين بها، خدمةً واصطفاءً وتعليماً لها، وآخرها تبشير من الله تبارك وتعالى لأهميتها فيما سوف تحمله من مبادئ وكلماتٍ. فالشخصية الثانوية في النهاية يكون جلُّ حركتها لغيرها، لأنَّها تعمل على تحريك مصير وأفعال الشخصية المركزية أولاً، ثمَّ بنجاحها تثبت حضورها وقيمتها، ليس أنها لا قيمة لها كما يُقال! بل هي ذات أهمية في سير الأحوال داخل القصة، ويُهتمُّ بها كما يُهتمُّ بالرئيسة منها، إذ هي المرآة التي يُنظر من

(١) ينظر: التفسير الوسيط، ٤٣٠/١، مفاتيح الغيب - التفسير الكبير، ٢٠٢/٨-٢٠٣، الجامع لأحكام القرآن - تفسير القرطبي، ٦٥/٤-٦٥، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (المتوفى: ٧٥٦هـ)، تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط، د. ط، الناشر: دار القلم - دمشق، ١٣١/٣، القصص القرآنية، ٣٦٥.

(٢) سورة آل عمران، ٣٦.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب - التفسير الكبير، ٥٩٠/٣، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ٩٢/١، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، ٤٩٤/١.

خلالها للبطل، والكاتب الناجح والدقيق يعاملها معاملة البطل مع فارقٍ بالوظائف المميزة، وإلا كيف عُدَّت من صانعي التاريخ الحقيقي في نظر (لوكاتش) إذا كانت لا قيمة لها؟![1] بل هي شخصية اكتسبت شهرتها من صنيع أفعالها، وما تقدمه للبطل الرئيس ربما أكثر من غيرها، لذلك يمكن وصفها بكلِّ مصطلحات المساندة والمساعدة والمؤازرة له، لأنها أكثر الشخصيات احتكاكاً به. فلماذا لا يُطلق عليها بالشخصيات المشابهة للرئيسة، أو الشخصيات الأكثر مؤازرةً للشخصية الرئيسة؟ التي أطلق عليها بعض الباحثين بـ (الشخصيات غير الرئيسة)، ومن ثمَّ أعطاها أبرزَ صفات الشخصيات الثانوية تداولاً.[2] مع ما للشخصيات الثانوية من حضورٍ سرديٍّ، وكذلك الحضور المعنوي الملازم للبطل حتى نهاية كل القصة بآثارها.

لقد كانت شخصية مريمعليها السلام مميزةً بين جميع الشخصيات النسائية، فاطلاق الاسم على الشخصية مباشرةً وعلناً يدلُّ على الاهتمام المبالغ فيه لتلك الشخصية. وليس كما قيل إنَّ ترك التصريح بالاسم كان جرياً على ما كانت عليه العرب من كرهها لذلك، بل هو لا يُذكر عندما لا يكون لذكره غرضٌ مناسبٌ لسوقه، بسبب عمومه، ويُذكر حين يكون لصاحبه شأنٌ عظيمٌ مختصٌ به دون غيره من أبناء جنسه جميعاً، كما هو حال الشخصية وما تعرضت له ممن رماها بالفحش وهي مُبَرَّأة نقيةٌ؛ لعفتها وحصانتها، وما لمزاياها النفسية الصالحة التي خدمت حركتها العملية بوصفها شخصية لها حضورها البارز والمهم في القصة، والذي أهمه تصديقها لكلمات الله، فيكون صاحب الاسم مقصوداً لذاته وصفاته. نحو خصائص الأُنوثة المتمثلة بعذريةِ مريمعليها السلام وطهارتها، وتبتلها المعهود في حينها، التي لم يشهد زمانها مثيلاً لها.[3]

مرَّت الأحداث في القصة سريعةً ولم يُفصَّل عنها بكلِّ جزئياتها، كطفولة مريمعليها السلام مثلاً كيف كانت، أو كيفية قبولها ودخولها بيت المقدس والمحراب، وغير ذلك. لِتنتقلَ القصة مباشرةً إلى أهم مفصلٍ فيها وهو العنصر الأكثر بروزاً خلال السرد، عنصر الحوار الذي تعدد فيه المحاورون معها بدءاً من زكرياعليه السلام ووصولاً إلى الملائكة الذين رسموا بحوارهم معها كلَّ تفاصيل ما ستؤول إليه حالها فيما بعد، ثمَّ أتت الملائكة بالحدث المركزي من الاصطفاء. قال ﷻ: ﴿إِذْ

(١) ينظر: الشخصيات غير الرئيسة في رواية مدينة الله لحسن حميد، ١٤-١٥.

(٢) ينظر: م. ن، ١٦.

(٣) ينظر: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص١١٦-١١٧، سيكولوجية القصة في القرآن، ص٤٠٢، الصورة الفنية في المثل القرآني، ٣٢١.

قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[1].

فقد بدأ الحوار من الملائكة والشخصية تستمع له بكلِّ انصات وتأمل ولا تُقاطع الكلام؛ لأن الشخصية – وبحسب بنيتها الفكرية التي نشأت عليها – عابدة مؤمنة يشهد لها محرابها، لم تُرِد أن تُعارض أيَّ شيءٍ هو من ربِّها الذي يرعاها، لكننا نلحظها عندما يأتي الحديث عن الولد والولادة العجيبة تنتفض ومباشرةً تبدأ بالسؤال عن الأمر وكيف يكون. الملاحظ هنا أيضاً أنَّ الحوار قبل اعتراضها كان خارجياً، وهي تستمع، ولكن بعدها تحوَّل حوارها بتركها الملائكة والتوجه نحو المصدر الرئيس للحوار، والمنبع لحلِّ الإشكال وهو الله، قالت ﴿ربِّ أنى﴾؟ أي: استفهمت بكيف يكون هذا؟ إذن انتقل الحوار إلى داخل نفس الشخصية مع الله، لأنه هو الأجلُّ بالإجابة، إذ طلبت بيان كيف يكون لي ولدٌ وأنا لم أتزوج حتى، ولا حصل لي أن مسني أحدٌ، فهل هو زواج سيقع، أو هو قدرةٌ منك وأمرٌ تُريده، وقد يكون تعجباً منها بهذا الأمر.[2] ومن الحوار الداخلي نستشفُّ ردَّ فعل الشخصية وعجبها، وحيرتها في نفسها، فحصل الانتقال للحوار الداخلي، إذ مريم لعلها "لم تلتفت كثيرا إلى ما لهذا الوليد من صفات، إذ كان شغلها الشاغل إذاك، هو أن تلد مولودا من غير زوج يتصل بها"[3]. ولهذا دُهِشت الشخصية من ذلك، واضطربت في البداية مما أدى إلى إظهار سؤالها بتلك الطريقة، فكان أن نُقِلَ الحوار من الخارج إلى الداخل بسرعةٍ، سعياً من الشخصية لمعرفة الجواب الشافي من الله مباشرةً. فلم تلتزم الشخصية بحوار متبادل مع الطرف الآخر (الملائكة)؛ لصعوبة الموقف ولستغرابها منه كما قيل سابقاً. فتحول الحوار من طريقة العرض الدراماتيكي في طبيعته المتبادلة شفاهياً بين شخصيتين

(١) سورة آل عمران، ٤٥-٤٩.

(٢) ينظر: تفسير المنار، ٢٥٣/٣، تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: ١٣٧١هـ)، ط١، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م، ١٥٦/٣.

(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب (المتوفى: بعد ١٣٩٠هـ)، د. ط، دار الفكر العربي- القاهرة، ٤٥١/٢.

أو أكثر، إلى طريقة السؤال المباشر من قبل الشخصية، لأن في الحوار غايةً هي توليد الأفكار الجديدة في الذهن، فضلاً عن الأفكار القديمة، وأيضاً توضيح المعاني والمفاهيم لمعرفة فكر الشخصيات جيداً، لذلك أتى الحوار مشهدياً ومباشراً، حيث تساوى مع الخارجي منه بتناوبه بين شخصيات عديدة ضمن إطار المشهد ذاته، وداخل العمل القصصي نفسه، وبالطريقة المباشرة في سياق الحدث نفسه من دون أي قطع بين المتحاورين.(١) وهذا التنوع والانفتاح في الحوار يدلل على مدى اتصال الشخصية وشدَّة ارتباطها بالطرف المُحَاوَر، للإحاطة منها بما تُريدُ فهمه جيداً، فضلاً عن إفهامها للآخرين فيما بعد إن حصل حدثٌ ما قد يعرقلُ مسيرتها، أو أنها تضع حساباً لكل ما ستواجهه من المجتمع الذي يمثل طبقات متنوعة تحكمها مختلف الجوانب الدينية، والاقتصادية، والاجتماعية، والفكرية المتعصبة وغيرها، وهو سبب من الأسباب التي جعلها تلحُ كثيراً على معرفته معرفةً مستوفية كل جوانب الحدث القادم والمهم من خلال حوارها؛ لأنَّ "الحوار يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمستويات الشخصيات . . . فيتيح مجالاً لتقديم معرفة مباشرة عن الشخصية . . . [لأنه] يُتيح لها طوعاً أو كراهيةً أن تعبر عما لا يتيح الكشف عنه أو استشفافه أية تقنية سردية أُخرى"(٢). وعليه فإنَّ أهمية هكذا حوارات تكمن في تسليط الضوء مباشرةً على الشخصية، ومعرفة خفايا تكويناتها النفسية، لأنه ينطوي على معلومات غنيةٍ ووافيةٍ في معرفة الأحداث وملابساتها، فضلاً عن معرفة الأفكار التي تنطوي عليها القصة وسياقها الذي جاءت به ولأجله.(٣)

إنَّ شخصية مريم عليها السلام بالرغم من تعدد أدوارها ووظائفها، تُلحظُ فاعليتها لا من وجهة التقسيم الرئيس أو الثانوي الذي عليه الشخصيات أو غيره، بل من وجهة النشاط النوعي وطريقة أدائه؛ لأن المقياس النوعي للشخصية هو الذي يحدد أهميتها وظهورها، فضلاً عن الحيوية والفاعلية اللتين تجعلاها قادرةً على القيام ببلورة الأفعال التي تعتمدها الشخصية في نجاح وظيفتها التي تقوم بها داخل الحبكة بنسيجٍ متناسق، فالوظائف بحسب رأي (بروب) هي الأساس الذي يُشكل العناصر الأساسية في الحكي، لذلك يكون السؤال عمّا فعلته الشخصية، لا من فعل،

(١) ينظر: المصطلح السردي، ٥٩-٦٠، المعجم المفصل في الأدب، ص٣٨٥، جماليات التلقي في السرد القرآني، ٧٦، الشخصيات غير الرئيسة في رواية مدينة الله لحسن حميد، ١٦٦.

(٢) جماليات التلقي في السرد القرآني، ٧٦-٧٧.

(٣) ينظر: م. ن، ٧٧.

أي دلالة الوظيفة ما هو، إذن الوظيفة فعلُ الشخصية محدداً فيه دلالة ذلك الفعل ما هي في صيرورة الحبكة ونضوجها.[١] فشخصية مريم بتحركها ونشاطاتها العبادية والأخلاقية في المجتمع، تكون هنا قد أدت وظيفتها داخل إطار جماعي، راعى أيضاً تقاليد ذلك المجتمع ولم يكن تحركها فردياً خاصاً بها وحدها، وهي في الوقت نفسه تمثل طبقةً اجتماعيةً أيضاً كانت موجودةً معها وتسير بنهجها – إذا لم تكن تتَّبعها طبعاً – وتحمل مبادئها. لذلك تكون شخصيتها متفاعلةً مع جماعتها ومن أجلهم؛ لأن الشخصية متى ما مثَّلت جماعتها قليلاً أو كثيراً فإنها لا تكون إلا داخل مصالح تلك الجماعة وتميل لجهتها، وكلما امتازت الشخصية بإيجابيتها فإنها تتوافق نفسياً مع ذاتها ومع العالم الخارجي المحيط بها قدر المستطاع، لبيان سلوكها الفردي بخصائصه العامة، وليدخل في تعديل سلوكيات الأفراد من حولها بطريقة أكثر فاعليةً وأثراً فيهم.[٢] وعليه تجسَّدت حركة الشخصية ووظيفتها على وفق ما أملاه النص عليها من بناء مجتمعٍ جماعي تحكمه نظمٌ محددةٌ، وذلك حين تبيَّنَ عمل الشخصية الرئيسة القادمة بوساطة شخصية مريم﵇ فقال: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، أي: إلى مجتمعٍ بأكمله لا لشخصية معينة، بل إلى أُمةٍ بنظامها، ثم انتقل إلى غرض آخرٍ شرحه للشخصية النسائية كيف يكون فيه تحرك الأمة في ضوء ذلك النظام المخطط له، فقال: ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ﴾، وكأنه إشارةٌ إلى تنظيم حياة تلك الأمة الجماعية بأسرها حتى في حاجاتها اليومية الصغيرة، إذ فيه دلالات على أهمية العامل الاقتصادي في تنظيم أُمور الجماعة لتصل إلى ما هو أسمى من ذلك، وهو قيادة وإدارة مصالح المجتمع بإنصاف وعدم ضياع مستقبلها، وفي الأمر أيضاً إشارةٌ إلى وضع الأُمة في ذلك الوقت، وما عانته من تسلط أصحاب الملكية من كهنة ودولة مستبدةٍ حكمت اليهود وأذلتهم زمناً طويلاً، كما رأينا من قبل موسى﵇ وفي أيامه، وبعدها وحتى مجيء المسيح﵇. وكأن الواقع الاجتماعي كلما كان أقلَّ أهمية بالطبقات الأقل ملكيةً، فإنه يقسو عليها كثيراً، لأن ساسة الملكية والحاكمين بها لا ينظرون لمصلحة المجتمع إلا بنظرة ضيقةٍ تقسمهم بين طبقات عليا وأُخرى دنيا، قليلة الأهمية في الواقع المجتمعي وإن كانوا يعملون معهم، مما ولَّدَ مسارات اجتماعية معقدةً جداً، إذ لابدَّ من وجود طرفٍ يعارض بوضوح طريقة النظام القائم بشكل مجموعة أو مجموعات اجتماعية منظمة اقتصادياً تعبر عن طموح الأمة، ينظمها اقتصادٌ

(١) ينظر: بنية النص السردي، ٢٤، قال الراوي، ٣٣-٣٤، جماليات التلقي في السرد القرآني، ٦٠.

(٢) ينظر: جماليات التلقي في السرد القرآني، ٦٢،٦٤.

مستقل عن الدولة والحكم، يمكنها من العيش لو حصل أمرٌ ما.[١] وهذا الأمر نجده ماثلاً في رؤية (كولدمان) عن كيفية انتظام أفراد الطبقة في نسق اقتصادي أو اجتماعي أو ديني يوحدهم لبناء طبقتهم وتحصينها من كلِّ الجوانب التي تعترضهم، أو تقف ضدهم بوصفهم مجموعة اجتماعية لها أُسسها ومنظومة فكرها الخاصة بها، وبنيتها الموحدة كجماعة بشرية تعيش نفس الظروف، التي تسير بموجبها داخل المجتمع.[٢] لذلك نبَّه النص على العامل الاقتصادي بدقةٍ، ومن وجهة نظر مهمة جداً، هي الاهتمام به والحرص على توفره بلفظة ﴿تدَّخرون﴾ ودلالاتها المتعددة لدى المجتمع، فضلاً عن مدخرات النفوس، وما يجول في الصدور تجاه ما سيكون من دعوة الشخصية الرئيسة(النبي عيسى سلام الله عليه)، الذي كان ينال المرتبة الأولى اهتماماً وعنايةً لدى الشخصية الثانوية هذه؛ إذ هو الحدث المركزي في القصة.

إنَّ حركة هذه الشخصية الثانوية كانت من أكثر حركات الشخصيات النسائية الأُخرى التي تناولها البحث، فنشاط الشخصية ودوافعها النفسية، واستعداداتها للحدث الكبير وغيرها، كانت كلها دافعاً قوياً أوجد الحوافز والحيوية الفعَّالة لدى الشخصية نحو إنجاز مهامها التي أُنيطت بها. لأن اطمئنانها والتصديق بما سيكون، منحا الشخصية قوةً في مواجهة الأحداث جميعها، ومن ثمَّ مواجهة المجتمع الظالم والمنحرف في نظرته للمرأة، وتحجيم نشاطها أو اقصائها تماماً، لاسيما في مجتمع يظن نفسه مؤمناً بكلِّ تعاليم دينه، كمجتمع اليهود آنذاك. ولا يُنسى ما تتعرض له المرأة في أغلب المجتمعات وإلى وقتنا الحاضر من آثار سلبية مرهقة لنشاطها ودورها في الحياة، مما جعل وظيفتها مقيدة في شتى مجالات عملها، بل وأثر في موقفها النفسي الداخلي بأنها شخصية لها طموحها الاجتماعي والواقعي في إدارة الحياة، الأمر الذي أثَّر كثيراً في جوانبها التكوينية والفكرية، وقيَّدَ طموحها بوصفها فرداً داخل هذا المجتمع أو ذاك.[٣] وعلى وفق هذه الحالات وغيرها نشاهد كيف بدأت الشخصية حركتها المهمة والكبرى حين توجهت نحو مكانها الذي اختارته بعيداً عن أهلها، قال ﷻ: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ

(١) ينظر: الإله المحتجب، ٢١٢-٢١٣.

(٢) ينظر: من البنية إلى السياق، ص٥٦، شعر اللصوص في العصر الأموي في ضوء البنيوية التكوينية، ٢٦-٢٧، البنيوية وما بعدها النشأة والتقبل، ١٥٩-١٦١، شعر أبي تمام دراسة بنيوية تكوينية، ٢١٩.

(٣) ينظر: تحولات النص السردي العراقي، عبد علي حسن، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق- بغداد، ٢٠١٣م، ١١٣.

إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾[1]؛ إذ كانت في مجمل هذا النص المبارك من القصة، أبرز نشاطات الشخصية، إذ بدأت من اختيار المكان الأفضل لها ولبطلها، مكان شروق الشمس الذي كانوا يعظمونه ويتباركون فيه لأنواره، فاعتزلت وتنحّت شرقيَّ بيت المقدس، لكي تختلي للعبادة، وتعتزل الناس وتنفرد باللَّه وحده، الذي لا تأنس إلا به، ولا يعمر قلبها إلا بذكره.[2] فالمكان الذي اختارته الشخصية ربما لا يروق بعض الناس، لكنها فضَّلته لخصوصيته الكبيرة في نفسها، وكذلك لتوافقه مع تطلعاتها وغاية هدفها التي هي مقبلةٌ على حمله ونشره بين الناس؛ لأن الثقافة جزءٌ مهمٌّ ترسمه طبيعةُ المكان، ويأتي نتاجها من أشكال وممارسات الشخصية بحسب المكان الذي تُقيم فيه، لذلك كان نشاط الشخصية ومنطلقاتها الثقافية بذلك المكان تعبيراً عن بنيتها الفكرية والثقافية العملية كشخصية عبادية لها وضعها الخاص بها.[3] وعليه فالشخصية تنظر إلى المكان بحسب حاجتها له، وما يُعطيها من دفعٍ ينفعُ نشاطها؛ لأنَّ "المكان العادي قد يحقق للشخصية قدراً من الإشباع لكلٍّ من الدافعين: الانتماء الاجتماعي والتقدير الاجتماعي، لكنه لا يقاس بضخامة الإشباع الذي تحققه العزلة في المحراب"[4]. وهو إشباعٌ روحي داخليٌّ وعميقٌ تستشعره الشخصية أكثر من إشباع النفس الخارجي السطحي، وهو أيضاً إشباعٌ ثقافي واجتماعي يُبيِّنُ مدى انتماء الشخصية لذلك المجتمع.

ويأتي المشهد الآخر على بيان حالةٍ للشخصية وهي فزعةٌ مما جاءها به الرسول من خبر، إذ هي تتخذ حجاباً عن الناس، وإذا يأتيها مَن ينغِّصُ عليها خلوتها، وبخبر عظيم لم تألفه من قبل. وهي تستعيذُ بربها منه، فإذا هو يُفاجئها بخبر أعظم! أني جئتُ لأهب لك غلاماً؟! فتضطرب الشخصية أكثر من هول ما يتكلم به الرجل. فيُلحظ على الشخصية فزعها من الموقف الصعب، فترتعد كلُّ أعضائها؛ حياءً وخوفاً وقلقاً لما ترى وتسمع. وهو وضعٌ وقعت به

(١) سورة مريم، ١٦-١٩.

(٢) ينظر: فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، ط١، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، ١٤١٤هـ، ٣٨٦/٣، تفسير المراغي، ٤٠/١٦-٤١، زهرة التفاسير، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفى: ١٣٩٤هـ)، د. ط، دار الفكر العربي، ٤٦٢١/٩.

(٣) ينظر: جماليات التلقي في السرد القرآني، ص١٧٠-١٧١.

(٤) قصص القرآن الكريم دلالياً وجمالياً، ٤٧٦/١.

الشخصية فكان هزَّةً كبيرةً عمَّت كلَّ كيان مريمعليها السلام يعلوها الاضطراب والقلق الشديد.[١] لكنَّ هذا الاضطراب لم يُقيِّد حركة الشخصية، أو يمنعها من أداء وظيفتها وواجبها، بل هي مباشرةً تحركت وعلى علمٍ من حركتها الواثقة منها، فاستعاذت بربها وخالقها منه، لذلك باشر الطرف الآخر بالإجابة فوراً دون إبطاء أو مقدمات، فبيَّن أنه رسولُ الله لها. فكانت هذه الكلمات قد نزلت على الشخصية كماءٍ يُصبُّ على النار لتطفئ نار قلب مريم وتطمئن[٢]؛ لأن وعي الشخصية وسلامة قلبها وروحها، تجعلانها تتحرك بخطى ملؤها التعقل والاصرار على دفع ما يقع عليها من سوء. فهي إذن شخصيةٌ حصيفةٌ واعية ومتمكنةٌ في مواجهة المواقف والأحداث بشجاعةٍ ونجاح، وهو أمرٌ يدلُّ على نمو الشخصية وتطورها الحركي، فكرياً وعملياً وعقدياً؛ لترسمَ بحواراتها طموحات ونجاحات الشخصيات النسائية الملتزمة بجزئيات سلوكيات النساء الصالحات خلال مسيرتهن.

ثمَّ يأتي الجانب العملي والميداني للشخصية، قالﷻ: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾[٣]، وفيه بدأت الشخصية باختيارها مكانا بعيداً عن أعين الخلق، بعد حوارٍ داخلي مع نفسها وهي قلقةٌ مشوشةُ الفكر مضطربة الحال. فكان الحوار قد صوَّر حالة الشخصية النفسية كيف كانت، وما تعانيه امرأةٌ مثل مريمعليها السلام وهي بتلك الصفات الفريدة والطهارة، وهو حوارٌ لا يُفقِد الشخصية وعيها أبداً، لعلمها التام بما تفعله، ولكنَّ قضية المرأة وهي عذراء مبرأة كيف سيكون وضعها بين الناس، فضلاً عما سوف تعانيه تلك المرأة وهي بكرٌ وحيدة، من تجربةٍ جديدةٌ عليها.[٤] لكننا نرى الشخصية برغم ما قيل عن وعيها وإدراكها لما تقوم به، وأنه من فعل السماء ومبارك لها فيه، نجدها يُخيِّمُ عليها الجانب النفسي والتفكير العميق، والقاتل للمرأة من كلام وتقولات المجتمع من حولها؛ لأن "مريمعليها السلام بالرغم من إيمانها العميق بهذه البشارة . . . لا

(١) ينظر: القصص القرآنية، ٣٦٩.

(٢) ينظر: م. ن، ٣٦٩.

(٣) سورة مريم، ٢٢-٢٦.

(٤) ينظر: جماليات التلقي في السرد القرآني، ١٠٠.

تزال تحسب للناس حسابهم . . . ولا يزال الخجل يلفُّها، لقناعتها بأنَّ الآدميين من الصعب عليهم أن يهضموا مثل هذا الحدث المعجز"[١]. إذن هي شخصيةٌ مرتبطةٌ بنظامٍ اجتماعي يحتم عليها مراعاة تقاليد ذلك النظام وتلك والطبقة، وإن انفردت عنه بصفاتها الخاصة بها، لكنها ترجع – وكما قيل سابقاً – إلى نسق اجتماعي، أو نسق الطبقة التي تنتمي إليها، وتشعر أنها جزءٌ من تكوينها وسلوكياتها.

وبعد وصول الشخصية إلى مرحلة الحسم للأمر والحدث المركزي، وهو الوضع، أن التجأت إلى موضع النخلة التي تمنت به أنها لم تكن، ليدلل ذلك على انغلاق الشخصية على نفسها وحزنها لما سيكون بعد ولادة البطل، وفجأةً يأتيها النداء بانفراج العقدة داخلياً، لتبدأ العمل ومتابعة نشاطها، وعدم الحزن واليأس. فتنهض الشخصية من جديد بحركتها. وعندما تتحرك مباشرةً تتهيأُ لها كلُّ أسباب النجاح لإنجاز مهامها التي عليها القيام بها، لأنها وظائف ضرورية، تبعث الأمل وتُسيِّر الحياة للشخصية، فتقع أمامها أُمورٌ عجائبية عديدةٌ، أولها جريان الماء من تحتها، وعودة الحياة لجذع نخلة ميت، ومن ثمَّ وجود الثمر فيها ونضجه حين هزِّهِ رُطباً جنياً. وقد وُصِفَ العجائبي بأنه قطعُ نظامٍ معروف بسبب وجود اللامعقول المفاجئ ضمن ما هو ثابت وجوده في الحياة، وهو الذي يدفع للحيرة والتردد جرَّاء حادثة غريبة بمظهرٍ يتجاوز الطبيعي المعهود، بعلل تُحلل بما فوق الطبيعة، إذ يحصل فيه مزجٌ بين الجو الواقعي والجو العجائبي، فيقع التحوّل بالأشياء عن واقعها، مما يثير لدى المتلقين عنصر الجذب والدهشة والمتعة والانتباه بحصوله.[٢] ومن ذلك قيل إنَّ الجذع كان جذعاً يابساً لا حياة ولا ثمر فيه، وبعد هزها له، أثمر ثمره وأينع فيه.[٣] وهنا نستشعر الصورة الفنية التي رسمتها البيئة بألوانها الطبيعية الرائعة للشخصية؛ لكي يتمَّ تلطيف الجو النفسي الداخلي لمريم عليها السلام، وتعويضها عن القلق والحزن والتعب الذي أصابها، فضلاً عن تفريج الشدة ودفع الوحدة التي حصلت لها مما جرى، وذلك بتجانس البيئة الخارجية وجمالها مع بيئتها الداخلية، وما أحست به من بيئةٍ ضيقةٍ بسبب شعور معتمٍ أحبط الشخصية

(١) قصص القرآن الكريم دلالياً وجمالياً، ٤٨١/١.

(٢) ينظر: العجائبي في المخيال السردي في ألف ليلة وليلة، رسالة ماجستير، سميرة بن جامع، إشراف: الدكتور صالح لمباركية، جامعة الحاج لخضر- باتنة - كلية الآداب والعلوم الإنسانية/ قسم اللغة العربية وآدابها، ٢٠٠٩-٢٠١٠م، ١٦، الشخصيات العجائبية في رواية "ساعة بغداد" لشهد الراوي، أ. م. د. سالم نجم عبدالله، نور عادل محمد، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، مج: ١٥، ع:٢، ٢٠١٩م، ٦١٦.

(٣) ينظر: التفسير البنائي للقرآن الكريم، ٨٠/٣.

وألقى بظلاله عليها، وهو ما حقق أجمل مستوى من الإثارة الفنية لدى المتلقي، بفضل هذا التجانس بين البيئتين.[١] وهناك صورة فنيةٌ أُخرى نلمحها على الرغم من أنَّ شخصيةَ مريمعليها السلام كانت منذورةً للمعبد والعبادة، وأنها انتبذت مكانا قصياً، وآخر شرقياً لتعتزل الجميع، لكنها في حركتها، هي شخصيةٌ غير ساكنةٍ، بل إنها نشطةٌ متطورةٌ؛ لِتُعلم الآخرين أن لا يقفوا حيال ما يمرون به، وأن لا يقفوا متحيرين مذهولين فيما يعترضهم؛ لأن الحياة والنجاة تتطلب تقديم النشاط وعدم الوقوف، وأنَّ أيَّ شيءٍ لا يأتي إلا بالجهد والمثابرة وبذل المزيد لسير عجلة الحياة. وهنا تكمن حركة الشخصية التي لا تمثل فقط ذاتها، بل هي ترسم نشاطاً ونظاماً فردياً استنائياً – فرديٌّ بظاهره – لكنه يخص المجموع الذي تُعد الشخصية جزءاً منه، وفي مقدمته.

بعد ما قدَّمته الشخصية من جهدٍ ميداني اكتفت بتقديمه وحدها، وبما حولها من أسباب النجاح التي رافقت حركتها، نجدها بعد ذلك تتجه بنشاطها نحو الميدان الاجتماعي الذي كثيراً ما تحذرت منه ومن مواجهته، وهو أمرٌ يدلُّ على معرفة الشخصية بذلك المجتمع معرفةً جيدةً، وبكل تفاصيله وجزئياته الدقيقة، وهو ما دلل في الوقت نفسه على وعي الشخصية وفهمها، وثقافتها الاجتماعية، وأنها وإن كان النص قد رسمها رسماً عبادياً ملتزماً، إلا أنها شخصيةٌ متنورةٌ متطلعةٌ بما فيه الكفاية، مع الفهم الناضج في معرفة المجتمعات وطبقاتها. فبدأت بحركة بسيطةٍ وسريعةٍ وهي الإشارة بسكوتٍ لا غيرها، قالﷻ: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا . . . يَا أُخْتَ هَارُونَ . . . فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾[٢]. والإشارة هي أيضاً حركةٌ رمزية من حركات الشخصيات، وأنها تعني الإيماء أو الرمز من قبل الشخصية في العمل القصصي. وقد تكون بوساطة العينين والحاجبين، وحتى بوساطة الشفتين، ولكن من دون كلام يخرج من بينهما، أي حبس اللسان عن التكلم أو النطق بشيء.[٣] وهو اختصارٌ وايجازٌ من الشخصية؛ وذاك منها كان لوناً بلاغياً ذا معنى عميق جداً، بأنَّ عليهم أن يسألوا البطل الرئيس، وهو يكفي عني الإجابة التي هي أفصح لكم، وأكثر إفهاماً ورداً عليكم بما نسبتموه لي. فبلاغة كلام الشخصية جاءت على وفق حركتها

(١) م. ن، ٨٠/٣.

(٢) سورة مريم، ٢٧-٣٠.

(٣) ينظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد، ٤٣٥/١، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، ط١، دار القلم، الدار الشامية-دمشق، بيروت،١٤١٥هـ، ص٢٠٩، تفسير الراغب الأصفهاني، ص٥٤٨، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ٤٣٢.

الإشارية، التي تردُّ عليهم، أنه برغم عِظَمِ ما ترون، وما ترمونني به، فإنَّ الردَ عليكم يكفي بهذا الطفل الرضيع الذي ترونه رضيعاً. أي أنَّ فعل الشخصية التي قامت به، حدد دلالاته بنفسه وأفهمهم على الرغم من وروده بإيماءٍ وإشارةٍ عابرةٍ – ربما تبدو لمجتمعها كذلك – جاءهم بعدها ما يهزهم ويردعهم فعلاً بما لا يصدق حدوثه، فأزاح نص القصة ما خفي عنهم برده السريع، قال ﷻ: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾. وكأنَّ الكلام من البطل الرئيس جاء كذلك؛ لتتساوى طبيعة معجزة نطقه مع طبيعة معجزة حمله وولادته من عذراء بكر، وفيه أيضاً أُنسٌ للشخصية النسائية بأنَّ من يتهمكِ سوف نردُّ عليه بكلامٍ أكثر إعجازاً من حملك ووضعك لعيسى عليه السلام، بل وأبْيَنَ دليلاً وقولاً من قول القائلين فيكِ، وذلك سيكون سبباً لنجاتك من ألسنة المتهمين والحاقدين عليكِ، قال ﷻ: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾(١).

لقد كانت نصوص القصة على طول امتدادها وتنوعها عن الشخصية، نصوصاً طويلةً ممتدةً بدلالاتها العميقة على حسب أماكن تواجدها داخل القصة، ولكنها على رغم طولها وامتدادها فهي لم تكن طويلةً بالمعنى الذي يقع فيه التكرار وإعادة الكلام نفسه؛ لأن دلالة الشخصية وحركتها كانت تسير على وفق المعنى المقصود من حركتها في كلِّ موضع جاءت به. والملاحظ على حركة الشخصية منذ الخطوات الأُولى لاختيارها وبعد خلقها، واصطفائها، ومن ثمَّ اختيارها لتلك المهمة العظمى من حمل الرسالة ومن يحملها، كانت كلها خطوات وحدت معنى واحداً وجسدته عبر أغلب نصوص القصة، وهو مصطلح العلم والتعلم الذين بديا واضحين على نصوص القصة في مجملها، وذلك هو الرباط الذي ربط كلَّ جوانب القصة بمجرياتها وأحداثها ومواقفها المختلفة، حتى كاد يكون متفوقاً حتى على جلِّ الشخصيات داخل القصة منذ انطلاقها وحتى نهايتها. وما أجمله ذلك النص من القصة حين يقول ﷻ عن مريم عليها السلام: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾(٢). فعلى الرغم مما أُخفي في النصِّ من أحداث، فهو يزخر بدلالاته البعيدة من كلِّ جوانبها، والسؤال لو يبدأ من لفظة ﴿صَدَّقَتْ﴾ فكم به من معاني خفية، وما هو الذي صدقت به الشخصية، وما هي كلمات ربها لها، وهل كتبه التي نعرفها بعددها المحدود؟، أم هناك كتبٌ أُخرى لم يذكرها لنا القرآن الكريم؟ ومَن هم القانتون؟ وكيف هو قنوتهم؟ لينكشف مثلاً قنوت

(١) سورة النساء، ١٥٦.

(٢) سورة التحريم، ١٢.

وعمل الشخصية لنا كيف كان، وبرغم وضوح حركات الشخصية مثلاً في هذا النص من تصديق بالكلمات، والكتب، ومِن القانتين، لكنَّ الأمر بقيَ غامضاً، فما هو نوع تلك الكلمات، هل هي شرائع؟ أم كتب منزلةٌ؟ والقانتون؟ رجالٌ أم نساء، أو كلا الجنسين.[1] وما دام العلم لا حدَّ له، ولا هو مخصوصٌ بأُناس يقف عندهم، فلا قطع ولا حدّ لدلالات كلام الله وقصصه، وما كان في نفس الشخصية الثانوية يمثل مختلف الدلالات الدنيوية الصالحة، وكذلك الدينية منها.

إنَّ رابط العلم لم يقتصر على قصة مريم وابنهاﷺ، بل كان الحبل القوي، والخيط المتين الذي جمع كلَّ قصص القرآن وشخصياته، وأحداثه ومواقفه المختلفة في نسيج متواصل، وتماسك وثيق، شدَّ بعضه بعضاً؛ لأن هذا العلم الذي ربط بين قصص القرآن الكريم، وأبان معانيه العجيبة، ما هو إلا علمُ اللهِ الذي به يُفتحُ كلُّ بابٍ موصدٍ، وتُحلُّ به عُقدٌ صِعابٌ، فإن صحَّ القول فإنه كان الرابط العظيم الذي تجلت به قدرة الله في قصصه، لبيان فضل العلم وأهله، وأنَّ مَنْ يسعى ويجدُّ لكسبه، لهو الفائز بنيل سعادة الدنيا والآخرة، وكان من أصحاب العقول النيِّرةِ التي خاطبها هذا القصص الحقُّ، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[2]، فإما أنك تعلم بصدق وتكون من الفائزين، وإما أن تكون مهيئاً لتَتَعلَّمَ وتَعْلَمَ، فتكون من الناجين.

(١) ينظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد، ٣٢٤/٤، الكشاف، ٥٧٣/٤، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ٣٣٦/٥.

(٢) سورة يوسف، ١١١.

الخاتمة

بعد التأمل في فضاءات الشخصية وباطنها، وما أضافه عليها المنهج المعتمد في البحث، توصلت الدراسة إلى نتائج عديدة يمكن إجمالها فيما يأتي:

١- إنَّ الشخصية القصصية القرآنية أكثر بعداً والتزاماً من غيرها؛ لأنها عندما توضع لحدث ما أو أحداث متنوعة، تسير على وفق تلك الأحداث والمواقف من دون مبالغة أو خروج عن المقصود المراد. إذ هي كانت وما زالت تمثل هدفاً أساسياً في تحركاتها، ونشاطها الذي تسعى أن تكون فيه أكثر شمولاً وتأثيراً في متلقيها.

٢- تتميز الشخصية الثانوية في القصص القرآني بسرعة التفاعل والاندماج مع الأحداث كلما تتطور أو تتسع، فهي شخصيات قابلةٌ للتطور والنضوج، والزيادة الحركية في أعمالها –في أغلبها – بحسب ما تقتضيه ضرورة الدور الذي تتطلبه منها طبيعة المواقف والأحداث المتسارعة بحسن تصرفها وذكائها.

٣- إنه وعلى الرغم من الكشف عن أسرار الشخصية الثانوية، والتعمق في بواطنها، فقد أضاف المنهج البنيوي التكويني معرفةً بالشخصيات بشكل أوسع، إذ بيَّن أنَّ ما تتأثر به تلك الشخصية من محيطها الذي تعيش فيه، جعلها أكثر وضوحاً وإبانةً في مواقفها التي تتخذها حيال الأحداث والتغيرات التي تمرُّ بها، من خلال جوانب النص أولاً، وما يلقيه المحيط الخارجي حول النص من تأثيرات تترك أثرها في طبيعة تصرفات الشخصيات ونوازعها المختلفة، أو من خلال البنية الفكرية والثقافية التي تكتسبها الشخصية عبر مجموعة من العوامل الاجتماعية، التي ربما تجعل الشخصية تتجه نحو مواقف أُخرى لبلوغ ما ترمي إليه.

٤- ومن نتائج البحث في الشخصيات الثانوية القرآنية – الإيجابية والسلبية منها – أنها لا تبعث على الملل ولا الضجر أبداً في نفس المتلقي مهما كان دورها وتحركاتها، كما هي الحال في بعض شخصيات القصص الأُخرى، بل القارئ لها تجدهُ متابعا منشغلاً ومهتماً بها، ويمتزج معها وكأنها تسير وتتحرك الآن أمامه، فلم يحدّدها زمنٌ ماضٍ، أو حدث وقع وانتهى، فتلاشت أحداثه أو نسيت.

٥- إنَّ أهم نتيجةٍ توصلَ إليها الباحث من خلال تتبع وظائف أبرز الشخصيات التي ذكرت وتحركاتها، هي مسألةُ أخذ العلم من موارده الصحيحة التي تبدأ بطريقة واضحة لا التباس فيها؛ لأن العلم له طرائق متنوعة قد يكون منها مهالك لصاحبه، لاسيما العلم الإلهي، وطريقة التمسك بثوابته، وحث الآخرين على الالتزام بمبادئه النيّرة، ذلك العلم الذي كان هدفاً واضحاً بين أغلب شخصيات القصص القرآني، إن لم نقل في عمومها، فقضية العلم كانت متواصلة مع الشخصيات حتى آخرها. فبالعلم تحققت تجليات كثيرة لدى الشخصيات الصالحة مثلاً، ولكن قلته أو فقدانه عند بعضها الآخر، كان سبباً في أغلب الصراعات والنزاعات المختلفة التي رأيناها؛ لأنَّه أمرٌ كان يمثل القضية الأولى والأبرز التي حددت نجاح الشخصية أو فشلها، لذلك انصبَّ عليه اهتمام جميع الشخصيات سواء أكان ذلك في تحقيق المصلحة الأسمى لأمر السماء، أو تحقيق المصالح الأُخرى، الدنيوية والشخصية الضيقة لكسب المواقف، بسبب الجهل وضياع الرأي لدى الشخصيات المعاكسة.

٦- وفي الختام لاشك في أن جمالية الشخصيات الثانوية في هذا القصص كانت من نواح عدة، وأبرزها كانت الطريقة التي اختيرت فيها لأن تكون مساندة للشخصية الرئيسة بحسب ما تم اختياره لها من أدوار وأفعال متزنة متناسقة من كل جوانبها – الخارجية والداخلية – التي قد أدتها بأكمل وجه من وجوه نجاح عمل الشخصيات وأثرها في مختلف أصناف المتلقين لها.

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع:

خير ما يُفتتح به القرآن الكريم.

- الأب في الرواية العربية المعاصرة، عدنان علي الشريم، تحقيق: خليل الشيخ، ط١، عالم الكتب الحديث – الأردن، ٢٠٠٧م.
- أدب الشريعة الإسلامية، د. محمود البستاني، ط١، مؤسسة السبطين عليهم السلام العالمية، قم- ايران، ١٤٢٤هـ.
- أركان القصة، أ. م. فورستر، ترجمة: كمال عياد جاد، مراجعة: حسن محمود، د.ط، دار الكرنك – القاهرة، ١٩٦٠م.
- الأساس في التفسير، سعيد حوّى (المتوفى ١٤٠٩ هـ)، ط٦، دار السلام – القاهرة، ١٤٢٤هـ.
- الأسلوب والأسلوبية، عبدالسلام المسدي، د.ط، الدار العربية للكتاب - تونس، ١٩٩٠م.
- الإعجاز العلمي إلى أين، د. مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار، ط٢، دار ابن الجوزي – السعودية، ١٤٣٣هـ.
- الإله الخفي، لوسيان كولدمان، ترجمة: زبيدة القاضي، د.ط، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب - دمشق،٢٠١٠م.
- الإله المحتجِب: دراسة عن الرؤية المأساوية في "الأفكار" لباسكال وفي مسرح راسين، ترجمة: عزيزة أحمد سعيد، مراجعة: أنور مغيث، ط١، المركز القومي للترجمة - القاهرة، طبع بالهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ٢٠١٥م.
- انشائية الخطاب في الرواية العربية الحديثة، محمد الباردي، منشورات اتحاد الكتاب العرب – دمشق ، ٢٠٠٠م.
- الايديولوجيا الألمانية، كارل ماركس، و فريديرك انجلز، ترجمة: فؤاد أيوب، ط١، دار دمشق - دمشق - سوريا، ١٩٧٦م.
- بحر العلوم، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (المتوفى: ٣٧٣هـ)، ط١، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.
- البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل، د.ط، دار الفكر- بيروت،١٤٢٠هـ.

- بنية السرد في القصة القصيرة" سليمان فياض نموذجا"، نبيل حمدي الشاهد، د.ط، المجلس الأعلى للثقافة – القاهرة، ٢٠١٦.
- بنية السرد في القصص الصوفي المكونات، والوظائف، والتقنيات، د. ناهضة ستار، من منشورات اتحاد الكتاب العرب- دمشق،٢٠٠٣م.
- بنية الشكل الروائي (الفضاء- الزمن- الشخصية)، حسن بحراوي، ط١، المركز الثقافي العربي – بيروت، ١٩٩٠م.
- بنية النص الروائي، إبراهيم خليل، ط١، المركز الثقافي العربي – لبنان - بيروت، ١٩٩٢.
- بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، حميد لحمداني، ط١، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر – بيروت، ١٩٩١.
- البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، لوسيان غولدمان وآخرون، ترجمة: محمد سبيلا، ط٢، مؤسسة الأبحاث العربية – بيروت - لبنان، ١٩٨٦م.
- تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، د.ط، الناشر: دار الهداية - المغرب.
- التاريخ والوعي الطبقي، جورج لوكاتش، ترجمة: حنَّـا الشاعر، ط٢، دار الأندلس – بيروت - لبنان، ١٩٨٢م.
- تأصيل النص - المنهج البنيوي لدى لوسيان غولدمان، محمد نديم خشفة، ط١، مركز الإنماء الحضاري للدراسات والترجمة والنشر- حلب، ١٩٩٧م.
- التحرير والتنوير - تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد-، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)، د.ط، الدار التونسية للنشر- تونس،١٩٨٤م.
- التحليل الاجتماعي للأدب، السيد يسين، ط٣،مكتبة مدبولي- القاهرة،١٩٩١م.
- تحليل الخطاب الأدبي- على ضوء المناهج النقدية الحداثية-دراسة في نقد النقد، محمد عزام، د.ط، منشورات اتحاد الكتاب العرب – دمشق، ٢٠٠٣م.
- تحليل النص السردي تقنيات ومفاهيم، محمد بوعزة، ط٤، دار الأمان- الدار العربية للعلوم ناشرون - الجزائر، ٢٠١٠م.
- تحولات النص السردي العراقي، عبد علي حسن، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق - بغداد، ٢٠١٣م.
- التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، ط١٠، دار الشروق – القاهرة، ١٩٨٨م.

- تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة، شريبط أحمد شريبط، د.ط، دار القصبة للنشر والتوزيع – الجزائر، ٢٠٠٩م.
- التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن الكريم دراسة دلالية مقارنة، عودة خليل أبو عودة، ط١، مكتبة المنار، الأردن - الزرقاء، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
- تفسير ابن عرفة، محمد بن محمد ابن عرفة الورغمي التونسي المالكي، أبو عبد الله (المتوفى: ٨٠٣هـ)، تحقيق: جلال الأسيوطي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ٢٠٠٨م.
- التفسير البنائي للقرآن الكريم للقرآن الكريم، الدكتور محمود البستاني، ط١، مؤسسة الطبع التابعة للاستانة الرضوية المقدسة، ١٤٢٢ق-١٣٨٠ش.
- تفسير الشعراوي - الخواطر، محمد متولي الشعراوي (المتوفى: ١٤١٨هـ)، ط١، مطابع أخبار اليوم – القاهرة، ١٩٩٧م.
- تفسير الشعراوي- الخواطر، محمد متولي الشعراوي (المتوفى: ١٤١٨هـ)، د.ط، الناشر: مطابع أخبار اليوم - القاهرة.
- تفسير القرآن الحكيم "تفسير المنار"، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (المتوفى: ١٣٥٤هـ)، د.ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.
- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (المتوفى: ١٣٥٤هـ)، د.ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، ١٩٩٠م.
- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية- منشورات محمد علي بيضون– بيروت، ١٤١٩هـ.
- تفسير القرآن الكريم، محمد أحمد إسماعيل المقدم، ط١، دار النابغة للنشر- عمان - الأردن، ٢٠٠١م.
- التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب (المتوفى: بعد ١٣٩٠هـ)، د.ط، دار الفكر العربي - القاهرة.
- تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: ١٣٧١هـ)، ط١، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٦٥هـ-١٩٤٦م.

- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د. وهبة بن مصطفى الزحيلي، ط٢، دار الفكر المعاصر- دمشق، ١٤١٨هـ.
- التفسير الواضح، الحجازي محمد محمود، ط١٠، دار الجيل الجديد – بيروت، ١٤١٣هـ.
- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، ط١، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة- القاهرة، ١٩٩٨م.
- تفسير جزء عم للشيخ مساعد الطيار، د. مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار، ط٨، دار ابن الجوزي – الدمام ــ السعودية، ١٤٣٠هـ.
- تفسير مقاتل بن سليمان، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي (المتوفى: ١٥٠هـ)، تحقيق: عبد الله محمود شحاته، ط١، دار إحياء التراث – بيروت، ١٤٢٣هـ.
- تقنيات السرد في النظرية والتطبيق، آمنة يوسف، ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت - لبنان، ٢٠١٥م.
- تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ)، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط١، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ٢٠٠١م.
- التيسير في أحاديث التفسير، محمد المكي الناصري (المتوفى:١٤١٤هـ)، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان،١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط١، الناشر: مؤسسة الرسالة – المملكة العربية السعودية، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- الجامع لأحكام القرآن - تفسير القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط٢، دار الكتب المصرية – القاهرة، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.
- جماليات التلقي في السرد القرآني، د. يادكار لطيف، ط١، دار الزمان للطباعة، دمشق - سوريا، ٢٠١٠م.
- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي (المتوفى: ١٣٦٢هـ)، ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي، د.ط، المكتبة العصرية - بيروت.

- ❖ الجواهر الحسان في تفسير القرآن، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي(المتوفى: ٨٧٥هـ)، تحقيق: الشيخ محمد علي معوض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، ط ١، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ١٤١٨هـ.
- ❖ الحوار في القرآن، قواعده - أساليبه- معطياته، آية الله العظمى السيد محمد حسين فضل الله، ط٥، دارالملاك للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت - لبنان، ١٩٩٦م-١٤١٧هـ.
- ❖ الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (المتوفى: ٧٥٦هـ)، تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط، د.ط، الناشر: دار القلم – دمشق.
- ❖ دراسات أصولية في القرآن الكريم، محمد إبراهيم الحفناوي، د.ط، مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنية – القاهرة،١٤٢٢هـ -٢٠٠٢م.
- ❖ دراسات في الواقعية، جورج لوكاتش، ترجمة: نايف بلوز، ط٢، منشورات وزارة الثقافة – دمشق، ١٩٧٢م.
- ❖ دراسات في نقد الرواية، طه عمران وادي، ط٣، دار المعارف – القاهرة، ١٩٩٤.
- ❖ دليل الناقد الأدبي، ميجان الرويلي وسعد البازعي، ط ٣، المركز الثقافي العربي - الدار البضاء - المغرب، ٢٠٠٢م.
- ❖ رسم الشخصية في روايات حنا مينة، فريال كامل سماحة، ط١، دار الفارس – عمان ١٩٩٩م.
- ❖ زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط١، دار الكتاب العربي – بيروت، ١٤٢٢هـ.
- ❖ زهرة التفاسير، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفى: ١٣٩٤هـ)، د. ط، دار الفكر العربي - بيروت.
- ❖ سميولوجية الشخصيات الروائية، فيليب هامون، ترجمة: سعيد بنكراد، تقريظ: عبدالفتاح كيليطو، ط١، دار الحوار للنشر والتوزيع – للاذقية - سوريا، ٢٠١٣م.
- ❖ سورة يوسف دراسة تحليلية، د. أحمد نوفل كلية الشريعة- الجامعة الأردنية، ط١، دار الفرقان عمان – الأردن، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
- ❖ سوسيولوجيا الأدب، روبير إسكاربيت، ترجمة: آمال أنطوان عرموني، ط٣، دار عويدات للنشر– بيروت، ١٩٩٩م.

- ❖ سيكلوجية القصة في القرآن، التهامي نقرة، رسالة دكتوراه، الحلقة الثالثة، جامعة الجزائر، الشركة التونسية للتوزيع - الجزائر، ١٩٧١م.
- ❖ صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، ط١، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.
- ❖ الصورة الفنية في المثل القرآني، د. محمد حسين علي، ط١، دار الرشيد، منشورات وزارة الإعلام العراقية - سلسلة دراسات(٢٨٨)، ١٩٨١م.
- ❖ العلوم الإنسانية والفلسفة، لوسيان غولدمان، ترجمة: يوسف الأنطاكي، ط١، المجلس الأعلى للثقافة - بيروت، ١٩٩٦م.
- ❖ العين، كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري(المتوفى: ١٧٠هـ)، تحقيق: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، ط١، الناشر: دار ومكتبة الهلال - المملكة العربية السعودية، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.
- ❖ غرائب التفسير وعجائب التأويل، محمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم برهان الدين الكرماني، المعروف بتاج القراء (المتوفى: نحو ٥٠٥هـ)، ط١، دار القبلة للثقافة الإسلامية - جدة، مؤسسة علوم القرآن – بيروت.
- ❖ فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، ط١، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، ١٤١٤هـ.
- ❖ فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، ط١، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، ١٤١٤هـ.
- ❖ فن القصة القصيرة، د. رشاد رشدي، ط ١، الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة، ١٩٥٩م.
- ❖ فن القصة، محمد يوسف نجم، ط ٥، دار الثقافة – بيروت، ١٩٦٦م.
- ❖ الفن القصصي في القران الكريم، محمد أحمد خلف الله، ط٤، دار سينا للنشر، دار الانتشار العربي – لندن – بيروت - القاهرة، ١٩٩٩م.
- ❖ فن كتابة القصة، فؤاد قنديل، د.ط، الناشر: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٢م.
- ❖ في البنيوية التركيبية دراسة في منهج لوسيان غولدمان، جمال شحيّد، ط١، دار ابن رشد للطباعة - الرياض،١٩٨٢م.
- ❖ في النص الروائي العربي، د.إبراهيم جنداري، ط١، مطبعة تموز– دمشق - سوريا، ٢٠١٢م.

- ❖ في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، عبدالملك مرتاض، د.ط، عالم المعرفة - بيروت، ١٩٩٨م.
- ❖ قال الراوي البنيات الحكائية في السيرة الشعبية، سعيد يقطين، ط١، المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء، ١٩٩٧م.
- ❖ قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، للفقيه المفسر الجامع الحسين بن محمد الدامغاني، حققه ورتبه وأكمله وأصلحه: عبدالعزيز سيِّدَ الأهل، ط٢، دار العلم للملايين - بيروت، ١٩٧٧م.
- ❖ القصة القصيرة دراسة ومختارات، الطاهر أحمد مكي، ط ٨، دار المعارف – القاهرة، ١٩٩٩م.
- ❖ قصص الأنبياء، عبدالوهاب النجار، ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٥٣هـ - ١٩٣٤م.
- ❖ قصص القران الكريم دلالياً وجمالياً، د. محمود البستاني، ط٢، مؤسسة السبطين عليهما السلام– ايران، ١٤٢٨هـ. ق - ١٣٨٦هـ. ش.
- ❖ قصص القرآن الكريم، فضل حسن عباس، ط٣، دار النفائس – الأردن، ٢٠١٠م.
- ❖ القصص القرآني في منطوقه ومفهومه دراسة تطبيقية لقصتي آدم، ويوسف، عبد الكريم الخطيب، ط٢، دار المعرفة - بيروت، ١٩٧٥م.
- ❖ القصص القرآني، محمد باقر الحكيم، د.ط، الناشر: المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام - ايران.
- ❖ القصص القرآنية مقتبس من تفسير الأمثل، ناصر مكارم الشيرازي و مشاركة مجموعة من العلماء، ط١، دار الكاتب – لندن، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
- ❖ قضايا الرواية الحديثة، جان ريكاردو، ترجمة: صيَّاح الجهيم، د.ط، وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق – ١٩٧٧م.
- ❖ القول المعتبر في بيان الإعجاز للحروف المقطعة من فواتح السور، إياس محمد حرب آل خطاب، ط١، مطابع برنتك للطباعة والتغليف - السودان – الخرطوم، ٢٠١١م.
- ❖ كتاب التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ)، ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، ط١، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- ❖ كتاب بلاغات النساء وطرائق كلامهن وملح نوادرهن واخبار ذوات الرأي منهن وأشعارهن في الجاهلية وصدر الإسلام، الإمام أبي الفضل أحمد بن

أبي طاهر المولود ببغداد سنة ٢٠٤هـ - والمتوفى سنة ٢٨٠هـ، جمعه وصححه وشرحه: أحمد الألفي، ط١، مطبعة مدرسة والدة عباس الأول، بالطرقة الشرقية – شارع خيرت بالقاهرة، ١٣٢٦هـ- ١٩٠٨م.

❖ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى:٥٣٨هـ)، ط٣، الناشر: دار الكتاب العربي- بيروت، ١٤٠٧هـ.

❖ الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبوإسحاق(المتوفى: ٤٢٧هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ١٤٢٢،هـ - ٢٠٠٢م.

❖ لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ)، ط٣، الناشر: دار صادر- بيروت، ١٤١٤هـ.

❖ لطائف الإشارات "تفسير القشيري"، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفى: ٤٦٥هـ)، تحقيق: إبراهيم البسيوني، ط٣، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب مصر - القاهرة.

❖ لمسات بيانية "كتاب محاضرات"، فاضل بن صالح بن مهدي بن خليل البدري السامرائي، ط٤، إعداد: أبو عبد المعز، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان – الأردن، ١٤٢٤هـ -٢٠٠٤م..

❖ لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، فاضل بن صالح بن مهدي بن خليل البدري السامرائي، ط٣، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان – الأردن، ١٤٢٣هـ -٢٠٠٣م.

❖ مباحث في علوم القرآن، مناع بن خليل القطان، ط٤، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع - القاهرة، ٢٠٠٠م.

❖ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط١، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤٢٢هـ.

❖ مدخل إلى تحليل النص الأدبي، عبدالقادر أبو شريفة، حسين لافي قزق، ط٤، دار الفكر– الأردن، ٢٠٠٨م.

❖ المدرسة الإسلامية، الشهيد محمد باقر الصدر (قدس)، ط١، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي - مطبعة الأمير- العراق، ٢٠٠٣م.

- المدرسة القرآنية، المرجع الشهيد السيد محمد باقر الصدر (قدس)، ط٢، الناشر: دار الكتاب الإسلامي - مطبعة ستار، ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م.
- المذاهب النقدية الحديثة مدخل فلسفي، محمد شبل الكومي، د. ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، ٢٠٠٤م.
- معالم التنزيل في تفسير القرآن- تفسير البغوي، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى: ٥١٠هـ)، حققه وخرج أحاديثه: محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرشدار، ط٤، دار طيبة للنشر والتوزيع - الرياض، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- معجم السرديات، محمد القاضي وآخرون،ط١، مجموعة ناشرين، ٢٠١٠م.
- المعجم الفلسفي، إبراهيم مدكور، مجمع اللغة العربية- جمهورية مصر العربية، د. ط، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية - القاهرة، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، سعيد علوش ، ط ١، دار الكتاب اللبناني - بيروت، ١٩٨٥م.
- معجم المصطلحات الأدبية، إبراهيم فتحي، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين – تونس ، بد ط ، ١٩٨٦م.
- معجم المصطلحات الأدبية، إبراهيم فتحي، ط١، مؤسسة التعاضدية العمالية للطباعة والنشر- صفاقس - الجمهورية التونسية، ١٩٨٨م.
- المعجم المفصل في الأدب، الدكتور محمد التنوخي، ط٢، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
- مفاتيح الغيب-التفسير الكبير، أبوعبدالله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخرالدين الرازي خطيب الري(المتوفى: ٦٠٦هـ)، ط٣، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ١٤٢٠هـ.
- مفاهيم سردية، تزفيطان تودوروف، ترجمة: عبد الرحمن مزيان، ط١، منشورات وزارة الثقافة – در الاختلاف - الجزائر، ٢٠٠٥م.
- المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: ٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ط١، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، ١٤١٢هـ.
- مقدمات في سوسيولوجيا الرواية، لوسيان غولدمان، ترجمة: بدرالدين عرودكي، ط١، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية - دمشق، ١٩٩٣م.
- من البنية إلى السياق دراسات في سوسيولوجيا النص الروائي، عبد الوهاب شعلان، ط١، مكتبة الآداب - القاهرة، ٢٠٠٧م.

- ❖ مورفولوجيا القصة، فلاديمير بروب، ترجمة: د. عبدالكريم حسن، د. سميرة بن عمُّو، ط١، دار شراع للدراسات والنشر والتوزيع - دمشق، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.
- ❖ نزهة الجلساء في أشعار النساء، للإمام جلال الدين السيوطي، دراسة وتحقيق وتعليق: عبداللطيف عاشور، د.ط، مكتبة القرآن- بولاق – القاهرة، د.سنة.
- ❖ النص الروائي تقنيات ومناهج، برنار فاليط، ترجمة: رشيد بنحدّو، د.ط، منشورات ناثان - باريس، طبع بالهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية، ١٩٩٢م.
- ❖ نظرية الادب، رنيه وليك، آوستن وآرن، تعريب: الدكتور عادل سلامة، د.ط، دار المريخ – المملكة العربية السعودية، ١٩٩١م.
- ❖ نظرية الرواية وتطورها، جورج لوكاتش، ترحمة: نزيه الشوفي، د.ط، دار كيوان – سوريا، ١٩٨٧م.
- ❖ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ)، ط١، الناشر: دار الكتاب الإسلامي – القاهرة.
- ❖ هل العهد القديم كلمة الله، منقذ بن محمود السقار، ط١، دار الإسلام للنشر والتوزيع – جمهورية مصر العربية، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.
- ❖ الواقع الفلسطيني في الرواية دراسة نقدية في أدب غسان كنفاني وجبرا إبراهيم جبرا، د. كريم مهدي المسعودي، ط٢، دار تموز- دمشق، ٢٠١٤م.
- ❖ الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، ط١، دار القلم، الدار الشامية – دمشق - بيروت،١٤١٥هـ.
- ❖ الوسيط في تفسير القرآن المجيد، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس، قدمه وقرظه: الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي، ط١، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت - لبنان، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
- ❖ ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن، محمد بن عبد الواحد بن أبي هاشم، أبو عمر الزاهد المطرز الباوَرْدي، المعروف بغلام ثعلب (المتوفى:

٣٤٥هـ)، حققه وقدم له : محمد بن يعقوب التركستاني، ط١، مكتبة العلوم والحكم – السعودية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

الرسائل والأطاريح الجامعية:

- ❖ اتجاهات التأليف ومناهجه في القصص القرآني، سليمان محمد الدقور، أُطروحة دكتوراه، إشراف: أ. د. فضل حسن عباس، كلية الشريعة - جامعة اليرموك - الأردن، ٢٠٠٥م.
- ❖ بناء الشخصية في روايات ميسلون هادي، رياض حسن هادي، رسالة ماجستير، بإشراف:الدكتور كريم مهدي المسعودي، جامعة القادسية - كلية التربية - قسم اللغة العربية، ٢٠١٧م.
- ❖ البنية السردية (المكان- الزمن- الشخصيات) في رواية الأعظم لإبراهيم سعدي، رسالة ماجستير، إعداد الطالبتين: مهاجري ليندة، مرار صورية، إشراف: الأستاذ سعيد إباون، جامعة بجاية - كلية الآداب/ قسم اللغة والأدب العربي - الجزائر،٢٠١٣- ٢٠١٤م.
- ❖ بنية الشخصية في رواية "أحلام مدينة" لـ: فريدة إبراهيم، رسالة ماجستير، صونيا سويسي، إشراف الأستاذ الدكتور: امحمد بن لخضر فورار، الجمهورية الجزائرية - جامعة محمد خيضربسكرة/كلية الآداب واللغات - قسم الآداب واللغة العربية - الجزائر، ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م.
- ❖ البنيوية وما بعدها - النشأة والتقبل، أُطروحة دكتوراه: سامر فاضل عبد الكاظم، إشراف: الدكتور قيس حمزة الخفاجي، جامعة بابل - كلية التربية/ صفي الدين الحلي - قسم اللغة العربية، بابل – العراق، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
- ❖ التشكيل البلاغي للصورة الفنية في القرآن الكريم، محمد محمود صالح قاسم، أُطروحة دكتوراه، إشراف: أ. د. عبدالقادر الرباعي، جامعة اليرموك – كلية الآداب/ قسم اللغة العربية وآدابها - الجزائر، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
- ❖ الحبك المكاني في السياق القصصي القرآني "سورة يوسف أنموذجاً"، آمنة عشاب، رسالة ماجستير، إشراف: د. عميش عبدالقادر، جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف/ كلية الآداب واللغات- قسم اللغة العربية وآدابها - الجزائر، ٢٠٠٦-٢٠٠٧م.
- ❖ سيميائية الشخصيات في رواية عشرة أيام في الفردوس لـ الدكتور أحمد شنه، رسالة ماجستير في اللغة والأدب العربي إعداد الطالبتين: ليلى جباري،

نادية قواسمية، إشراف: الدكتور رشيد منصر، جامعة العربي - تبسة- كلية الآداب واللغات - الجزائر، ٢٠١٦-٢٠١٧.

❖ الشخصيات غير الرئيسة في رواية مدينة الله لحسن حميد، كوثر محمد علي، رسالة ماجستير: قسم اللغة العربية – جامعة الموصل/ كلية الآداب، إشراف: د. عمار أحمد عبدالباقي - العراق، ١٤٣٣هـ - ٢٠١١م.

❖ الشخصية البطلة في أدب البطولة الجزائري بين الحضور والغياب "فن المغازي وقصص الأولياء" أنموذجاً، رسالة ماجستير، صليحة عوينات، إشراف الأستاذ: عبدالكريم شبرو، الجمهورية الجزائرية - جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي/ كلية الآداب واللغات - قسم اللغة والأدب العربي - الجزائر، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.

❖ الشخصية في رواية اللاز للطاهر وطار"دراسة فنية"، رسالة ماجستير، لزهر ساكر، إشراف الاستاذ: د. باديس فوغالي، الجمهورية الجزائرية- جامعة العربي بن مهيدي-أم البواقي/كلية الآداب واللغات والعلوم الانسانية والاجتماعية-قسم اللغة والأدب العربي - الجزائر، ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م.

❖ شعر أبي تمام دراسة بنيوية تكوينية، اطروحة دكتوراه، إيناس كاظم شنبارة، إشراف:أ.د. عباس محمد رضا، قسم اللغة العربية، كلية التربية ـ جامعة بابل - العراق، ٢٠١٧م.

❖ شعر اللصوص في العصر الأموي في ضوء البنيوية التكوينية، بشائر أمير عبدالسادة، أُطروحة دكتوراه، إشراف: أ.د. هناء جواد عبدالسادة، جامعة بابل – كلية التربية، ٢٠١٣م.

❖ العجائبي في المخيال السردي في ألف ليلة وليلة، رسالة ماجستير، سميرة بن جامع، إشراف: الدكتور صالح لمباركية، جامعة الحاج لخضر- باتنة - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - قسم اللغة العربية وآدابها - الجزائر، ٢٠٠٩-٢٠١٠م.

❖ العناصر القصصية في قصة سيدنا موسى عليه السلام في القرآن الكريم، رسالة ماجستير، الصادق أبو حسن، إشراف: د.عوض السيد موسى عوض السيد، جامعة النيلين – كلية الدراسات العليا/ قسم اللغة العربية - الخرطوم، ٢٠١٠م.

الـــــدوريـــات:

❖ الحوار في القصة القرآنية - قصة موسى(عليه السلام) انموذجاً-، م. د. نبهان حسون السعدون، م. د. يوسف سليمان الطحان، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، مج: ٧، ع: ٤، ٢٠٠٨م.

- الدور الوظيفي للمكان في القصص القرآنية على ضوء البنيوية التكوينية "قصة نبي الله موسى عليه السلام أنموذجاً"، كبرى روشن فكر، وعدنان زماني، ويوسف غرباوي، مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية، مجلة علمية دولية محكمة تصدر شهريا، ع: ٤٣، ٢٠١٨م.
- السياق أنماطه وتطبيقاته في التعبير القرآني، م. د. خليل خلف بشير، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، مج: ٩، ع: ٢، ٢٠١٠م.
- الشخصيات العجائبية في رواية "ساعة بغداد" لشهد الراوي، أ. م. د. سالم نجم عبدالله، نور عادل محمد، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، مج: ١٥، ع:٢، ٢٠١٩م.
- الشخصية القصصية بين الماهية وتقنيات الإبداع، صلاح أحمد الدوش، أماراباك - مجلة علمية محكمة تصدر عن الأكاديمية الأمريكية العربية للعلوم والتكنولوجيا، مج:٧، ع:٢٠، ٢٠١٦م.
- الشخصية وتمثلاتها في رواية (بقايا صور) للروائي حنامينه، أوراس سلمان كعيد، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية – جامعة بابل، ع:٣ ، ٢٠١٧م.
- الشخصية، الأستاذ أحمد أمين، مجلة الرسالة للآداب والعلوم والفنون - القاهرة، ع: ٦٠، ١٩٣٤م.
- مدخل إلى البنيوية التكوينية في القراءات النقدية العربية المعاصرة، نورالدين صدار، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، مج: ٣٨، ع: ١، ٢٠٠٩م.
- موجز تاريخ اليهود والرد على بعض مزاعمهم الباطلة، محمود بن عبد الرحمن قدح، ط٢٩، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة - السعودية، ع: ١٠٧، ١٤١٨ - ١٤١٩هـ.

المواقع الإلكترونية:

- مدخل إلى البنيوية التكوينية، بقلم: د. جميل حمداوي عمرو، موقع: كتب ودراسات، مقال من شبكة الأنترنت، تاريخ النشر: ٢٠٠٦/١٢/١٢م، صندوق بريد: ٥٠٢١ - الناظور المغرب.ح

الخـاتـمـة باللغة الإنـجليزية

Summary.....

After meditating on the spaces of the personality and its interior, and what was added to it by the method adopted in the research, the study reached several results that can be summarized as follows:

The Qur'anic fictional character was and still is a primary goal in her move through which she gave her purpose, and indicated the intended purpose of her movement when she worked her jobs. In its activity, it seeks to be more inclusive and influential on its recipients. The secondary character in the Qur'anic stories is characterized by the speed of interaction and integration with events as they develop or expand, as they are characters capable of development and maturity, and the increase in mobility in their work - in most of them - as dictated by the necessity of the role required by the nature of the accelerating situations and events with their good behavior and intelligence. In spite of revealing the secrets of the personality and deepening its insides, the formative structural approach has added knowledge of the characters more broadly, as it showed that what the character is affected by from the surroundings in which they live, made them more clear and clear in their attitudes towards the events and changes they go through through What this environment leaves on the nature of its behavior, or through the intellectual and cultural structure that the personality acquires through a set of social factors, which may make the personality head towards other situations to achieve what it aims at. One of the results of the research in the secondary characters of the Qur'an - positive and negative - is that they never cause boredom or boredom in the same recipient, regardless of their role and movements, as is the case in the characters of other

Summary.....

stories. In front of him, it was not determined by a past time, or an event that occurred and ended. The most important result reached by the research by tracing the functions and movements of the characters is the issue of divine science, the way to adhere to it and urge others to adhere to it, that science that was a clear target among most of the characters of the Qur'anic stories, if not in general, and the issue of science was continuous with the characters. Until the last. With knowledge, many manifestations were achieved by the righteous personalities, for example, but its lack or loss in some others, was the cause of most of the various conflicts and disputes that we saw, because it was a matter that represented the first and most prominent issue that determined the character's success or failure. The supreme interest of the Cause of Heaven, or the fulfillment of other interests, worldly and narrow personal, to win positions, due to ignorance and the loss of opinion of the opposite characters.

Republic of Iraq

Ministry of Higher Education

And Scientific Research

AL-Qadisiya University

College of ARTS

The secondary characters in Qur'anic stories is a study in the light of the formative structural approach

A Thesis

Submitted to Council of the College of Arts University of AL-Qadisiya in Partial Fulfillment of the Requirement for Degree of Master in Arabic Language and Literature

By

Aqeel Abid Muslim Hashem Al Faham

Supervised By

Asst.Prof. Kareem Mahdi Al Masoodi

1441 A.H

2020 A.D.